ميشيل زيفاكو

١

الفارس الخالد



دار البحار

المتعهد الوحيد لتوزيع منشوراتنا

دار و مكتبة الهلال للطباعة والنشر

بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية - ملك دار ومكتبة الهلال

تلفون: 601020 / 601002 / 8-7-823526 (01) مقسم: 1216 خليوي: 672366 (03)

فاكس: 603286 1 (961) - ص.ب.: 5003 / 15 - بيروت لبنان

تمهيد

كانت فرنسا في عهد الكاردينال ريشيليه ، فريسة للمكائد والدسائس ، وكان ذلك الداهية ريشيليه ، يعتقـــد انه لا يمكن أن يحكم أو أن يمسك زمـام أمـــور الدولة ، إلا إذا أطلق من جعبته جميع سهام المكر والدهاء ، فلذا حكم البلاد بالسيف والقوة من جهة والخداع والخيانات والمؤامرات من جهة أخرى .

وتفشت هذه الأمراض في جميع أوساط الشعب من الأشراف حتى العبيد والخدم من حقير ونبيل .

واذا كان الحاكم الحقيقي لفرنسا هذا شأنه فلقد كان الملك شبه صورة لا يستطيع ان يقف أمـام سيطرة الكاردينـــال ودسائسه ورجاله ، كما ان الاشراف منهم من انحاز الى جانب الملك ، ومنهم من انحاز الى جانب السطوة والقوة .

فحصلت أول الامر بعض المعارك التي خرج فيها الكاردينال منتصراً ولكن إذا كانت دولة الباطل ساعـة ، فإن دولة الحق تدوم حتى قيام الساعة ، فان تلك الدسائس التي كان أبطالهـا رجال ريشيليه وأعوانه من الأشراف عادت عليهم بأوخـــم العواقب .

اذاً لم يعدم ذلك العصر ، وهو من أزهى عصور الفروسية والسيف في فرنسا وأوروبا كلها ، أن يقوم احد الفرسان ومن تؤلمه

هذه المظاهر وتلك الدسائس من حقوق تهضم ، وأعراض تدنس وكرامات تهدر ، لم يعدم ذلك العصر من رجل هزته كل هـذا فحارب المظالم والدسائس والمكر بقلبه وسيفه حتى انتصر .

وهذه الرواية تبين لنا كيف استطاع بطلنا الفارس الخالد ريكمبرج أن ينتصر على مكائد خصومه وخصوم بلاده وهم من أصحاب الوجاهة والنفوذ . وسيجد القارىء ان مؤلف القصة لم يغال بوصف بطل قصته هـذه بل أنه قد أنصف البطل ريكمبرج ، وهو المؤلف المعروف وصاحب روايات تاريخ فرنسا المعروفة مثل : كابيتان وبارديليان وريكمبرج وغيرها من الروايات الهامة والمعروفة بإسم ميشال زيفاكو .

*

لحظة عابرة

١

كانت الشمس قد شارفت على المغيب وهي تنحدر ببطء وراء الأفق الملتهب .

وكان النسيم العليل يداعب أوراق الأشجار على ضفاف نهر اللور وهي، تصفق فرحة جذلة في ذلك اليوم الرائع من أوائل شهر مارس سنة ١٦١٨ .

وكان النسيم البارد يداعب الى جانب الاوراق وجه ذلك الرجل الذي يسير على جانب النهر وهـو يتشح برداء يدل عن الغنى والثروة والأناقة .

كما كان سيفه الطويل يدل عن ان لهذا الفارس مكانة في دنيا السيف ، شأنه شأن جميع الاشراف ، والذي يدقق النظر في هيئة هذا الرجل يدرك ان هنالك ما يشغل باله وما يعكر عليه هذه النزهة الجميلة ، بحيث انه لم يكترث الى جميع هذه المناظر والمظاهر حوله . فلقد كان يسير ورأسه الى الارض إلا أنه كان مع كل هذا يقف من حين الى آخر كي يتأمل جمال هـذا النهر الخالد وهذه الدور البديعة حوله .

وكانت تشوبه رعشة من لذة وهو يتأمل منظر الامـواج

الخفيفة ـ الناعمة ، فتتكسر عند أقدام الشاطىء .

إلا انه سرعان ما بانت على وجهه إمارات الألم والانزعاج فيحث خطاه ويسرع بالمسير . فلقد كان قلبه في بُعد عن جميع هذه المناظر الخلابة الرائعة بل انه كان بنفسه وفكره وقلبه هناك ، في ذلك القصر الذي يطل عليه وهو يربض كالطود الشامخ .

هنالك أمله وأمنيته في الحياة، التي طالما عاش على أن ينالها. أما الآن فهو يفكر ويقلب الأمر ، فله بما هنالك خصم آخر . ليته يعرف من هو. وامتدت يده الى مقبض حسامه وهو يتحرق غضباً وألماً .

كان الليل قد أقبل بعد ان طردت جيوش الظلام جيوش النور وأقبل معه القمر الفضي بأشعته الضعيفة الواهنة ، والرجل لا يزال يسير وقد بدت على وجهه إمارات الصرامة والجد

وكأنما هو لم يشعر بذلك الليل الذي لفه ، فحياته منذ مدة ليل مظلم طويل لا أثر للنور فيه .

ولكنه قد شعر بلفحة من برد الماء تلفح وجهه فأنزل قبعته العريضة ذات الريشة الجميلة ، وركزها في رأسه ، ثم تلفح بردائه وعاود السير بخطوات ثابتة صارمة نحو غرضه .

وأقبل على ذلك القصر المنيف ، وعلى تلك الحديقة الغناء التي تحيط به فتملأ الجو سحراً وجمالاً وروعة وأناقة .

وتذكر وهو يمر بهذه الحديقة ، ان في داخل هذه الحديقة

تكمن ذكريات جميلة حلوة ؛ انها أولى ذكريات قلبه في عالم العشق والهيام ، عالم الحب ، وللحب بداية .

وطاف الرجل العاشق الهائم بسور الحديقة وهو يتحرق شوقاً ورغبة ، وحاول أن يكمل طريقه إلا أن أقدامه لم تطعه ، بل كان قلبه يأمره ويلح عليه بدخول هذه الحديقة ..

فلم يكن منه إلا ان لبى نداء قلبه فطاف بالحديقة مراراً ولكنه كان تائهاً شارد الفكر ، وعاد يطوف بالحديقة وهو ينظر الى أي مكان يمكن منه أن يتسلق الجدار ويدخل الى الحديقة .

وأوشك أن يقنط من عدم إمكانه دون أن يجد الحل المطلوب إلا أنه لم يلبث ان وجد نفسه أمام باب صغير ، وقد رُبط في حلقة هذا الباب لجام جواد ، فأخذ قبضة الباب ودفعه إلا ان الباب بقي موصداً .

وأوشك أن يقنط مرة أخرى . فلقد أزعجه وزاد في شكوكه رؤية هذا الجواد في هذا المكان . إنه لا بد أن يكون وراء وجوده بعض الامور التي قد يفيده أمر اكتشافها .

لذلك سرعان ما انفتقت له الحيلة ، وقديماً قيل : الحاجة ام الاختراع ، فانه أسرع وامتطى الجواد ، ثم أصبح بإمكانه أن يتسلق الجدار الذي قفز منه الى الحديقة وهكذا وجد نفسه في حديقة الذكريات ، فأثار أشجانه هذا الهدوء والسكون ، ثم هذه الروائح الطيبة التي تملأ جو الحديقة ، فأخذ يسير بحذر ويجول خلال الاشجار الظليلة كأنما هو لص في طريقه الى سرقة

فعجب من نفسه كيف تقدم على مثل هذا العمل الغير لائق برجل مثله يحمل لقب كونت ، إلا ان قلبه كان لهذه الافكار بالمرصاد .

وكان هو يعرف المكان جيداً ، ويعرف تلك المقصورة التي تجلس فيها صاحبة البستان حبيبته ، لذلك فكر انه لربما ان تكون في ذلك المكان وفي هذه الليلة الجميلة. وهكذا كان قلبه يتجه به نحو تلك الجميلة الرائعة .

ولكنه لم يكد يصبح على مقربة من ذلك المكان حتى خفق قلبه واصطكت ركبتاه وهو الفارس الشجاع . انه الحب ، لغته الخفقان ... سيما وقد سمع صوت تلك الحسناء التي يحبها ، بل التي يعبدها .

وكم كانت دهشته عندما سمع صوتها رقيقاً عذباً ، إلا انه كان يشعر وكأنما ضربات سياط تلهب ظهره بنار كاوية .

فلقد سمع صوت جورجيت فاهتز وارتجف ، وخفق قلبه بين ضلوعه .

وامتدت يده الى مقبض حسامه وهو يتميز غضباً عندما سمع صوت رجل وقد كادت الغيرة تملك عليه كل مشاعره وتقتله فيندفع نحو مصدر الصوت ليعمل فيه طعناً وضرباً .

إلا انه تمالك زمام نفسه وضبط أعصابه وأصغى الى الحديث الذي يدور بين هذا الرجل وبين جورجيت .

وكم كان غضبه شديداً عندما سمع الرجل يناجي جورجيت قائلا :

— يشهد الله ايتها الحبيبة انني كنت اريد من كل قلبي ان أسرع في عقد الزواج ، ولكن هنالك بعض الإسباب التي حالت دون ذلك .

ثم صمت فجأة بينما شممت زفراتهم الحارة ، وعاد الصوت يقول :

ان هنالك بعض العوامل التي جعلتني اتأخر عن ذلك الامر الحبيب الى نفسي .

وأتى صوتها عذباً ناعماً حنوناً :

— وما هي هذه الامور الهامة ؟

فأجاب الصوت بعد برهة وجيزة خالها رجلنا أو قل عاشقنا شهراً طويلا :

— لقد مهد لي الحظ ان أصل الى قرب الحبيبة وسهل لي الأمر ولا بد من الذهاب اليه .

وعاد صوت جورجيت يهلع :

— إذن ستسافر .

— أجل يا حبيبتي .

— ومتى يكون ذلك ؟

— بعد ثلاثة أيام .

— إذن فهذه المدة كافية لعقد قراننا ، فغداً سأعترف لوالدي بكل شيء ، وهو لا بد سيوافق على زواجي منك يا مركيزي الجميل .

– ان لهجتك الصادقة يا حبيبتي سهام تصوب الى قلبي هذا الذي يخفق بحبك الى الأبد .. ولكن ..

ولكن ماذا ؟ .. اجابت بلهفة .

– ولكنني ذاهب الى الحروب ، وقد يحصل لي مكروه ولا اريدك بعد هذا أن تكوني يائسة .. او أرملة .

فارتعدت الفتاة وقالت :

– أرملة .. يا الهي ، عن ماذا تتكلم ؟

فأجاب :

– كل شيء في الامكان يا فتاتي ، فعصرنا هذا عصر حروب وقلاقل ومشاكل ، ولم يعد بامكان الرجل أن يأمن لاحد . وبما انني سأخوض غمار معارك ضارية ، فلا يعلم سوى الله ما هو المصير ولكن تأكدي بأنني سأحارب بكل ما لدي من عزم وشجاعة حتى اعود اليك منتصراً .

وأخذت الفتاة تنشج بالبكاء وهي تقول بصوت تقطعه العبرات :

– انني سأدعو الله ان يحفظك لي ، وان تعود لي سالماً منتصراً يا بطلي الحبيب ويا كل أمل عندي في الحياة .

– لا تبكي يا حسنائي . فان للمحبين إلهاً يحفظهم ، وسيحفظني الله كي اعود اليك يا أجمل امرأة رأتها عيناي . وإن هي إلامدة بسيطة وأعود الى احضانك لأنعم بروحك الطاهرة وحبك الكبير وحنانك الابدي .

– أتعدني وعداً اكيداً يا هنري .

فوضع يده على مقبض سيفه وشهره فاذا بالسيف يلمع لمعاناً رائعاً على ضوء القمر الشاحب وهو يقول :

– انني اقسم على هذا السيف .. وأقسم لك بشرفي .

ثم ضمها الى صدره وتناول شفتيها الندبتين بشفتيه القويتين وغرقا معاً في قبلة طويلة رائعة . ثم نهض وهو يقول : الى اللقاء يا اجمل نساء فرنسا والارض ايضاً . ان هذه القبلة هي العهد وهي الخطبة .. فهل تحفظين هذا العهد ؟

وأتى صوتها قائلاً :

– الى الأبد .. انني لك يا هنري ، باركك الله .

ثم تركها ومضى سريعاً الى جواده بينما أصبحت هي داخل القصر .

أما الرجل الذي كان يسمع كل هذا فقد اصفر وجهه وتصبب العرق من جبينه ، وأخذ منه الغضب والغيرة كل مأخذ ، ولوّح بقبضته في الفضاء كأنما يتوعد السماء وعدالة الله ، وهو يتمتم :

هنري دائماً هنري كأنما كتب عليّ ان يسلبني كل شيء .

وحاول ان يلحق بالفتاة ولكنها كانت اصبحت داخل القصر لذلك اسرع عائداً بنفس الاتجاه الذي دخل منه والغيرة تأكل قلبه والغضب يمزق كل كيانه .

ومن يراه في هذه اللحظة يدرك ايضاً ان هذا الرجل الذي يدعى الكونت دي بولاري تدل علامات وجهه على ما في نفسه من الخبث والمكر . وان نيته ليست صافية . ولكنه كثير

الطمع والشجع .

ولم يكد يصل الى مكان الجواد ويتفقده حتى سمع وقع حوافره في البعيد فأدرك ان خصمه قد اختفى في طريقه الى غرضه .

وقفل الى داره وهو يزمجر ويتوعد ، انها الخيبة والحرمان التي احتلت كل زوايا نفسه .فدخل الى غرفته وانزوى فيها حتى انه لم يشعل الانوار ولكنه لم يقم طويلا وهو يفكر إذ أقبل رئيس خدمه وأمين سره وهو ينحني باحترام ويقول :

– هل سيدي الكونت بحاجة الى نور ؟

– كلا .. والآن إذهب . ولا تعد إلا إذا دعوتك الى ذلك

فأجاب رئيس الخدم :

– لقد كنت انتظر عودتك .

– ولماذا هذا الانتظار ؟

– كريمال ، وكيل منزل أخيك .

– ماذا يريد مني ؟

– لقد نقل لي ان المركيز شقيقك يريد ان تذهب اليه في تمام الساعة الثامنة من صباح غد لانه يريدك في أمر هام .

– ماذا يريد المركيز مني ايضاً .. قالها بتحرق .

– لست أدري على وجه التحديد ، فلقد امتنع كريمال ان يقول شيئاً .

كان الكونت دي مولاري لا يزال غاضباً فخاطب رئيس خدمه قائلاً :

– اسمع يا برجريت ،سوف لا أذهب الى دار أخي ، هذا.. في الصباح فلذا لا لزوم لازعاجي ، هل فهمت ؟

– ليفعل سيدي ما يريد .

ونهض الكونت وأخذ يسير في الغرفة وهو بادي الغضب فخاطبه جاك قائلاً :

– هل لي ان أسأل ما سبب غضب سيدي الكونت ؟

فتنهد الكونت وهو يقول :

– بل قل انني قانط .. يائس .

– معاذ الله .. قالها برجريت بتعجب .

– أجل انني قانط منها .

– من من ؟

– أتعرف تلك الحسناء جورجيت ؟

– أجل .. وأعرف انك تحبها .

– لقد ذهبت الى والدها كي أطلب يدها ، ولكن ..

– ولكن ماذا ، هل ردك خائباً ؟

– كلا ، ولكن الفتاة رفضت .

– وماذا حصل بعد هذا ؟

خرجت كئيباً لهذا الرفض ، لذا أخذت أفكر انه لربما ان يكون هناك شخص آخر .

وصادف انه بينما كنت الليلة أسير بتلك الضاحية قادتني قدماي الى قصر والدها .

– وماذا حصل بعد هذا ؟ سأل برجريت بلهفة .

– لقد وجدت جواداً على باب الحديقـــة ، ثم دخلت باب الحديقة ، كانت دهشتي عندما سمعت جورجيت تتحدث الى أحد الرجال .

– إذن كان هناك أحد الرجال .. إذن يوجد خصم .

– نعم فإن لي مزاحماً على قلب هذه الحسناء الفاتنة

– أهذا الذي تضطرب من أجله يا سيدي ؟

– ألم تحب طوال عمرك يا برجيت .. ألم تعلم ما هو الهوى .

فقال برجيت بتزلف :

– كلا يا مولاي ، وإذا كان الهوى والغرام سيصنعان بي ما قد أوصلاك اليه ، فلست راغب فيهما .

– اني شديد الحزن يا برجيت .

– تمنيت لو كنت مكانك ..

– ماذا تفعل ؟

– الأمر في غاية البساطة .

– أجد وسيلة للوصول الى الفتاة .

– وكيف ذلك ؟

– أتخلص من المزاحم .

– كيف تتخلص منه ايها الشيطان ؟

– أقتله .

فارتعش الكونت لسماعه هذه الجملة الرهيبة فوقف في وسط الغرفة وهو كالمذهول ، بينما تابع برجيت حديثه قائلاً :

اجل ، أقتله ، او ارسل اليه من يقتله ، ففي هذه المدينـة الكثير من السفاكين الذين يقومون بأي عمل لقاء اليسير من المال .

إلا ان الكونت أمره بالسكوت وهو يقول :

– ليتك تدري .

– هل هناك أشياء خافية ؟

– أجل ..

– ان كنت تعتقد ان فتاتك ستحزن على خصمك فان هذا لن يطول ، إذ سرعان ما تعود الى حظيرة حبك .

– ليت الأمر هكذا .

– إذن ماذا هنالك ؟

– أتريد حقاً أن تعلم ، أيها الشيطان ؟

– أجل بحق السماء ، ان هذا الأمر لمثير .

– انه هنري .

– هنري شقيقك ؟

– أجل ، هو مركيز دي كولدراي !!

– أجل ، والآن اخرج ، انني اريد أن اكون في وحدة تامـة ..

كان برجريت في الخامسة والاربعين من عمره وهو ذكي الفؤاد فاسد الاخلاق اختاره الكونت من بين جميع خدمه وأحسن به الظن وقرّبه منـه ، فلم يمضِ زمن وجيز حتى بات كاتم أسراره .

وكان لين العريكة شديد الخبث ، فكان يتظاهر بالامتثال التام للكونت في كل ما يريد ولكنه كان في الحقيقة الآمر عليه .

ولذلك لم يكن الكونت يكتم عنه شيئاً من سرائر قلبه فقال له :

نعم ان مزاحمي أخي وأنت تعلم كم لقيت من الشقاء في هذا الاكتشاف الاليم ، فإن أخي كما تعلم قد سلبني كل شيء وحقدي عليه قديم منذ خلقت ومنذ بدأ يتمتع بحقه بصفته بكر أبي ورئيس العائلة .

وفوق ذلك فان الطبيعة نفسها قد غرست في قلبي بذور هذا الحقد وانظر يا برجريت اليّ واليه ووازن بيني وبينه تجد له من الجمال بقدر ما لي من القبح وتراه من أعظم رجال الثروة وأنا شبه فقير معدم إذ ليس لي غير ثلاث مزارع تبرع علي بايرادها تبرعاً ، ثم اننا ترددنا معاً على منزل المسيو لوبزمونت وليس له غير بنت واحدة فكان نصيبنا اني أحببت تلك الفتاة وانها أحبته دوني .

وهو الان يحاول سلبها مني دون أن أستطيع دفاعاً ومعاذ الله ان يكون ذلك فهو فوق مقدرتي .

وبعد فبماذا استحق أن يكون له عليّ هذا الامتياز أبذكائه أم بجده واجتهاده وهو على ما تعهده ؟

انه لم ينل ذلك إلا بالصدفة والاتفاق فإنه خلق قبلي بثلاثة

أعوام وهذا كل ما أوتيه من الفضل . ألست مصيباً بكرهي إياه يا برجريت .

فتكلف برجريت هيئة الدعة والاشفاق وقال : إني إذا وافقت على انك مصيب لا تغير موافقتي على ذلك شيئاً من الحالة وأنت الان في حالة من الاضطراب لا تحسن معها المناقشة والابحاث ، وعندي انه يجدر بك الليلة ان تستريح بالنوم وعند الصباح نعود الى البحث .

فنم الان يا مولاي وفي الصباح يسكن هياجك وتطيب المباحثة .

فامتثل الكونت لنصائح خادمه وتنهد تنهداً طويلاً وذهب الى سريره .

وفي صباح اليوم التالي نهض من سريره وهو على ما كان عليه من الهياج ، فانه لم يغمض له جفن في تلك الليلة ، فقد كانت جورجيت مع أخيه ممثلين له في ساعتها وكانت تلك القبلة تدوي في أذنيه فتسحق فؤاده .

وفي الساعة الثامنة دخل اليه برجريت فقال له : أيذهب مولاي الكونت الى أخيه المركيز ؟

قال : كلا فإني لا أطيق أن أراه .

– انك حر يا سيدي تفعل ما يروق لك فعله ولكن أخاك المركيز لم يدعك اليه إلا لشأن خطير وأية خسارة عليك من زيارته فانك لم تزره مرة إلا عدت من عنده غانماً ، فقد عين

لك ايراداً قدره عشرة الاف فرنك في العام ومنحك ثلاث مزارع يبلغ إيرادها عشرين الفاً .

ـ اذن أنت ترتأي أن أخضع له ما حييت .

ـ لم أقل ذلك يا مولاي بل نصحتك ان تلبس ملابسك وتذهب الى اخيك .

ـ حسناً فسأذهب والويل لك اذا حدث لي ما أكرهه .

ثم لبس ملابسه وتقلد حسامه وذهب الى قصر أخيه فذهل حين رأى انهم دخلوا به تواً الى قاعة الطعام وحين وجد حول المائدة نحو عشرين رجلاً معظمهم من نظار زراعات أخيه .

فأسرع المركيز الى استقباله فصافحه قائلاً : اننا ننتظرك يا ادوارد ، ثم أجلسه على يمينه .

وذهبوا الى الطعام حتى إذا فرغوا منه خاطب المركيز أخاه أمام المدعوين فقال :

لقد آن لي أيها الأخ العزيز ان أخبرك بالسبب الذي دعوتك من أجله فاعلم

انه قد يمكن حدوث تغيير عظيم في حياتي ، فإني عازم على الزواج مرة ثانية بعد شهرين او ثلاثة اشهر فلا يزعجك يا أخي هذا النبأ فإن التي عزمت على الاقتران بها جديرة بي ..

ولما كنت غنياً فقد أردت ان تكون مثلي حتى اذا أردت الزواج تستطيع الاقتران بفتاة تناسبك بالثروة والمقام .

أما السبب في تأخيري القران الى ثلاثة أشهر فهو اني

قد تعهدت للمارشال مونمورانسي بان أنضم اليه ، ولا بد لي من مبارحة اللورين والذهاب اليه .

ولا أجهل اني وإياك على تناقض في الرأي والسياسة وإني لا أرى رأيك في التشييع للكردينال .

فابق أنت هنا إذا أحببت وأما أنا فلا بد لي من السفر على عرفاني بما سألاقيه من الأخطار في تنفيذ مشروعات مونمورانسي وما دعوتك إلا لما أتوقع حدوثه من هذه الأخطار .

ولذلك دعوتك ودعوت جميع نظار مزارعي حتى اذا فوجئت بالموت كنت أنت الوصي على ولدي رينالدو وتنوب عني في إدارة ما أخلفه له من الثروة ، إذن فاسمعوا جميعكم ما أقول:

إني أعهد امامكم جميعكم الى أخي أدوارد بإدارة شؤون ثروتي منذ اليوم لاني مسافر في الغد وهو السيد المطلق عليكم كما كان المركيز دي كولدراي الى أن اعود ، فإذا لم أعد حق له التمتع بثروتي وإدارتها كما يشاء دون رقيب او منازع الى ان يبلغ ولدي سن الرشد ، واريد منكم ان تقسموا له أمامي يمين الطاعة .

فصاح الجميع قائلين : نقسم على الامتثال .

فالتفت المركيز الى اخيه وقال له ، أتقسم انت ايضاً على القيام بهذه المهمة بما أعهده بك من الوفاء .

فاضطرب الكونت ثم عانق أخاه كأنه اقسم ولكنه لم يحلف اليمين .

وقد حمل المركيز العناق على محمل الصدق في الاخاء فلم يلح عليه بحلف اليمين بل عانقه ايضاً وقال له :

اني مسافر بعد ساعة الى قصر كولدراي لأتأهب للسفر ، ويوم الخميس اسافر الى المارشال لا يصحبني غير خادمي كريمال فلا اطيل زمن الوداع فاني أرى بين عينيك دلائل الحزن لفراق. إذن استودعك الله ايها الأخ العزيز وأعهد اليك بولدي رينالد .

الوداع ايها الأخ الحبيب فاذهب الآن فانني أرى الدمع يجول في عينيك .

وعند ذلك تعانق الاخوان وتمتم الكونت بكلمات غير مفهومة وانصرف وهو يشبه السكارى لفرط اضطرابه حتى إذا خرج من المنزل وقف يتنفس براحة فانه لم يثق بذهنه من اقوال اخيه غير أنه بات مدير ثروته العظيمة دون منازع ولا رقيب .

ثم سار الى منزله وقد برحت جورجيت وأحقاد الغرام ولم يفكر إلا بأمر واحد وهو ان هذه الثروة قد تصبح له ، فاشتد رجاؤه وعظمت مطامعه وشعر ان هذه المدينة التي يقيم فيها ضيقة به وانه لا يسع مطامعه وأمانيه غير باريس العظمى هناك حيث يمتزج بأهل البلاط ويجول جولة في السياسة وينال من النفوذ والسلطان ما لم ينل بعضه الى الآن في الاحلام ويصبح من أهل السؤدد والبطش .

وقد شعر في تلك الساعة انه زاد طوله ذراعاً على الأقل بعد قصره وانه بات جميلاً بعد قبحه وقوياً بعد ضعفه فاتقدت عيناه كعيني النمر وقدرأى الفريسة ومشى وهو يعتقد انه بات من أعاظم الرجال .

فلما وصل الى المنزل كان اول من قابله برجريت وقد رأى على وجهه علائم البشر والارتياح فقال له : أرى ان مولاي قد سر من هذه الزيارة .

— كل السرور يا برجريت حتى اني احسب نفسي أسعد إنسان .

— كيف ذلك ، ألعلك اعترفت بغرامك لأخيك فتنازل لك عن التي تحبها .

فقطب الكونت حاجبيه وقال : كلا بل اخبرني بعزمه على الزواج بها بعد شهرين .

— إذن من أين اتى هذا السرور ؟

فقص عليه الكونت عند ذلك جميع ما اتفق له مع أخيه .

فلما أتم حديثه قال له برجريت : الحق يا مولاي ان أخاك من أطهر الناس قلباً ، فسيغدق عليك بإحسانه من قبيل التعويض عن مزاحمته أياك بغرامك ، وأما البقية ..

— كيف ذلك ، ألم يدع ثروته بين يدي ؟

— هو ذاك ولكن لا تستطيع التصرف بها إلا إذا قدر له أن لا يعود من هذه الرحلة .

— لقد أصبت ، ولكنه قال ان مشروع المارشال محفوف بالأخطار ولا يبعد أن يقتل فيه كما يتوقع ، وكفى هذا المشروع خطراً ان المارشال مونمورانسي يعد متمرداً على الملك ولا عبرة بأقواله انه لا يهاجم جنود الملك وانه غير حاقد إلا على الكردينال فان الكردينال ريشيليه وزير الملك الأكبر فاذا انتصر كان الغنم

له ولأخي وأما اذا انخذل وهو المرجح فلا يكون حظه وحظ أخي غير الموت إعداماً وعندي انه لا بد له من الانخذال .

– وانا اعتقد اعتقادك من حيث انخذال المارشال ولكن أخاك قد ينجو فلا يقتل ولا يؤسر .

فأطرق الكونت مفكراً وقال : اني اعطي ..

وتوقف عن إتمام جملته كأنه لا يجسر على إظهار ما خطر له ولكن برجريت أدرك قصده فقال له بصوت منخفض :

– انك تعطي مبلغاً عظيماً لمن يضمن لك عدم رجوع المركيز

قال : هو ذاك يا برجريت ، فإني لا أكون مسؤولاً عن قتله بهذه الطريقة فأتمتع بماله وأتزوج جورجيت .

– ورينالد ؟

فأجابه بلهجة احتقار : انه غلام صغير لا يؤثر عليّ في شيء .

– لقد أصبت ، ومهما يكن من تأثيره فإنه لا يكون قبل عشرة أعوام أي بعد بلوغه سن الرشد وفي هذه المدة تبلغ من الثروة ما تريد .

ولنعد الآن يا مولاي الى الحديث الأصيل ، فأي مبلغ تنفقه في سبيل الوصول الى هذه الغاية ؟

فأطرق الكونت بعينيه استحياء وخوفاً من الجريمة وقال : لا أعلم .

فابتسم برجريت وقال : لقد فتحنا باب الموضوع يا سيدي فلندخل منه دون تردد . قل يا مولاي كم تحب أن تنفق ؟

فرفع الكونت رأسه وقال : اني أدفع عشرين بل ثلاثين

ألف فرنك .

– أحق ما تقول يا سيدي .

– أقسم بشرفي .

– أتعطي الف وخمسمائة دينار لأول من يحمل اليك نبأ قتل أخيك ؟

– دون شك .

– إذن سأحمل اليك هذا النبأ واذكرك بوعدك .

– كيف ذلك .

– ذلك اني متوعك المزاج محتاج الى تبديل الهواء وقد وصف لي الطبيب الانتقال الى جهات تولوز حيث يحشد المارشال مونمورانسي قواته فأحضر جميع المعارك التي ستنشب هناك .

– أعزمت على مفارقتي ؟

– اذا أذنت لي ، وفي سبيل مصلحتك .

– إني أأذن لك فمتى تسافر ؟

– اليوم ، إذ لا فائدة من التأخير .

*

مضى على ذلك شهران دون أن يحدث شيء من التغيير في حياة الذين ذكرناهم من أشخاص هذه الرواية .

وقد تفقد الكونت دي مورلاي في خلالها جميع أملاك أخيه وعرف مقادير الدخل بالتدقيق وبات واثقاً انه اذا مات أخوه لا يجد بين المزارعين من يعترضه في سلطته .

وكان يزور دي لوموبون فلم يرى مرة واحدة بنته جورجيت فانها كانت سجنت نفسها في غرفتها فلم تبرحها ساعة بعد سفر هنري إلا للحديقة فتقيم فيها ساعات طويلة وهي مفكرة تتنهد وتبكي بعض الاحيان .

وقد خشي عليها أبوها شر الوحدة وسألها مراراً عن سبب عزلتها فلم تكن تجيبه جواباً صريحاً .

ولم يكن يخفي اضطرابه عن الكونت دي مورلاي فكان يقول له الكونت ان ذلك عرض يزول فان جميع الفتيات عند بلوغهن سن الزواج يصبن بهذه الأعراض وقد أبت الزواج بي ولكني غير قانط من رضاها .

وكان الكونت عارفاً بسبب انقباض جورجيت ولكنه لم يذكر لها ولأبيها كلمة عما يعرفه من حبها لاخيه حذراً من ان يتهماه بمزاحمته .

وكان يرجو ان تنسيها الايام أخاه ولكنها كانت تزيدها حنيناً اليه وشغفاً به .

وكذلك الكونت فانه كان يحب جورجيت حباً مبرحاً وقد رأى ان طريق الوصول الى قلبها صعبة ولكنه كان واثقاً من الوصول .

ففي ٢٢ مارس من ذلك العام أي عام ١٦١٨ كان الكونت دي مورولاي جالساً في غرفته يفتكر بخادمه بل مستشاره برجريت فانه سافر الى حيث كان أخوه المركيز « لتبديل الهواء» ولم يعد

فبينما هو يفكر في أسباب هذا التأخير سمع وقع حوافر جواد في ردهة القصر فأطل من النافذة المشرفة عليها فرأى جواداً يلهث من التعب وقد أخذ خادم بلجامه وذهب به الى الاصطبل .

ثم رأى باب غرفته قد فتح ودخل منه خادمه برجريت والعرق يسيل من وجهه فقال :

– أنت مدين لي يا مولاي بثلاثين الف فرنك .

فتراجع الكونت مذعراً إذ رأى برجريت ولم يكد يعرفه لهزاله فقال : ماذا تعني بما تقول ؟

فأجابه بصوت منخفض: أعني ان أخاك المركيز دي كولدراي قد مات .

فاصفر وجه الكونت وحاول أن يقف على تفاصيل موته من برجريت غير ان برجريت كان قد أجهده المسير وهد التعب قواه إذ خشي أن يسبقه أحد الى إخبار الكونت بموت أخيه فلم يقف لحظة في الطريق ، ولم يكد يخبره بهذا النبأ حتى سقط مغمياً عليه لفرط ما لقيه من الجهد .

فجعل الكونت يغسل وجهه بالماء البارد ويجري له كل ما يعلمه من الوسائل دون أن يتمكن من إيقاظه حتى اضطر الى مناداة خدمه ونقله الى غرفته واستدعى الطبيب فلم يعلم كيف مات أخوه .

ولما طال إغماء برجريت ثم صحا من إغمائه ونام على أثره نوم

تحذير فلم يجد الكونت بدأ من الانتظار الى أن يصحو .

غير انه بينما كان جالساً في غرفته دخل اليه كريمال خادم أخيه وهو حزين النفس مضطرب الاعضاء فقال :

يعز عليّ يا سيدي أن اخبرك بموت أخيك المركيز ومولاي الحبيب ، فقد مات منذ خمسة أيام في ساحة القتال .

فتكلف الكونت الدهشة الشديدة وقال : رباه ، أيمكن ذلك ان يكون !

ـ هذه هي الحقيقة المؤلمة يا سيدي ، وقد مررت بقصر كولدراي فأنذرت رينالد بهذا الخبر المفجع ، فإنه وريث أبيه ، ولولا ذلك لوصلت اليك منذ خمس ساعات .

فعلم الكونت ان السبب في إسراع برجريت حذره من أن يسبقه كريمال الى هذا النبأ فيخسر الثلاثين الف فرنك .

ثم توجه الى خادم أخيه فقال له : كيف مات أخي في القتال؟

ـ انه مات خلال القتال ولكن الرصاصة التي قتلته لم تكن من رصاص الأعداء .

ـ ماذا تقول يا كريمال .

ـ الحقيقة يا مولاي لقد حملت سيدي حين سقوطه ورأيت الرصاصة التي أصابته وقعت في ظهره والأعداء كانوا من الأمام.

ـ إذن لقد قتله عدو ، أتعلم ان لأخي أعداء ؟

ـ لا أعرف له عدواً ، فقد كان مثال المروءة والكرم .

فظهرت علائم الاضطراب على الكونت وقال له : دعني الآن وحدي فان الحزن يكاد يضل صوابي ومتى سكن اضطرابي

دعوتك فسألتك عن هذه النكبة وأخبرتني عنها بالتفصيل .

ثم جلس على كرسي وغطى وجهه بيديه فخرج كريمال ببطء وهو ينظر نظرات غريبة الى الكونت .

وبعد انصرافه أخذ الكونت يسير في غرفته دون ان يذرف دمعة على أخيه ويقول :

إذن لقد وفى برجريت بما قال فإنه لم يسافر إلا لهذا الغرض

وبعد ان أقام مدة مفكراً خرج من منزله وذهب تواً الى منزل دي لوبومون .

وكانت جورجيت مقيمة مع أبيها حين أخبرهما الخادم بزيارة الكونت دي مورلاي فكانت ترجو ان تعلم منه أنباء جديدة عن أخيه .

فدخل الكونت وقد تكلف هيئة حزن شديد فقال : واأسفاه يا سيدي ، إني نذير شر فإن أخي المنكود ..

فلم تدعه جورجيت يتم جملته فإنها وقفت وقالت بصوت يقطع القلوب من الاشفاق .. أمات هنري ؟

ثم سقطت مغمياً عليها عند قدمي الكونت .

(انتهى التمهيد)

الفصل الاول

عداء عائلي

لوش مدينة صغيرة من مدن فرنسا تابعة لولاية لارين المعروفة ، اشتهرت بغابة رائعة كانت بالقرب منها واكتنفتها الوديان البديعة من اكثر جهاتها وأنشدت فيها الطبيعة أرق الحانها وأشجانها ، فكانت في ذلك العهد آية في الجمال يتوافد اليها السياح كما يتوافدون الى اجمل البقاع .

تبدأ حوادث هذه الرواية في سنة ١٦١٨ في عهد جلال ريشيليه العظيم ، ذلك السياسي الكبير الذي أباد سلطة الاشراف وبلغ منهم ما بلغه روبسبير من بعده وأسس مملكة مولاه لويس الثالث عشر على أمتن الدعائم .

وقد بادت دولة النبلاء وغلبوا على أمرهم وخضعوا كل الخضوع لهذا الرجل الذي كان ينظر الى سقوطهم نظرة المنتصر بعد الحروب الكثيرة حين كان يشبههم بتلك القلاع الحصينة التي تداعت جدرانها بعد الحصار الطويل وباتت تنذر بالسقوط .

ولم تكن مدينة لوش في ذلك العهد تلك المدينة الصغيرة

الجميلة التي تشبه القرى ، بل كانت قد استحالت وتغير شكلها فبنيت فيها القصور وأنشئت فيها القلاع والسجون وناطحت أبراجها السماء فكانت الحكومة تجعلها خير ملجأ من غارات الانكليز وغيرهم من الدول .

وكان على بعد نصف مرحلة منها قصر جميل الرواء شاهق الجدران تحته السهول الخصبة تفصله عن المدينة ، وعلى يمينه تلك الغابة الكثيفة تشبه أشجارها الباسقة صواري السفن في الموانيء وعلى يساره وادٍ عميق فرش ببسط الخضرة .

وأمام جميع هذه المناظر الجميلة كروم العنب تمتد الى آخر ما تبلغ اليه العيون .

وكان الناظر الى هذا القصر من بعيد يعلم انه من تلك القصور التاريخية ولكنه حين يدنو منه يجد ان العهد قد تقادم به وان جدرانه تكاد تسقط وان نوافذه وأبوابه قديمة ظهرت فيها علائم الاصلاح الجديد .

وعلى الجملة فقد كان يدل ان عمره يبلغ على الأقل مائة وعشرين عاماً .

ففي العاشر من سبتمبر سنة ١٦١٨ ، وهو اليوم الذي نبدأ به قص حوادث هذه الرواية ، كان رجل في الخامسة والعشرين من عمره يسير في الساعة الثانية بعد الظهر من هذا القصر الى مدينة لوش .

وكان أسود الشعر طويل القامة قوي البنية وهو ممتط

جواداً اسود ووراءه خادم يسير خلفه راكباً وليس له من السلاح الظاهر غير خنجر .

ولكن السيد والخادم كان يحمل كل منهما غدارتين في كيس من الجلد علق في سرج الجواد .

وكان يسير في جانب الشاب شيخ في الخامسة والستين من العمر وهو ينظر من حين الى حين نظرات الرضى الى الفارس الفتى وفرسه .

فبعد ان سار الفتى بضع خطوات أوقف جواده ونظر الى الافق نظرة الوداع ، ثم مد يده الى ذلك الشيخ وقال له بصوت بدت فيه علائم الاضطراب :

ـ استودعك الله يا كريمال .

فركع الشيخ بالرغم عما بذله الفتى من الجهد لمنعه عن الركوع وقبل يد الفتى باحترام وقال له بصوت يتهدج كمن يجهش بالبكاء: استودعك الله يا سيدي المركيز :

ثم وقف فابتسم وقال : بل الى اللقاء ، وأرجو أن يكون قريباً .

فودعه الفتى مصافحاً إياه وسار حتى بلغ الى المدينة ، فالتفت الى القصر مودعاً قبل أن يدخل في الشوارع ، فرأى ذلك الشيخ لا يزال واقفاً حيث تركه والدموع تهطل من عينيه ، فتنهد وقال : مسكين أنت يا كريمال فانك تحنو علي حنو الآباء .

ثم اجتاز شوارع المدينة وخرج منها فسار في طريق امبواز

وبعد خمس ساعات وصل الى فندقها المشهور باسم الاسد الذهبي .

وقد دهش حين دخل الى ردهة الفندق ولم يجد احداً قد جاء لاستقباله فقطب حاجبيه ونادى الخدم فلم يجبه أحد .

فكرر النداء وقد ظهرت عليه علائم الغضب فجاءته بعد هنيهة امرأة تبلغ الاربعين من العمر وقد احمرت عيناها من البكاء فقالت :

ـ أسأل مولاي المعذرة ، فان زوجي ومن في الفندق من الخدم يهاجمون رجلاً استولى على غرفتك بالعنف وابى ان يخرج منها .

فترجل الفتى عن جواده وهو يقول : سوف أرى كيف يجسر هذا الرجل على اغتصاب غرفتي .

وقد القى عنان جواده الى خادمه ودخل الى الفندق تتقدمه المرأة فمر بالمطبخ فلقي فيه خادمتين تبكيان فلم يعلم المركيز شيئاً من أسباب هذا البكاء وقال : ماذا حدث ، وما يدعوكن الى البكاء ؟

فأجابته امرأة صاحب الفندق قائلة : حدث يا سيدي المركيز انه جاءنا منذ شهر رجل لا نعرفه وأقام في الغرفة التي تقيم فيها واستعصم بها ، فلا نجد سبيلاً الى إخراجه .

ـ أهو من عامة الناس ؟

ـ كلا ، فان هيئته ولباسه يدلان على انه من الاسياد .

ـ ماذا يدعى ؟ ـ لا أعرف اسمه .

ـ أهو غني ؟

- لا أعلم يا سيدي، فاننا لم نعرف بعد لون نقوده وليس لديه غير جواد .
- وهذا الجواد ؟
- يظهر انه جواد كريم ، وسيراه سيدي اذا شاء .
- وكيف يعيش هذا الرجل عندكم ؟
- أفخر عيش ، ولكنه لا يرضيه طعام ولا يعجبه خمر ، فهو يطلب أفخر الخمور ، وكنا نحسب انه يفعل ذلك في البدء بأمر الطبيب .
- ما شأن الطبيب بأمره ، ألعله مريض ؟
- نعم ، ولكنه يأكل أكل اثنين ويشرب شراب أربعة .
- ما هي علته إذن ؟ — انه قدم الينا جريحاً .
- أين ؟ — في كتفه الايسر .
- أأصيب بضربة حسام ؟
- كلا ، برصاصة غدّارة .
- ولكنك تقولين انه مقيم عندكم منذ شهر ، فكيف لم تعرفون اسمه، ومن كان يزوره ؟
- لم يزره أحد .
- كيف يكون ذلك ، أليس له قريب أو صديق ؟
- يظهر انه وحيد في هذا الوجود .
- إذن هو يقيم وحده في هذه الغرفة منذ شهر ؟
- نعم يا مولاي . — الا يخرج من غرفته ؟

- كلا . — إذن ماذا يصنع ؟
- يأكل ويشرب وينام .
- ألم يشفَ جرحه بعد ؟ — أظنه اندمل اليوم .
- أهو قال لك هذا القول ؟
- كلا يا سيدي ، ولكني بعد ان جاء رسولك أمس يأمرنا باعداد غرفتك سألت الطبيب عنه فقال لي انه شفي وبات يستطيع الانصراف ، وعند ذلك صعد اليه زوجي وأخبره ان المركيز دي كولدراي سيحضر الى الفندق وانه حين يحضر لا يقيم إلا في هذه الغرفة .

فقال له الجريح : أي مركيز تعني ، أهو صديق المارشال مونمورانسي ؟ قال بل ولده .

فتردد الجريح هنيهة ثم قال : يعز عليّ ان أحرم هذا المركيز من غرفته ولكني مقيم فيها منذ ثلاثة أسابيع وسأبقى فيها بحق وضع اليد .

فاستاء زوجي وابتدرته الحيرة وطالب هذا الرجل بنفقات إقامته في الفندق .

فضحك الرجل ضحك الساخر، ولما علا صياح زوجي وكثر توعده حمله بين يديه وألقاه خارج الباب .

وعند ذلك عقدنا مجلساً واتفقنا على ان نحاربه بالجوع ، فلم نحضر له في هذا الصباح شيئاً من الطعام وكذلك الظهر ، وسنحرمه من الأكل في المساء الى ان ينتهي أمره بالخضوع .

- كيف ذلك ، الم يأكل هذا المنكود منذ الصباح ؟

ـ كلا ، ولو جاءنا رسولك يا سيدي قبل أمس لاستطعنا اخراج الرجل باللطف والملاينة ولكنه جاء بالأمس فلم نجد بداً من هذا العنف .

وقد صعد زوجي منذ هنيهة الى هذا الرجل يتبعه الخدم وهم مسلحون بسكاكين المطبخ والعصي والمكانس .

فأصغى المركيز وقال : ولكني لا اسمع صوتاً يدل على الهجوم .

ذلك ان زوجي عاقل مجرب وربما اراد مخابرته بشأن الاتفاق السلمي قبل الهجوم .

ولكنها لم تكد تتم جملتها حتى سمعت وقع اقدام مسرعة على السلم وصوت سقوط فبسطت يديها الى السماء وقالت : لقد بدأ القتال .

فأسرع المركيز الى جهة السلم فرأى خادمين يهربان منذعرين ورأى صاحب الفندق ملتصقاً بالجدار وقد سقطت السكين من يده .

ثم رأى ذلك الجريح واقفاً في أسفل السلم فقال له : ألعلك يا سيدي المركيز المنتظر ؟

قال : هو بعينه .

فأجابه بأدب ولطف : إذن تفضل بالصعود الى غرفتك يا سيدي المركيز .

فدهش المركيز لما سمعه وهو يتوقع ان يسمع الانذار والوعيد

ويتأهب لمقاتلة هذا الرجل المستبد في غرفته فرآه قد خرج من الغرفة ليفسح له المجال بالدخول اليها .

فنظر المركيز اليه نظرة سريعة فرأى رجلاً لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر وهو قوي العضل متين الاعضاء تدل نبرات صوته ورقة حديثه انه من الأشراف فلم يتردد في قبول الدعوة وخطر له في الحال ان هذا الرجل لا مال له وانه لم يذق الطعام منذ الصباح ، فالتفت الى صاحب الفندق وقال له : إذهب في الحال وأعد لي الطعام .

فقال له صاحب الفندق : ولكن الى اين أحضر طعام سيدي ؟

قال : الى هذه الغرفة .

ـ وهذا الرجل ؟

ـ انه رضي ان اكون في ضيافته كما ترى ، فآتنا بأفخر ما لديك من الطعام والشراب .

فانحنى صاحب الفندق وذهب مسرعاً .

أما المركيز فانه دخل الى الغرفة وحيى الرجل بملء الأدب والاحترام . ثم قال له :

ـ اسأل سيدي المعذرة لطلبي إحضار طعامي الى غرفته واسأله قبول دعوتي بمشاركتي فيه .

فقال له الرجل وقد ابتسم ابتسامة حزن : متى وصلت الى الفندق يا سيدي المركيز ؟

ـ منذ ربع ساعة .

ـ القيت امرأة صاحب الفندق ؟

ـ نعم ، وقد وجدتها مضطربة تبكي .

ـ لقد علمت الآن ، فانها اخبرتك بكل الامر .

ـ بماذا ؟

ـ لا تحاول الانكار يا سيدي فانهم اخبروك اني من غير مال وتعهدت بسداد نفقاتي . وقالوا لك اني لم آكل منـــذ الصباح فدعوتني الى الطعام ، وقد فعلت كل ذلك دون ان تعرفني ودون ان تعلم اذا كنت أهلاً لهذا الجميل .

ـ اشكرك يا سيدي للطفك وأما اسمك فاني ارجو ان اعلمه منك فان اهل الفندق لم يعرفوه .

ـ لا عجب في ذلك فاني انا ايضاً لا اعرف اسمي .

فذهل المركيز وقال : ولكن لا بـــد ان يكون لك اسم تعرف به .

ـ انهم يدعونني ريكمبرج ، وإنك لتعجب دون شك فليس ذلك باسم بل هو لقب .

ـ الحق اني لا استطيع كتمان انذهالي .

ـ ولكن هذا كل الذي اعلمه من اسمي .

ـ اذن ادعوك به ، فهل تريد يا موسيو ريكمبرج أن تتعشى معي ؟

ـ نعم ، وثق اني لا اقبل هذه الدعوة من رجل لا أعرفه على ما انا فيه من الجوع .

ـ اتعرفني ؟

ـ كلا ، ولكني عرفت اباك وحاربت وإياه جنباً الى جنب اكثر من عشر مرات ، فهو من احذق رجال السيف واشرف اهل النبل .

ـ يسرني جداً ان اسمع مديح ابي من رجل لا أشك بصدقه .

ـ اتحسب يا سيدي اني اتملقك مقابل هذا العشاء ؟

ـ معاذ الله ان اتهمك بتهمة التمليق فان عينيك تدلان عليك وما زلت قد عرفتني بنفسك فاسمح لي ان اعرفك بنفسي ، فإني ادعى المركيز رينالد دي كولدراي لي من العمر اربعة وعشرون عاماً وانا يتيم الاب والام لا أعلم ما اصنع بوقتي وبنفسي .

ـ ان من كان له ثروتك واسمك يا سيدي المركيز لا يتسع له وقت ولا يروعه ملل .

ـ لقد اصبت بنصف قولك ، فان اسمي لي لا يستطيع احد ان ينازعني عليه ، وأما الثروة ..

ولم يتم رينالد جملته بل اطرق برأسه كئيباً .

وعند ذلك اقبل صاحب الفندق يتبعه خادم وخادمة فوضعوا ما احضروه من الطعام على المائدة .

وجلس الاثنان حولها فبدأ ريكمبرج يأكل وهو يكاد يموت جوعاً وعادا الى الحديث فقال المركيز :

ارجو ان لا تحقد على صاحب هذا الفندق فإنه ليس من اهل الشر بالرغم عما رأيته من وعيده وحدته فاني انا المسبب لكل ما حدث وذلك لان هذه الغرفة التي تسكنها هي الغرفة التي أقيم فيها كل ما اتيت الى امبواز .

- وهي لك يا سيدي المركيز منذ هـذه الساعة .

- لقد اخطأت يا مسيو ريكمبرج ، فلا انازعك هذه الغرفة وانت جريح .

- اذا كان ذلك فاطمئن يا سيدي فان الجرح قد اندمل منذ خمسة ايام .

- ولكنك لا تزال ملازماً الغرفة .

- ذلك لا بد منه ، فاني مضطر الى السفر ماشياً على قدمي فيجب لذلك ان اشفى تمام الشفاء .

كيف تسافر ماشياً وقد قيل لي ان لديك جواداً كريماً في الاسطبل ؟

- وهو خير جواد يا سيدي المركيز أن ثمنه اكثر من مائتي دينار ولكني مدين للطبيب الذي عالجني وانا في هذا الفندق منذ شهر ، فلا بد لي من إبقاء جوادي رهناً لدى صاحب الفندق الى ان ادفع النفقات .

- يسرني اني أتيت قبل فوات الأوان فلا أدعك تتخلى عن جوادك .

- لا تتسرع يا سيدي ، فاني ما قبلت منك بعد غير هذا العشاء .

- لندع الآن البحث في هذا الشأن فنعود اليه ولنبحث في غيره ، فقد قيل لي انك أتيت منذ شهر الى هذا الفندق وأنك مصاب برصاصة في كتفك .

- لقد صدق القائلون .

- كيف أصبت بهذا الجرح فليس هذا الزمن زمن حرب ، فهل جرحت بمبارزة ام بمحادثة غرام ؟

- كلا يا سيدي ، فكيف اكون من اهل الغرام وليس لي اسم ولا لقب .

- ولكن من كان له جمالك وأدبك لا يعدم حسناء تصبو اليه

فضحك ريكمبرج وقال : لست من أهل الزهد ولكني لم أجد متسعاً من الوقت للانصراف الى الغرام .

- إذن انت لم تجرح في مبارزة .

- كلا ، بل بمعركة غريبة الشأن إذ لم اعرف فيها اسم الذي اقاتله واسم الذي ادافع عنه .

- كيف يمكن ذلك ان يكون ؟ — ولكنه كان .

- أتستطيع ان تروي لي هذا الحادث الغريب ؟

- حباً وكرامة .

ثم قسم فطيرة فازدرد نصفها وقال :

انك تعرف دون شك هذه الغابة الكثيفة الممتدة إلى ابواب مدينة امبواز فقد مررت بها حين قدومك .

وقد اتفق لي اني كنت قادماً من تورس الى امبواز فاشتد الحر عند وصولي الى الغابة واردت ان استريح فيهـا فربطت جوادي واضطجعت فوق العشب .

وبعد هنيهة غفوت ، فان المتعب ينام في كل مكان ولا سيما

من كان حليف أسفار مثلي ، فاني حاربت خمسة عشر عاماً في ايطاليا وفرنسا ، وطالما توسدت في خلالها الأرض والتحفت السماء .

وفيما انا نائم صحوت وقد سمعت صوت حركة عنيفة في الغصون .

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ففتحت عيني ونظرت الى مصدر الصوت فرأيت خمسة رجال كأنهم يتأهبون لكمين .

فراقبتهم فرأيت زعيمهم وهو في الخامسة والخمسين من العمر قصير القامة أشيب الرأس صغير العينين .

وقد رأيته ينظر من خلال الاشجار نظرة الفاحص ويقول لرجاله : « اطلقوا رصاصكم عليه مرة واحدة حين يبدو لكم »

وفي الوقت نفسه سمعت وقع حوافر جواد على الطريق .

فنهضت وذهبت الى جوادي فأخذت من السرج غدارتين بينما كان اولئك اللصوص ينظرون الى جهة الطريق .

وكنت على قيد عشر خطوات منهم فسمعت زعيمهم يقول لهم : هذا هو .. تأهبوا .

فالتفت لأرى هذا الرجل الذي يتأهبون لقتله فرأيت رجلاً كهلاً يبلغ عمره عمر زعيم اولئك اللصوص ولكنه طويل القامة تبدو عليه علائم النبل .

وكان يسير الهوينا بجواده وهو مطمئن آمن غير متوقع مفاجأة في هذه الغابة ، فاشفقت عليه ان يذهب ضحية هذه

المكيدة الشنعاء وعولت على مساعدته وانقاذه من هؤلاء المعتدين .

فنظرت نظرة سريعة الى ما حوالي كي اختار موقفي وقد دفعت بعاطفة غريبة الى نجدة هذا الكهل ، فاني قد تعودت نصرة الضعيف والتشيع على القوي ، ولكن لم اجد مثل اندفاعي في نصرة هذا الرجل .

وكان الرجل يتقدم من الكامنين فلم يكن الوقت متسعاً للتفكير وهو سائر مطمئناً الى الموت ، حتى إذا مرّ بهم اسرع زعيمهم الى جواده وقبض على لجامه فهزه هزاً عنيفاً حتى اضطره الى اثناء ساقيه وصاح برفاقه الاربعة قائلاً : اطلقوا النار .

ولكنهم قبل ان يتمكنوا من الانقضاض على فريستهم قتلت منهم اثنين بغدارتي وهجمت بحسامي على الاثنين الآخرين ورئيسهم وقد هلعت قلوبهم لهذه المباغتة التي لم يكونوا يتوقعونها

وكان تردد اللصين وبغتتهما قد فسح المجال للفارس فأخذ غدارته ووقف موقف الدفاع .

ولم يذهلني غير امر واحد وهو ان هذا الرجل عرف زعيم العصابة الذي كان قابضاً على عنان جواده فاصفر وجهه ولكنه لم يبذل أي جهد للتخلص منه .

أما الزعيم فقد صاح بالرجلين قائلاً : أطلقا النار .

فانقض اللصان على الفارس واطلقا من غدارتيهما اربع طلقات ولكن الخوف كان يهز يديهما فما أصاباه .

وقد رعبا رعباً عظيماً لفشلهما ، فانهما كانا يعتقدان انهما

يهاجمان مع رفقائهما رجلاً فرداً فاذا بالهجوم قد انقلب عليهما .

ثم رأيا ان غدارتيهما قد خلتا من الرصاص فأركنا الى الفرار غير مصغيين الى نداء الزعيم .

فلما رأيت انهما هربا هجمت على الزعيم ولم يكن باقياً سواه ، فأفلت عنان جواد خصمه وجرّد حسامه كي يدافع عن نفسه .

وكانت الحدة قد بلغت مني اقصى مبالغها لفرط اشمئزازي من هذا الزعيم السافل فلم اصغ الى توسل الفارس ، فلم تكن هنيهة حتى جردته من سلاحه والقيته على الارض وركعت فوق صدره .

وعند ذلك ترجل هذا الفارس الذي انقذته من موت كان محتماً وأسرع الى التداخل بيننا فأبعدني عن الزعيم وقال له : انهض وعد نفسك سعيداً لأني اقسمت من قبل ان لا اريق دمك

أما الزعيم فلم يتأثر لمروءة الفارس بل ان الغضب تمثل ناراً بين عينيه ، وقد دهشت لهذه المروءة فلم انتبه لغدارتين كانتا باديتين من حزام الزعيم وكذلك الفارس ، فقد حسبنا ان هذا الرجل ينصرف شاكراً لعفونا عنه بعد المقدرة .

غير اننا اخطأنا الفراسة فان هذا الزعيم حين رآني اغمدت حسامي هاجت براكين حقده فأطلق النار عليّ وعلى الفارس .

اما الفارس فقد وقعت الرصاصة في قبعته فلم تصبه بأذى ، وأما انا فقد اصابت كتفي .

فجردت حسامي عند ذلك وأغمدته في صدره فاخترقه من جنب الى جنب .

فصاح بي الفارس قائلاً : ماذا فعلت ؟

قلت اني لم أقسم على قتله كما اقسمت .

فانحنى الفارس على الزعيم يحاول نجدته ولكن عبثاً فان الدم كان يتدفق من فمه وأنفه وقد فات الاوان .

فقلت له هلم بنا يا سيدي نواصل السير ولندع هذا الغادر في مكانه فانه جدير ان يكون طعاماً للوحوش .

فالتفت الفارس اليّ ورأى كتفي مخضباً بالدماء فدهش وقال: أأنت جريح ؟

قلت نعم ، فقد اصبت بكتفي ولذلك أردت الاسراع بالرحيل .

قال : إذن إركب جوادي فاننا على مسافة قريبة من المدينة، وسأصحبك ماشياً الى ان تصل إلى منزلك .

قلت : اني لست من مدينة امبواز وجوادي مربوط في الغابة فأرجوك ان تأتيني به فان هذا الجرح يؤلمني .

فأسرع الى إحضار جوادي وبل منديله بمياه ساقية فغسل به جرحي وواصلنا المسير .

وقد أخبرته في الطريق كيف قادتني الصدفة إلى إنقاذه من الموت فشكرني شكراً عظيماً وقال لي : يسوءني اني لا أستطيع البقاء معك الى ان يندمل جرحك فاني مضطر الى

الاسراع الى ابنة اختي فانهم يريدون تزويجها بالرغم عنها وهي تستنجد بي فاذا تأخرت فات الاوان ومع ذلك فاني اصحبك الى الفندق الذي تختاره .

وقد علمت منه انه يدعى الكونت دي لورجيري ودلني على منزله في باريس وسألني أن لا أنقطع عن مراسلته باخباري

وبعد ساعة غادرني الكونت من هذا الفندق وسافر الى باريس دون ان يذكر لي اسم هذا العدو اللدودالذي أنقذته منه .

فقال المركيز رينالد عند ذلك الى ريكمبرج : تقول يا سيدي ان هذه الحادثة قد حصلت منذ شهر ؟

ـ هو ذاك .

ـ أرجو أن تتذكر جيداً ، ألم يكن في ١٥ سبتمبر .

ـ بالتدقيق .

ـ لقد علمت كل شيء . ـ ماذا علمت ؟

ـ ان هذه الحادثة هائلة .

الفصل الثاني

الاباحة

فتاق ريكمبرج الى معرفتها وقال له ، ولكنك ستقصها عليّ دون شك .

قال كلا : فان هذا السر يتعلق بامرأة تعد من الشهيدات .

وما زال الكونت لورجيري كتم عنك هذا السر مع أنك أنقذته من الموت ، وهو يعلمه قبلي ، فلا بد لي أنا ايضاً من كتمانه عنك .

ـ ولكن كيف اتصل بك هذا السر ؟

ـ أخبرني به كريمال وهو أقدم خدم أبي وله معرفة تامة بجميع حوادث العائلات .

ـ إذن لم يبق سبيل إلى الالحاح .

ـ ولكن كل ما أستطيع قوله لك هو ان هذا الرجل الذي قتلته كان يصح أن يطلق عليه لقب جلاّد ، ولا شك ان الله قد أراد له هذا العقاب عن أثمه الفظيع الذي يواصل ارتكابه منذ خمسة وثلاثين عاماً .

فجرع ريكمبرج جرعة كبيرة من الخمر وقال : لقد نفست

كربي ، فاني كدت أندم على قتلي هذا الرجل على اعتقادي انه من الأسافل ، لأن من يقتـل الاشراف بكمين لا يكون من الاشراف .

والآن استسمحك يا سيدي المركيز وأسألك عن أمر أهاج بي عاطفة الفضول .

ـ قل يا سيدي ما تشاء .

ـ لقد قلت لك في بدء الحديث انك غني وشريف فأجبتني ان اسمك لا يستطيع أحد نزعه منك وأما ثروتك ..

وهنا توقفت وأطرقت مفكراً دون أن تتم الحديث وقـد ظهرت عليك علائم الأسف .

هذا أكيد .

ولماذا يا سيدي ؟ فقـد عرفت أباك وعرفت انه من أكابر الاغنياء وانه كثير الانفاق ، فهل بدد ثروته ؟

ـ كلا ، بل انها كانت على ازدياد في حياته وبعد الموت .

ـ إذن ما هذا الاسف الذي يبدو عليك حين ذكر ثروتك؟

ـ ذلك لأني أخشى أن لا أسترد هذه الثروة التي فقدتها

ـ ماذا تقول يا سيدي المركيز وكيف فقدت هذه الثروة ؟

ـ ان هذه الحكاية مؤلمة أيضاً

ـ ألا تستطيع قصها عليّ ؟

ـ بل أرويها لك فانها خاصة بي دون سواي ، وفوق هذا فاني لم أسعد بلقياك إلا بسبب هذه الثروة .

ـ ان هذه الحكاية مؤلمة ايضاً .

ـ ألا تستطيع قصها عليّ ؟

ـ بل أرويها لك فانها خاصة بي دون سواي ، وفوق هـذا فاني لم أسعد بلقياك إلا بسبب هذه الثروة .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك اني خطوت اليوم الخطوة الاولى في سبيل استردادها وهذه أول محطة وقفت فيها .

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ ـ الى باريس .

ـ للبحث عن ثروة ـ لي ، للبحث عن الثروة .

ـ اني لا أفهم شيئاً مما تقول .

ـ إذن أصغ الي ما زلت تريد معرفة هذه الحادثة .

ثم شرب كأساً من الخمر وبدأ الحديث ، فقال :

انك عرفت أبي ولا بد أن تكون قد عرفت أيضاً انه كان من أشد أنصار النبلاء وأعظم أعوان الامتيازات الملكيـة ، ولذلك لم يطق أن يقف وقفـة المتفرج على إهمال آن دوتريش ونفي أم الملك وسجن أخص أصدقائه والخضوع للكردينـال ريشيليه .

ـ نعم أعرف ذلك ، وقد عرفت ايضاً انه مات قتيلاً في معركة كاستلنوداري .

فأجابه المركيز بصوت تبين فيه التأثر قائلاً : سنبحث عن هذا القتل ولكنه قبل ان يقتل أجاب دعوة مونمورانسي وهو عالم بما يكتنف مشروعه من الاخطار .

وكأنما قلبه كان يحدثه بقرب الأجل فدعا اليه قبل السفر أخاه ادورد .

ـ أكان للمركيز أخ ؟

ـ نعم وهو يدعى الكونت دي مورلاي .

فقطب ريكمبرج حاجبيه وانتبه المركيز لهذا الانكماش فقال له : أرى وكأنك تعرفه معرفة وثيقة

فلم يجبه ريكمبرج ، وعاد المركيز الى الحديث فقال :

كان لي من العمر أربعة عشر عاماً حين سافر أبي الى القتال.

فدعا اليه عمي قبل أن يبرح المدينة ودعا جميع نظار زراعاته فعهد اليه أمامهم ادارة مزارعه وثروته وجعله وصياً عليّ الى ان أبلغ سن الرشد وهو لا يخامر قلبه شيء من الشك بأخيه، فسافر وهو مطمئن عليّ .

وبعد ذلك بشهرين أي في اليوم السابع من سبتمبر سنة ١٦١٨ مات في تلك المعركة التي ذكرتها ، ولكنه لم يمت قتلاً بالسيف بل بالرصاص ولم يصبه الرصاص بصدره بل أصابه بظهره فقتل غيلة وغدراً .

ـ أأنت واثق مما تقول ؟

ـ أين السبيل الى الشك بعد ان حمل كريمال جثته ودفنه وعرف كيف أصيب .

ولكني لا أعلم اذا كانت هذه الرصاصة طائشة عن قصدها أو كانت رصاصة عدو ؛ غير اني سأقف على الحقيقة ومتى عرفتها فالويل لذاك القاتل .

والخلاصة اني أصبحت يتيماً وباتت ثروة أبي بيد عمي فتمكن بها من الظهور .

ـ وهذه الثروة ، ألا تزال بيده ؟ — نعم .

ـ ولكنك لم تعد قاصراً ولايمنعك الشرع عن ادارة ثروتك

ـ هو ذاك ولذلك سألته إرجاع المال .

ـ أرفض ؟ — كل الرفض .

ـ ألم تجد طريقة لاسترجاعها ؟

ـ وجدت الطريقة ولكني ذعرت منها .

ـ كيف ذلك ، ألعلها منافية للشرف ؟

ـ كلا . — ما هي ؟

ـ سأخبرك بها ولكني أحب إخبارك قبل ذلك بما فعله عمي معي ، فانه بدأ بطرد جميع الخدام القدماء وأخذ يستبدلهم تباعاً بالمخلصين له حتى لم يبق بين أولئك الخدم مخلص لي ، وما كنت أجسر على الاحتجاج لحداثة سني الى ان حاول طرد أقدم خدامنا وأصدقهم في خدمتنا وهو كريمال الذي حضر موت أبي ورافقه الى ساحة القتال .

فاعترضت عليه عند ذلك وقلت له ان هذا الخادم الأمين قد ولد في قصرنا وهو لم يبرحه منذ سبعين عاماً إلا لمرافقة أبي في أسفاره وإني لا آذن بطرده ولو أفضى بنا الامر الى الخصام .

وقد رأى عمي شدة اعتراضي فوافق على إبقائه وأخذ هذا الخادم يمرنني على قتال السيف وركوب الجياد .

ولولا أحد الرهبان في دير لوش لخرجت امياً جاهلاً يفضلني أحقر الفلاحين .

وقد جعل يستغل جميع أراضينا ولم يبق لي غير قصر كولدراي وهو أقدم قصورنا ولكن ايراد مزارعه لا يزيد عن سبعة آلاف فرنك في العام ونفقاته تعادل هذا الايراد بحيث لم أكن أستطيع العيش لولا هذا الخادم الامين بل هذا الصديق الوفي كريمال فانه كان يبالغ بالاقتصاد والمهارة في إدارة المزارع وهو الذي أرشدني الى جميع املاكي وعلمت منه حقيقة ايرادها وحقيقة تلك الثروة العظيمة التي اغتصبها هذا العم الغادر .

ولما بلغت العشرين من العمر طالبته بهذه الثروة .

وكان ذلك لأول مرة فأجابني انه غير مدين اليّ بشيء وان المال ماله ، فغضبت وتوعدت ، فنادى خدامه وأنذرني بالطرد

فخرجت قانطاً وذهبت تواً الى تورس فعرضت شكواي على البرلمان .

ولكن شكواي لم تسفر عن فائدة ، فان عمي قد لعب دوراً خطيراً في هذه السنوات السبع ، أي في عهد الوصاية علي وتمتعه بأموالي ، وكان أخص ما عمله دخوله في سلك رجال الكردينال ريشيليه وبات من أخلص عماله .

ومهمته في خدمة الكردينال انه كان ولا يزال جاسوسه في ولاية اللورين ، فهو يراقب الناس فيها ويتجسس أخبارهم من الحاكم الى كل نبيل فيها ويرسل له التقرير تلو التقرير .

وقد اشتهر انتسابه الى الكردينال حتى بات الجميع يخشونه ولذلك لم يحفل رجال البرلمان بشكواي ولكنهم حققوا في الامر تحقيقاً بسيطاً كي ينفوا عن أنفسهم تهمة التشيع وكان عمي قد أعد شهود الزور ، فلبثت هذه القضية ثلاثة أعوام وختمت بالحكم عليّ .

على اني لم أقنط من كل ذلك وعولت على الذهاب الى باريس فأقابل الملك وأعرض عليه شكواي .

وقبل تأهبي للسفر بيومين أي قبل أمس جاءني رجل يدعى برجريت لم اكن أعرفه من قبل ولكن كريمال أخبرني عنه انه شريك عمي بالجريمة .

وقد قال لي برجريت هذا انه آت من تلقاء نفسه دون إذن عمي وان غرضه الوحيد من قدومه اليّ مخابرتي في شأن تذليل المصاعب في هذه الحادثة بيني وبين عمي .

فقلت له : أيوافق مولاك على رد الثروة التي اغتصبها ؟

قال انه لم يقل لي شيئاً من ذلك ولكني وجدت بعد التفكير حلاً أرجو أن يكون موافقاً .

قلت : ما هو ؟

فلم يجبني على سؤالي بل قال : اني أود قبل ذلك أن أقف على رأيك .

قلت : أظهر لي طريقتك وسوف ترى .

قال : انك تعلم ان سيدي الكونت دي مورلاي قد تزوج منذ عشرين عاماً قبل ان يأتي الى مدينة تورس ويستوطنها .

قلت نعم فلقد أخبروني بذلك .

ـ وقد نسي الناس هذا الزواج لأن امرأة عمك قد ماتت بعد ان ولدت له بنتاً تبلغ الآن من العمر تسعة عشر عاماً ، أي انها بلغت الآن سن الزواج .

ـ لقد رأيتها مرتين وهي عوراء عرجاء كما أذكر .

ـ هو ذاك ، ولكن هذه العيوب لا تشينها ، فانها من خير أهل الاقتصاد وتدبير المنزل .

فعلمت ما يريده هذا الرجل ولكني تظاهرت بأني لم أفهم مراده فقلت له : بأية مناسبة تذكر لي هرمين دي مورلاي ؟

ـ أذكرها لأني أرجو أن تعجبك ، فإذا كان ذلك .

ـ أتعجبني أنا ؟

ـ هذا ما أرجوه فانها من خير النساء .

ـ وأنا أرجو لها أن تكون كما وصفت .

ـ وفوق ذلك فانك إذا تزوجت بها زال كل إشكال بينك وبين عمك : إذ تصبح بعد ذلك بمثابة ولده ، وتغدو العائلتان عائلة واحدة :

فقاطعته عند ذلك بعنف وقلت له : كفى ، فان هذا الدواء شر من الداء ، فاني لا ألوم السيدة هرمين لعرجها وعورها بل ألومها لانها ابنة هذا الرجل ، فقل إذن لعمي إني لا أتنازل عن درهم من مالي ولا أرضى بتسوية ولو زوجني حورية من الجنان .

ثم أمرت هذا الرجل بالخروج فخرج وهو يقول : ستكون علي ذلك من النادمين .

فقال له ريكمبرج : لا أنكر ان زواجك بإبنة عمك خير

حل لهذه المشكلة ولكنك جميل في مقتبل العمر فليس من العدل أن تتزوج فتاة مشوهة ومع ذلك فانك لا ترفض هذا الطلب إلا لسبب خطير .

ـ ماذا تعني بما تقول ؟

ـ أعني انك لا بد أن تكون من العشاق .

ـ أقسم لك اني لا أحب أحداً .

ـ أيمكن ذلك أن يكون ؟

ـ نعم فان قلبي خالٍ ، ولكني ما زلت معك الآن في موقف الاعتراف ، فلا أنكر عليك اني استحسنت فتاة رأيتها منذ ثلاثة أشهر ولا يزال رسمها في ذهني .

فابتسم ريكمبرج وقال : لقد كنت واثقاً ، إذن فلنتحدث بهذه الفتاة فان العشاق تلذ لهم أحاديث الغرام .

ـ لقد كان يلذ لي هذا الحديث لو كنت حقيقة من العشاق . ولكني أعيد عليك ما قلته وهو انه لم يبق لي من هذه الفتاة غير التذكار .

ـ كيف كان أمرك معها ؟

ـ ذلك اني منذ ثلاثة أشهر زرت سيدة لم تكن تهتم إلا بالاحسان وجمع الصدقات لمساعدة المعوزين ، فعندما أردت الانصراف من عندها دخلت فتاة لم أرَ أجمل منها فدهشت لحسنها ولم أكن قد رأيتها قبل ذلك العهد ولا كلمتها كلمة ، فعلق رسمها بذهني وباتت ممثلة لي بكل مخيل .

ـ أهي من أسرة نبيلة ؟

ـ لا ريب عندي في ذلك .
ـ ماذا تدعى ـ لا أعلم .
ـ كيف ذلك ، ألا تعرف من هي ؟
ـ لا أعرف منها سوى انها شقراء الشعر زرقاء العينين طويلة الاهداب ممشوقة القد رشيقة الحركات لها أنف أقنى وفم من عقيق كما يصفه الشعراء ، وهي بضة البشرة بدينة الجسم وردية الخدين.
فقاطعه ريكمبرج ضاحكاً وهو يقول : أرأيت كل ذلك منها وأنت لم ترها غير لحظة كما تقول ؟
ـ لا تعجب لذلك فقد كانت ولا تزال ممثلة لي .
ـ ولكنك سألت عنها دون شك ؟
ـ وددت أن أسأل ولكن حال دون ذلك ان صدور الحكم في قضيتي كان قريباً فشغلت بهذه القضية .
ـ ألم تذهب الى تلك السيدة المحسنة بحجة الوداع على رجاء أن ترى تلك الفتاة ؟
ـ لقد خطر لي ذلك ولكني لم أفعل . ـ ولماذا ؟
ـ لأني أردت أن أكون خالي القلب من مشاغل الغرام كي أتمكن من الانصراف الى الاهتمام بالقضية دون سواها .
فقال له ريكمبرج بلهجة المازح : لقد أصبت ، وإني اهنئك بهذه الحكمة .
ـ لا تمزح ، وثق إني لقيت عناء شديداً في سبيل الاقرار على هذا العزم .

ـ وأنا أسألك العفو عن مزاحي فقد ظهر لي جلياً انك مفتون بهذه الفتاة ـ ربما .
فرأى ريكمبرج ان المركيز قد اضطرب ، فاراد تغيير الحديث وقال له :
ـ إذن لقد عزمت على مواصلة السير غداً ؟
ـ نعم . ـ أتسافر وحدك ؟
ـ بل يصحبني بابيلاس .
ـ من هو بابيلاس هذا ؟
ـ هو ابن أحد المزارعين عينه كريمال لخدمتي .
ـ أيعرف فنون القتال ؟
ـ اظن انه يستطيع إصابة المرمى إذا أطلق غدارة .
ـ ولكن ذلك لا يكفي لهذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر .
ـ وأي خطر علي ، فإني أذهب تواً الى الملك وإذا اضطررت قابلت الكردينال ايضاً ، فاني لا أطلب غير العدل .
ـ لقد أصبت ، ولكن من كان له عدو مثل الكونت دي مورلاي وجبت عليه المبالغة بالحذر .
ـ نعم ، انه سيبذل جهده لاحباط سعيي لدى الملك ووزيره الأكبر ولكني لا أستطيع منعه .
ـ دون شك ، ولو كان يقف عند هذا الحد لهان الأمر .
ـ ماذا تظنه يفعل ؟
ـ يعز عليّ أن أقلق أفكارك ولكني تعودت الجلاء ، فهل فطنت لامرين ؟

ـ ما هما ؟

ـ أولها ان عمك مستولٍ الآن على ثروتك وهو لا يردها اليك إلا اذا اكره إكراهاً .

ـ هذا لا ريب فيه .

ـ والثاني انك أبيت الزواج بابنته فذهب من نفسه كل رجاء بالمسالة .

ـ وهذا أكيد ايضاً .

ـ إذن فاعلم يا سيدي المركيز اني أستنتج مما ذكرته لي نتيجة واضحة وهي ان الكونت يستطيع الاحتفاظ بتلك الثروة التي اغتصبها بطريقة تفضل عنده غيرها من الطرق الكثيرة .

ـ ما هي ؟ ـ هي أن يقتلك .

فابتسم المركيز ابتساماً يدل على الشك وقال : أأنت ترى أيضاً ما يراه كريمال ؟

ـ إذا كان هذا رأي كريمال فكيف لم تصحبه في رحلتك بدلاً من بابيلاس ، فانه من العاقلين كما يظهر .

ـ لقد ألح عليّ إلحاحاً عظيماً وقال انه يفيدني في مواقف الخطر أكثر مما يفيدني بابيلاس بالرغم عن طعنه بالسن .

ـ لقد أصاب .

ـ وأنا لا أنكر ذلك ، غير انه يبلغ السبعين من العمر ، فاضطورت الى أمره بالبقاء .

فنظر ريكمبرج الى المركيز محدقاً وقال له : ماذا تقول لو وجدت لك رفيقاً في رحلتك ؟

ـ من هو هذا الرفيق ؟ ـ أنا .

فذهل المركيز وسرّ معاً لهذا الاقتراح وقال له بلهجة المتردد: يستحيل عليّ يا سيدي قبول اقتراحك فليست ثروتي ..

فقاطعه ريكمبرج قائلاً : ما شأن ثروتك بهذا الاقتراح، ألا أعلم انك فقدتها ما زلت مسافراً الى باريس لإستردادها ؟

ـ ولكن ذلك يدعوني الى رفض هذه التضحية .

ـ وأين التضحية ، فاني لقيتك في امبواز وتعرفت بك وتعشينا معاً ودعت الصدفة ان نسير سوية الى باريس لاني مسافر اليها ايضاً .

ـ اذا كان كل القصد مرافقتي الى باريس قبلت اقتراحك شاكراً .

ـ انك لو عرفتني حق العرفان يا سيدي المركيز لما قلت لي هذا القول ، فاعلم اني لا افارقك بعد الآن إلا بعد ان تخرج فائزاً منتصراً من هذه المعارك التي لا بد من نشوبها بينك وبين عمك .

ـ ولكنك تظهر لي يا سيدي إخلاصاً أكيداً لا أعلم كيف استحقيته منك ، لا سيما وانك نبهتني الى ما يحدق برحلتي من الاخطار .

ـ وأنا لم اقترح صحبتك إلا بسبب هذه الاخطار ، فقد كنت في عمرك وأتيت من الاعمال ما لا يخطر لك في بال ،ولكن التجارب جعلتني حكيماً وصيرتني من أهل الحذر .

ـ ولكن كيف تخاطر من أجلي ؟

– لأسباب كثيرة اخصها اني لا أحب العيش إلا اذا كان محفوفاً بالخطر ، وقد عرضت لي هذه الفرصة فاغتنمتها ، ومن هذه الأسباب ان للحكم الأول تأثيراً علي ، وقد ملت اليك حين رأيتك وفي ذلك ما يكفي لمشاطرتك الخطر ، فلا تعجب لذالك، وإذا حسبته شذوذاً فاني من أهل الشواذ .

– أنسافر صباح غد ؟

قال : دون شك .

قال : إذن سأدعو بابيلاس الى إيقاظك .

قال : لا حاجة الى ذالك، فاني سأتفقد الجياد واعلفها في الصباح قبل ان يستيقظ بابيلاس .

قال : كيف ذلك ، أأنت تتفقد الجياد ؟

قال : اني لم أعهد الى أحد باعداد جوادي منذ ركبت الجياد .

قال : الحق يا سيدي إني لا أعلم ما أقول .

قال : لا تقل شيئاً ، ففي أية ساعة تريد السفر ؟

قال : في الساعة التي تعينها .

– أرى انه يجب السفر في الساعة السادسة من الصباح بحيث نستطيع المبيت في بلوا ، والآن قل لي ، أتعرف باريس ؟

– كلا ، فلم أذهب اليها قبل الآن وام أتجاوز اورليان في أسفاري .

– حسناً فاني ارجو ان افيدك فيها .

– أتعرف باريس ؟

– حق المعرفة ، كما اعرف كثيراً من المدن إذ لا يوجد مدينة في فرنسا وايطاليا لم أقم فيها .

– لقد سافرت كثيراً على ما يظهر .

– ان أسفاري لا تعد ، فقد كنت اسافر جندياً وجوّاب آفاق .

– أكنت جندياً ؟

– نعم ، وقد نلت في الجندية لقب كولونيل .

– في الجندية الفرنساوية ؟ – نعم .

– لقد سررتني بذلك ، فاني ادعوك منذ الآن كولونيل بدلاً من ريكمبرج.

– أدعني كما تشاء .

– وهل اعتزلت الجندية ؟

– منذ انتهت الحرب .

– في أي فيلق كنت ؟ – في فيلقي .

– كيف يكون لك فيلق ؟

– ذالك أني حشدت جيشاً من المتطوعين وولاني جلالة الملك قيادتهم فكانوا يقاتلون قتال الأسود .

– وماذا اصاب جنودك ؟

– ارجعتهم الى مواطنهم بعد ان اعطيتهم كل ما اعطاني إياه الملك من المال .

– لا استغرب ذلك منك ، فقد عرفت كرمك، أما وقد

اصبحنا الآن صديقين فاسمح لي ان اسألك هذا السؤال وهو :

– احقيقة انك كنت تريد الذهاب الى باريس قبل ان تلقاني ؟

– اقسم لك بشرفي .

– ألك فيها اصدقاء ؟

– ومن ليس له اصدقاء يا سيدي المركيز ؟ بل ان لي فيها كثيراً من الاصحاب . وكنت عازماً على زيارتهم للاعتماد عليهم في سداد ديني بسبب هذا الجرح .

– يعز عليّ اني لا استطيع اعانتك في ذلك ولكن الكونت انجبيري الذي انقذته من الموت يعد من الأغنياء .

– اعرف من الأصحاب اكثر منه ثروة وميلاً في مساعدتي في ما اريد .

– من هذا الصاحب ؟

– رجل نشأت واياه في مدرسة واحدة في ابريزا .

– ماذا يدعى ؟

– جليليو مازارين .

– اهو الآن من اهل البلاط ؟

– لا ادري ، ولكني اعلم انه سائر في سبيل التقدم منذ وصوله الى فرنسا .

إذن سنسأله ان يبسط علينا حمايته ، والآن فلننم كي نستطيع السفر في الساعة السادسة .

وفيما هما يهمان بالافتراق سمعا وقع جياد كثيرة في ردهة الفندق وسمعا صاحب الفندق يدل اولئك الفرسان على الغرفة التي عينها لهم وهي مجاورة لغرفة ريكمبرج .

فدخل الفرسان اليها وقالوا لصاحب الفندق : اعد لنا ثلاثة اسرة وآتنا بما لديك من فاخر الشراب .

وقد سمع رينالدو قوله فوثب عن كرسيه ووضع ريكمبرج اصبعه على فمه وهو يقول بصوت منخفض : اصغ ولا تفه بكلمة ثم أطفأ المصباح واقترب مع رينالدو من الباب فجعلا يصغيان الى الحديث .

*

الفصل الثالث
في الطريق الى باريس

كان الجدار الفاصل بين الغرفتين رقيقاً فلم يفت المركيز ريكمبرج كلمة من الحديث وسمعا كل ما كان يدور في تلك الغرفة المجاورة من الابحاث .

فكان اول ما خطر للمركيز الشاب ان يهجم على اولئـــك اللصوص في غرفتهم .

غير ان ريكمبرج كان من اهل الحكمة والتجارب فحال دون قصده واراد ان يعرف حقيقة امر هؤلاء اللصوص وخطة هجومهم .

فأشار الى رينالدو بالاصغاء وجلس على كرسي وقد تحولت حواسه بجملتها الى سمع .

وعند ذلك جاءهم صاحب الفندق بما طلبوه من الشراب ، فأخذوا منه القناني وقال احدهم بصوت منخفض : اذا اردت الحياة فاحذر ان تقول كلمة عن وجودنا في هذه الغرفة .

فغمز صاحب الفندق بعينه إشارة الى الموافقة .

فقال له الرجل :

— ايوجد احد من المسافرين في فندقك ؟

— كلا

— ولكننا رأينا ثلاثة جياد في الاصطبل

— هو ذاك فانه لا يوجد عندي غير اثنين من النبلاء و خادمهما

— اين هم ؟

— انهم يتعشون في غرفتهم

— اذن اعد لنا الأسرة ولتكن مهيأة بعد ساعة او احرقنا بك للفندق

فخرج صاحب الفندق ممتثلاً وهو يصخب بضميره ويلعن واخذوا بعد انصرافه بإملاء الكؤوس فقال احدهم ، انني اشرب نخب بوانتلياك فاجابه آخر ، اصبر ايها الرفيق الى ان يوضح لنا الامر فنشرب نخبه واياك .

فقال عند ذلك الذي يدعونه بوانتلياك :

لقد اخبرتكم على سبيل الايجاز بالغنيمة التي اعددتها لكم فوثقتم بكلامي وتبعتموني فاشكركم لهذه الثقة والآن فأصغوا الي فاني مخبركم بالامر بالتفصيل :

واول ما ابدأ قوله هو اني على اتم الوفاق مع تلك المرأة الحسناء المقيمة في خدمة الدوق دي فيلان .

وقد ذهبت لزيارتها فرأيت مركبة سفر ضخمة واقفة عند باب القصر ورأيت الخدم منهمكين وصناديق مفتوحة تدل على التأهب للسفر

فسألت عن ذلك ، فقيل لي الدوق مسافر اليوم الى باريس .

وقد رأيت الخدم ينقلون الامتعة الى صناديق المركبة ، ثم رأيت الدوق بنفسه يحمل بيده حقيبة بديعة الطراز فوضعها في صندوق واحكم اقفاله ثم وضع المفاتيح في جيبه .

فقالت لي تلك المرأة وقد رأتني انظر الى هذه الحقيبة ، انها تحتوي على مجوهرات العائلة .

فقلت : لا بد ان تكون هذه المجوهرات ثمينة بدليل اهتمام الدوق نفسه بتخبئتها

فقالت ، هو ذاك فقد سمعتهم يقولون انها تسوي مليون فرنك

فسمع ريكمبرج والمركيز ضجيج الاستحسان وعاد بوانتلياك الى الحديث فقال :

ان قصر هذا الدوق كائن فوق قمة تشرف على النهر ، ولا بد للمركبة ان تسير سيراً بطيئاً جداً للوصول الى الطريق العام.

وقد علمت من تلك المرأة ان الدوق عزم على السفر باكراً كي يبيت هذه الليلة في امبواز حيث نحن ، فيستطيع المبيت غدا في بلوا .

فلما علمت ذلك اسرعت في البحث عنكم وسألتكم مساعدتي في نيل هذه المجوهرات . الا تجدون ان هذا المليون يستحق العناية واننا احق به من هذا الدوق الغني ؟

فأجابه الجميع بصوت واحد ، دون شك.

قال : ولا اجد اسهل من نيله ، فأنكم تعرفون تلك الغابة الصغيرة الكائنة على قيد مرحلتين من امبواز .

— دون شك

قال اذن سنكمن له في تلك الغابة ، فان المركبة تضطر مكرهة الى ان تسير فيها الهوينا ، فنهجم عليها ونستولي على الصندوق.

فقال له احدهم ، ولكن الدوق لا يسافر وحده وسيخفره كثير من الخدم المسلحين .

قال : بل لا يخفره غير خادمين وهما مسلحان ، ولكننا نباغتهما بالقتل قبل ان يتمكنا من اشهار سلاحهما .

قال : ذلك سهل ميسور ، ولكن الدوق ...

— انه يدافع بالطبع عن نفسه وعن ماله ولكننا نعامله كما عاملنا خادميه ومتى غنمنا المجوهرات نستأجر جياداً ونذهب تواً الى اورليان فنقتسم الغنيمة ونعيش عيش الاشراف ، فكيف ترون اقتراحي ؟

— نوافق عليه بملء الارتياح .

— اذن لنبحث الآن كي نستوثق من وصول الدوق الى امبواز ، وعند الفجر نتقدمه الى الغابة اذ لابد من المرور بها .

فوافق الجميع على اقتراحه وخرجوا من تلك الغرفة فسمع ريكمبرج والمركيز وقع اقدامهم في ردهة الفندق كما سمعا ايضاً صوت مركبة ثقيلة دخلت الى تلك الردهة .

فصاح صاحب الفندق بخدامه قائلاً ، اسرعوا فقد وصل الدوق .

وقال : المركيز الى ريكمبرج ، ان الدوق قد حضر فماذا يجب ان نعمل ؟

فظهرت علائم الاستياء على ريكمبرج وقال ، اننا لا نستطيع التخلي عن هذا الدوق وتركه يقع في كمين اولئك اللصوص ،

ولكني كنت اوءثر ان يبقى في قصـــره .

– لماذا ؟

– لانه اذا كثرت علينا امثال هـــذه الحادثة في الطريق لا نصل الى باريس قبل شهر ، وقد لا نصل .

– كيف ذلك ، أأنت تقول هذا القول ؟

– دون شك ، ألا ترى اني حين أنقذت الكونت ريجيري من الموت جوزيت برصاصة في كتفي وبالاقامة شهراً في الغرفة، والذي أراه اننا لا نستطيع ان نجري غير أمر واحد .

– تريد ان نكمن ايضاً لهؤلاء اللصوص ؟

– كلا ، بل الذي أراه هو أن نذهب الى الدوق وننذره بما يتهدده من الخطر

– لقد أصبت فذلك خير حل .

فنهض ريكمبرج وقال : هلم بنا نقابله .

فبرح الاثنان الغرفة لمقابلة الدوق ، فلم يصلا الى الردهـــة حتى وقف رينالد مندهشاً مما رآه ،فقد رأى رجلاً كلل الشيب رأسه يسير متأبطاً ذراع فتاة تبلغ الثامنة عشرة من العمر وقد أخذت من الجمال بأوفر نصيب .

وكان هذا الشيخ يبلغ من العمر نحو الخامسة والستين ولكنه كان قوي البنية .

وأما الفتاة فقد كانت محمرة العينين من تأثير الدموع .

وقد وقفت هي ايضاً مندهشة حين رأت رينــــالد ، فنظر الدوق اليه واليهـــا نظرة شفت عن غيرة لا توصف ، وقطب

حاجبيه شأن المتوعد ، ثم ضرب الارض برجله مغضباً وقال : ألا يوجد هنا من يسير بنا الى غرفتنا ؟

أما رينالد فانه دنا من ريكمبرج وقال له بصوت منخفض : انها هي .

- مَن هي ؟

- هي بعينها أيها الصديق .

- واذا كانت هي فما يدعوك الى هذا الاضطراب وهي لا تنظر اليك نظرات جفاء ؟

أما الفتاة فقد كان اضطرابها أشد من اضطراب رينالد وقد دهشت دهشاً عظيماً حين رأته ونظرت اليه نظرة تدل على الكآبة والحزن الشديد ، ولم تنتبه وهي شاخصة اليه لنظرات الدوق.

وأما الدوق فانه ضغط على يدها وقال بجفاء :ماذا أصابك؟

فنظرت اليه ورأت شرر الوعيد يتطاير من عينيه .

وعند ذلك تقدم صاحب الفندق وقال له : ليتفضل مولاي الدوق بلحاقي كي أوصله الى الغرفة المعدة له .

فدفع الدوق الفتاة أمامه بعنف وقال لها: اصعدي، فامتثلت الفتاة .

ولم يطل ذلك المشهد أكثر من دقيقة ، ولكن ريكمبرج تمكن في خلالها من المراقبة ، فأيقن ان الفتى والفتاة متحابان ، وان الدوق يكره المركيز ، فقال في نفسه : أرى ان حوادث هذه الرواية ستتنوع .

ولما توارى الدوق بالفتاة تنهد المركيز وقال : أهي هنا معي في فندق واحد ؟

فسأله ريكمبرج قائلاً : أهي ابنة الدوق دي فيلان ؟

فأجابه ربما ، فاني لا أعلم شيئاً من حقيقة أمرها كما أخبرتك .

– إذن أشير عليك بالتزلف الى ابيها اذا أردت أن تكون امرأتك لأني لم أجد منه ميلاً اليك .

– أتظن ذلك ؟

– بل أؤكده ، ألم تره كيف كان ينظر اليك تلك النظرات الشافة عن منتهى الحقد ؟

– كيف يكون حاقداً عليّ .

– ان نظراته كانت تدل على ذلك .

– ذلك محال ، فلا تعارف بيننا .

– إذن لا أعلم معنى هذه النظرات .

– وأنا ايضاً ، ولكننا سنخدمه أجل خدمة يذكرها لنا ما عاش بالامتنان ويستحيل ذلك الكره الى حب .

– هذا ما أرجوه لك .

– وهذا صاحب الفندق عائد من عنده ، فسأرسله اليه يخبره باننا نحب مباحثته .

– افعل .

فنادى المركيز صاحب الفندق وقال له : إذهب الى الدوق

دي فيلان وقل له ان المركيز دي كولدراي والكولونيل ريكمبرج يريدان مباحثته بشأن خطير جداً .

فانحنى صاحب الفندق وذهب مسرعاً ، ثم عاد اليه بعد قليل فقال له : ماذا أجابك ؟

قال : اني أذكر لك ما اتفق ، هو اني قرعت الباب فأدخلني خادم الى الدوق فنقلت اليه قولك كما تبلغته فقال لي : أهما ذانك السيدان اللذان لقيتهما في الردهة ؟

قلت نعم .

فأجاب : قل لهما اني لا أحب مقابلة أحد .

فقال له المركيز : أكانت هي معه ؟

قال : نعم .

قال أهي ابنته ؟ – قال : لا أعلم .

قال : حسناً ، تمم حديثك .

قال : هذا كل حديثي يا سيدي ، فان الدوق بعد ان قال لي هذا القول أدار لي ظهره فانصرفت وعدت اليك .

فضرب رينالد الأرض برجله مغضباً وقال : جئني بمعدات الكتابة . وبعد هنيهة كتب المركيز ما يأتي :

سيدي الدوق

عثرت اتفاقاً على سر يطول شرحه ، وثروتك وحياتك متعلقان به ، فأرجوك أن تأذن لي بمقابلتك لاطلاعك على هذا السر .

ثم وقع على هذه الرسالة ودفعها الى صاحب الفندق قائلاً :
إذهب بها الى الدوق .

فذهب صاحب الفندق ثم عاد وكانت تبدو عليه علائم الكآبة وبيده الرسالة نفسها فقال :

اني حاولت إعطاء الدوق الرسالة فسألني قبل أن يأخذها عن مرسلها فلما ذكرت له إسمك غضب غضباً شديداً وأنذرني بالقتل إذا عدت اليه برسائل ممن لا يعرفهم ولا يريد ان يعرفهم .

فأخذ المركيز الرسالة وهو حائر في أمره لا يعلم السبب في هذا العناد الغريب .

وعند ذاك أخذ ريكمبرج بيده وقال له : هلم بنا الى الغرفة فقد آن أوان الراحة .

قال : والدوق ؟

قال : انه يجني على نفسه ولم يبق لنا به حيلة .

فأجابه المركيز بصوت يضطرب : إنك خير ايها الصديق في مساعدتي ، أما أنا فلا اطيق أن أرى والد التي . .

فضحك ريكمبرج ضحكاً عالياً وقال :

لا تسأ أيها الصديق فأنت تعلم اني تعهدت لك بأن لا افارقك حتى تبلغ كل قصدك . ولكني أرجوك أن تأذن لي بالضحك من اهتمامك العظيم بوالد هذه الفتاة وأنت لا تعرف اسمها .

— لا أنكر ان الأمر غريب .

— وفوق ذلك فان هذا الشيخ نريد انقاذه من مخالب الموت وهو يعاملنا بملء الاحتقار والازدراء .

— لقد أصبت ايها الصديق ، فان نهج هذا الدوق منكر لا ينطبق على قاعدة معروفة ، ولكن يجب أن نعتمد على طريقة لانقاذه .

— ذلك لا ريب فيه ،فاننا سننقذه بالرغم عنه ، إذا لم يكن من أجله فمن أجل هذه الفتاة وهي تشبه الحمامة .

فأشرق وجه المركيز وقال : أما هي جميلة ؟

قال : بل انها أفرغت في قالب الجمال ، ولا أزال معجباً كيف يلد هذا الذئب مثل هذا الغزال .

فصافح المركيز ريكمبرج وهو مسرور بما سمعه من مديحها وقال له : أية طريقة تختارها في سبيل إنقاذهما ؟

قال : ان الطرق كثيرة ، فاننا نستطيع منذ الآن أن نهجم على هؤلاء اللصوص الاربعة ونطردهم من الفندق .

فبدرت إشارة من المركيز تدل على أنه غير مستحسن هذا الرأي .

فقال ريكمبرج : ثم اننا نستطيع تنبيه الحكومة اليهم فتقبض عليهم .

فأبى المركيز أيضاً الموافقة على هذه الطريقة .

فقال له ريكمبرج : إذن تريد أن نتولى حراسة المركبة الى بلوا .

قال : انها خير الطرق ولكني اخشى ان لا تكون صالحة

– لمـــاذا ؟

– لأن الدوق يحاول اجتنابنا وربما فضل الرجوع على ان يسير بخفارتنا

– تكلم بحرية ايها المركيز فانك لم تستحسن الطرق التي عرضتها عليك لانك تحب ان يكون قتال ، اليس كذلك ؟

فاتقدت عينا رينالد ببارق من السرور لم يخف على ريكمبرج فقال له : لقد أدركت قصدك فإنك تحب أن تظهر أمام الصبية بمظهر المنقذ الباسل .

قال : لقـد أصبت وفوق ذلك فإني عشت الى الآن بملء السكينة ولا بد لي من الحركة .

– سيكون ما تريـــد ، واعلم أنه يجب ان نبكر في السفر كي نسبق اللصوص الى الكمين .

– لقد أصبت .

– اذن أفارقك الآن لأنام فافعل فعلي .

وعند ذلك افترقا فصعد ريكمبرج الى غرفته وبقي المركيز رينالد في الردهة اكثر من ساعة وهو يرجو أن يرى الفتـاة مرة أيضاً .

ولكنه لم يفز بهذا الرجاء فنادى صاحب الفنـدق وحاول أن يعلم منه شيئاً عنها فلم يقف على شيء يذكر فان كل ما كان

يعرفه صاحب الفندق هو أن الدوق دي فيلان يقيم عادة في باريس وأنه لم يعد الى قصره الا منذ عام ، وهو لا يعلم اذا كان متزوجاً واذا كان له بنون .

فلما رأى رينالد أن الفتاة لم تعد وأنه لم يعلم شيئاً من صاحب الفندق صعد الى غرفته ونام .

وفي صباح اليوم التالي جاءه خادمه يـدعوه إلى الرحيل من قبل ريكمبرج فنزل الى الردهة فوجد صديقه ممتطيـاً جواده ينتظره . فقال له : أرى أن الصبح لم يكد ينبثق ولا أخـــال الدوق يسافر قبل ساعتين .

قال : هو ذاك ولكن اللصوص قد سافروا منذ نصف ساعة ولا بد لنا من الوصول قبلهم وليس أمامنا غير مرحلتين للوصول الى الكمين فهلم بنا .

فركب المركيز جواده وبعد نصف ساعة أدركا اللصوص في الطريق وهم يسيرون مشاة فمرا بينهم وواصلا السير حتى وصلا الى ذلك الكمين الذي ذكره اللصوص .

وكان ذلك وادياً لا بد لمركبات المسافرين من المرور بجانبه ، فسار المركيز وريكمبرج الى الاشجـــار المحيطة بذلك الوادي فكمنا فيها وأرسلا خادم المركيز للترصد والاستطلاع

وبعد ساعة عاد اليهما الخادم فأخبرهما أن اللصوص قد وصلوا وكمنوا في الوادي فوقف الاثنان في موقف الحذر .

وكان زعيم اللصوص قد أوقف كلاً من رجـــاله في موقف واتفق واياهم على اشارة الهجوم .

وبعد هنيهة سمع رينالد صوت قدوم مركبة فخفق قلبه حين خطر له ان التي يحبها مقيمة في هذه المركبة وأن القتال سيكون أمام عينيها وقد جزع جزعاً شديداً حين خطر له أنه قد يصيبها رصاصة طائشة فندم لاختياره هذه الطريقة الخطرة ولو كان في الوقت متسع لعاد الى رأي ريكمبرج .

ولكن الأوان قد مضى واقتربت مركبة الدوق فجرد ريكمبرج والمركيز غدارتيهما .

ولم تكن غير فترة يسيرة حتى مرت مركبة الدوق بذلك الوادي ، فخرج اللصوص من مكانهم وانقضوا عليها انقضاض العقبان فهجم أحدهم على الجياد فأوقفها وصوب اثنان غدارتيهما على الخادمين اللذين كانا يصحبان الدوق .

وقد بقي بونتلياك زعيم العصابة فدنا من المركبة فنزع قبعته وقال للدوق بلهجة الاحترام :

أرجو أن لا يرعب سيدي الدوق فاننا لا نعتدي على حياته اذا رضي أن يعطينا حقيبة الجوهرات الموجودة في المركبة .

فلم يجبه الدوق ولكنه أخرج غدارته من حزامه ووثب الى خارج المركبة .

فنادته الفتاة قائلة : أرجو يا سيدي الدوق أن لا تعرض نفسك للخطر .

غير أن الدوق لم يصغ اليها بل أنه صوب غدارته الى اللص الذي كان قابضاً على أعنة الجياد وأطلق النار عليه فانقلب صريعاً فصاح بونتلياك برفاقه : اهجموا عليه فلا سبيل معه الى السلم.

فهجم اللصوص فقتلوا أحد الخادمين وجرحوا الآخر بحيث بقي الدوق وحده أمام الثلاثة .

وقد اقتدت الفتاة بالدوق ونزلت من المركبة وهي لا تعلم ماذا تصنع وجعلت تصيح مستغيثة على اعتقادها أنه يوجد أحد في تلك البراري المقفرة يسمع صياحها .

ثم انقطع صياحها فجأة ورفعت عينيها الى السماء كأنها تشكر الله وأشرق وجهها بنور البشر ، فإنها رأت ريكمبرج ورينالد قد خرجا من بين الأدغال .

وقد انقض المركيز على اللصوص الثلاثة الذين كادوا يفتكون بالدوق دون أن ينتبه لريكمبرج او يعلم اذا كان هاجماً في اثره وأطلق طلقين من غدارته على اثنين منهم فأخطأهما لتسرعه .

وقد بغت بونتلياك في البدء ولكنه تشدد حين رأى المركيز وحده وأطلق عليه النار فأخطأه أيضاً .

أما المركيز فانه جرد حسامه ، وكان يستطيع قتله في الحال ولكنه لم يفعل ، فانه جرد حسامه وهو يقول: دافع عن نفسك.

وكان الدوق قد جرد حسامه ايضاً بعد ان فرغ الرصاص من غدارته دون جدوى .

وأما ريكمبرج فانه دنا من الفتاة فوقف أمامها كي يحميها ولم يتنازل الى الأشتراك بالقتال .

وقد رأى المركيز أن الدوق قد وهنت عزيمته وظهر عجزه أمام خصمه ، ثم رآه سقط على الأرض وقد زلت قدمه حين تراجعه للدفاع ، فوثب الى ذلك اللص وحال بينه وبين الدوق ،

فهجم عند ذلك بونتلياك على المركيز بحيث بات يصادم خصمين.

أما الفتاة فانها لما رأت الشيخ قد سقط على الأرض أسرعت اليه وساعدته على النهوض فنهض وقد صدعت رجله صدعاً خفيفاً فذهبت به الى المركبة والتفتت لترى ما يجري ، فرأت المركيز لا يزال يقاتل اللصين وريكمبرج لا يزال معتزلا القتال فانكرت الفتاة اعتزاله وقالت له ، ايروق لك يا سيدي ان ترى هذين اللصين يفتكان بصاحبك ؟

فاجابها ريكمبرج ، لا تخشي عليه يا سيدتي فان نظري لا يتحول عنه وسينتصر على هؤلاء الاشقياء .

فناداها الدوق من داخل المركبة قائلا مرغريت تعالي . . اني آمرك بالحضور .

أما مرغريت فانها شغلت عن ندائه بما كان يخامر قلبها من الرعب والاشفاق على المركيز فكان قلبها يخفق خفوقاً شديداً وقد بذلت جهداً عنيفاً كي تحمل ريكمبرج على مساعدته

ولا ندري ارضخ ريكمبرج لتوسلها ام انه توسم ضعفاً في جانب المركيز فامتشق حسامه وجعل يضرب بقفاه ظهور اولئك اللصـــوص وهو يقول :

اذهبوا ايها الاشقياء او تلقوا حسام الكولونيل ريكمبرج

فالتفت بونتلياك حين سمع اسم ريكمبرج وقال ، انه هو بعينه .

ثم افلت من المركيز واطلق ساقيه للريح ممعناً الفرار في الغابة فاقتدى به رفيقه وبعد هنيهة تواريا عن الانظار في الغابة

وقد ذهلت الفتاة ذهولا عظيماً حين رأت ان ذكر اسم هذا الرجل كان كافياً وحده لانهاء القتال .

اما المركيز رينالد فانه دنا من الفتاة ومد لها يده فرأت الدم على قميصه وقالت له بصوت يضطرب، انك ياسيدي جريح

قال اني جرحت في سبيل الدفاع عنك فكان الجرح اجمل تذكار .

ولم يسمع الدوق ما جرى بينهما من الحديث ولكنه رأى اتقاد عيونهما فصاح بالفتاة قائلا :

الا تسمعين كلامي ، الا تريدين ان تحضري ؟

فاوصلها رينالد الى المركبة وانحنى إمام الدوق فقال له ، لا تخف يا سيدي الدوق عليها فقد باتت في مأمن ، على انك لو اذنت امس بمقابلتي لاخبرتك بهذا الكمين وسلمت منه .

قال كيف ذلك ، اكنت عارفاً بأمره ؟

— لقد عرفت سر هؤلاء اللصوص اتفاقاً في الفندق الذي كنا فيـــه .

فقالت له مرغريت ، اذن لقد عرضت نفسك للخطر في سبيل وقايتنا منه .

— دون شك يا سيدتي ولا ازال مستعداً لبذل دمي في هذا السبيـــل .

فاجابه الدوق بجفاء ، حسناً فاني اشكرك .

وكان ريكمبرج يبحث عند ذلك في ساحة القتـــال فوجد خادم الدوق قتيلا واثنين من اللصوص صريعين والسائق لم يصب

بمكروه .

فعاد الى الدوق وأخبره بما رآه فقال الدوق : اذن نستطيع مواصلة السير ، ثم أمر السائق بالرحيل .

فقال له المركيز ، ليأذن لنا سيدي الدوق بمرافقة المركبة فاننا ذاهبان أيضاً الى بلوا ؟

فأجابه الدوق بجفاء : أشكرك يا سيدي وما انا في حاجة الى خفارتكما .

ثم كرر أمره الى السائق بالمسير فسارت المركبة وقال المركيز: اني سأراها أيضاً بالرغم عنك ايها الشيخ العنيد .

***

الفصل الرابع

اجتماع المركيز ومرغريت

أما ريكمبرج والمركيز فانهما أحضرا جواديهما من الغابة وتبعا المركبة على مسافة خمسين خطوة لينجدا من فيهما حين الاقتضاء .

وكان سرور رينالد لا يوصف فانه أنقذ تلك الفتاة التي يحبها وقاتل بالسيف ثلاثة أمام ريكمبرج .

غير ان ريكمبرج انتقد قتاله فقال له ، إنك تجيد القتال بالسيف كل الاجادة على امتن قواعده ، ولكنك كنت تكثر من الانتقال والوثوب وذلك خطأ عظيم يجب ان تجتنبه في مستقبل الايام فانه يدعو الى التعب السريع وفي كل حال فاني اثني على استاذك ، فهل هو كريمال الذي علمك القتال ؟

— نعم — وأين تعلم هو ؟

— في باريس فان جدي اقام فيها منذ سنة ١٥٧٦ الى ١٥٩٧ وصحبه كريمال فقد تلقى دروس السيف على يد ايطالي كان له شهرة واسعة في ذلك العهد .

— العلك تعني بهذا الايطالي منكاردي ؟

— هو بعينه ، وانت العلك تعرفه ؟

— كيف لا اعرفه ، فاني لم اكن فقط خير تلاميذه بل انه

كان لي خير أب ، فهو الذي التقطني عـــن الطريق وانا بـــين المـــوت والحيـــاة .

– ولكن هذا الرجل غادر باريس في أوائل سنة ١٦٠٨ كما قال لي كريمال .

– لقد قال لك الحقيقة فان منكاردي وجدني على الطريق حين عودته من فرنسا الى ايطاليا .

– الا تقص عليّ هـــذا الحـــديث ؟

– حباً وكرامة غير انه لا فائدة منه الآن وسنقف في كثير من المحطات قبل وصولنـــا الى باريس فاقصه عليك في الليل ، اما الان فلنتحدث عنك وعن غرامك .

– لا احب الي من الحديث عن مرغريت .

– لاسيما وقد عرفت اسمها ، فقل لي بحرية بماذا اسأت الى هذا الدوق الشيخ الذي يصحبها ؟

– لم اسيء اليه بشيء .

– ذلـــك محـــال .

– اقسم لك اني لم اره مرة قبل امس .

– اني لا افهم شيئاً من هذه الالغاز الا اذا لم يكن هذا الدوق والد مرغريت

– ماذا ، اتظن انه ..

– كيف يغار مني

– ذلك ظاهر جلي فلا يمكن حمل سلوكه المنكر الا على حمل الغيرة فانها تضل العقول ، ودليل ذلك اننا انقذنا مجوهراته

وهي تسوى مليون فرنك وانقذنا حياته وربما نكون قد انقذنا ايضاً شرف الفتاة ومع كل ذلك فقد رأيت كيف كانت خطته معنا ؟

– ولكنه لم يجد مني ما يحمله على الغيرة .

– بل إنك كنت تنبئه بحبك بكلام واضح تقوله عيناك .

– أتظن أنه انتبه لنظراتي ؟ – ولنظراتها أيضاً .

– ولكن كيف يسافر واياها ، وبأية صفة ؟

– ربما كان قريبها أو وصيها .

فتنهد المركيز وقال : أيتزوج هذا الوحش المفترس مثل هذه الغزالة ؟

– انه وحش كما تقول ولكن مثل هذا الزواج يتفق كثيراً في كل يوم .

– اني سأحول دون هذه الجريمة ولو أفضى الأمر الى اهراق دمي ، فان زواجه بها جريمة فاضحة .

فهز ريكمبرج رأسه ولم يجب .

وقال له المركيز : ألعلك تخطئني فيما أقول ؟

– كلا ولكني أرى أننا بعدنا عن الغرض الذي نسافر من اجله

– لا أبالي ، أتحسب أني لا أضحي ثروتي في سبيل غرامي ؟

– بل أؤكد ، ولذلك ترى ما رأيته من علائم قلقي .

فسكت رينالد وواصل السير وراء المركبة وهو يحدق اليها يرجو في كل حين أن يرفع الهواء سجف المركبة فيبدو له وجـــه مرغريت ، ولكن آماله خابت فان المركبة توارت عن الانظار

في ضواحي بلوا ، فحاول المركيز أن يدفع الجواد لإدراكها فحال ريكمبرج دون قصده ، وقال له :

– إنك تريد المسير في اثر مرغريت ، أليس كذلك ؟

– دون شك .

– ولكنك تخطىء في ذلك خطأ محضاً ، فان الدوق متى رآنا دخلنا في اثره الى فندق بلوا خامره الشك وذهب بمرغريت الى مكان آخر ،فلندعه يصل قبلنا ويقيم في ذلك الفندق ويتعشى فاذا وصلنا بعد ذلك لا يبقى له سبيل للانصراف .

– لقد أصبت أيها الصديق فاعذرني .

– أعذرك دون شك فان عيب التسرع لا يسلم منه من كان مثلك في مقتبل الشباب وفي العجلة الندامة كما تقول الحكمة المأثورة .

وجعلا عند ذلك يسيران الهوينا حتى وصلا الى فندق بلوا بعد أن وصل اليه الدوق بساعة ، فكان أول ما رأياه في ردهة الفندق مركبة الدوق .

فترجلا عن جواديهما وذهب الخادم بالجوادين الى الاصطبل وتبعه ريكمبرج لمراقبة العلف حسب عادته .

وأما المركيز فانه لم يكد يسير الى غرفته حتى لقيه رجل فاعترضه قائلاً بلهجة سرور :

أحمد الله لأني لقيتك يا مولاي كي أتمكن من أظهار شكري وامتناني فاني مدين لك بالحياة .

فعجب المركيز بقوله اذ لم يعرفه وقال له : من أنت ؟

قال : كيف ذلك ألم تعرفني يا سيدي ؟ أنا بابتيست سائق مركبة الدوق والدوقة دي فيلان .

فشعر المركيز كأنما الارض تميد به وقال : الدوقة ؟ ماذا تعني بما تقول ، أهذه الصبية التي تصحب الدوق . . .

– انها امرأته يا سيدي منذ ثلاثة أيام .

فاصفر وجه المركيز ووهنت ركبتاه ، فانتبه السائق لاضطرابه وقال له :

ألعل مولاي المركيز يتألم من جرحه ؛ أتأمر يا مولاي أن أدعو الطبيب ؟

قال نعم اني أتألم من جرحي ولكنه ألم عارض لا أحتاج الى مداواته .

– وأنا لست يا مولاي كسيدي الدوق فاني أسفك دمي في سبيل من يخاطر بحياته لانقاذ سواه .

– أحقاً ما تقول يا بابتيست ، فهل تعتبرني محسناً اليك بانقاذك

– بل أعتبر أني مدين لك بالحياة فحياتي لك .

– اني لا أسألك حياتك بل أسألك أن تبرهن لي عن عرفانك قدر الجميل فاذا كنت كما تقول فاتبعني .

ثم مشى امامه الى باب الفندق الكبير فتبعه السائق وعند ذلك سأله المركيز قائلاً :

أيقيم سيداك في هذا الفندق ؟ — نعم .

– أين غرفهما فيه ؟

– انهما يقيمان في ثلاث غرف في الدور الأعلى فاذا أراد

مولاي أرشدته اليها

– لا حاجة الى ذلك فاني أعرفها وهي مشرفة على الشارع ، أليس كذلك ؟

– نعم

– في أية من هذه الغرف الثلاث تقيم الدوقة ؟

– في الغرفة الكائنة في الزاوية اليسرى وهي كائنـــة تحت غرفتي تماماً .

ولكن الدوق يدخل حين يريد الى غرفة الدوقة .

– كلا . – أأنت واثق مما تقول ؟

– نفس ثقتي بأني أحدث أبسل رجل في فرنسا .

– ولكن كيف يكون ذلك وهي امرأته كما تقول ؟

– انها امرأته بالاسم فقط يا مولاي ، وهو امر يعلمه جميع الناس فما هو بسر .

فتنهد رينالد تنهد ارتياح كانما قد انزل حملاً ثقيلاً عن كاهله وقال له .

اذا كان ما تقوله عن امتنانك حقاً فقد دنت ساعة اظهار هذا الامتنان .

– ليأمر مولاي اطع .

– ان خادم غرفة الدوق قد قتل في الطريق وارجح ان الدوق سيعهد اليك بمهمته .

– لقد عهد بها الي فانا اخدمه الى ان نبلغ باريس .

– اذن ستعلم حين ينام .

– دون شك .

– اتأتي الي فتخبرني بذلك حين دخوله الى غرفة الرقاد ؟

فدهش السائق لانه لم يسأله غير قضاء هذه المهمة البسيطة وقال له ، اهذا كل ما تأمرني به يا سيدي ؟

– كلا بل اسألك ايضاً ان لا تحكم اقفال نافذة الغرفة التي تنام فيها الدوقة .

– ان ذلك من شأن ماري .

– من هي ماري ، العلها خادمة الدوقة ؟

– نعم فاني اعرف منها جميع اسرار المنزل وهي ستبيت الليلة في الغرفة الفاصلة بين غرفتي الدوق والدوقة . ولكني معها على احسن حال فنحن خطيبان وسنتزوج حين وصولنا الى باريس .

فاعطاه المركيز خمسة دنانير وقال له ، اذن قل لخطيبتك ان لا تحكم اقفال النافذة فوضع السائق الدنانير في جيبه وقال ، ليطمئن مولاي فسيكون ما اراد .

– وانت لا تنس ان تأتي الي حين ينام الدوق .

وعند ذلك افترقا فذهب المركيز الى ريكمرج واخبره بمـــا اتفق لـــه .

فقطب حاجبيه وقال له ، ولكن اذا كانت مرغريت متزوجة فما الذي ترجوه ؟

– انها متزوجـــة بالاسم .

– ولكنها من اسرة شريفة وما زالت قد رضيت ان

تكون زوجة الدوق فهي ستقوم بواجباتها الزوجية فتصون شرفها وشرف الدوق فاذا اصغت الى حديث غرامك تعبث بشرفها وبشرف ذلك الزوج فماذا تصنع ؟

– لا أعلم ، وسأخبرك غداً .

وكأنما خشي أن يعترضه بما عزم على اجرائه فلم يخبره بشيء عن مشروعه .

وبعد العشاء ذهب المركيز الى المدينة وعاد بصرة استلفتت أنظار ريكمبرج فادعى المركيز أنه متعب وذهب بالصرة الى غرفته .

وفي الساعة العاشرة والنصف سمع نقراً على باب غرفته ففتح الباب ورأى سائق الدوق فقال له : ماذا حدث ؟

قال : قد جرى كل أمر طبق المرام فـان الدوق نائم وقد تعهدت لي ماري بعدم اقفال النافذة .

– ألم يحدثك الدوق عني وعن رفيقي ؟

– كلا

– اذن فاعلم الآن أنك ستلبس قبعتي وتتشح بردائي وتتقلد حسامي وتذهب الى الشارع فتسير فيه ذهاباً واياباً شأن المتنزه نحو ساعة مع العناية بأن لا يعرفك أحد .

– سأفعل .

– واذا أطل الدوق من النافذه فلا تظهر له وجهك كي لا يعرفك بل أدر ظهرك وواصل سيدك كي يتـوهم اني انا الذي يتنزه في الطريق .

– سأفعل .

– واحذر أن تتوقف عن التنزه مهما رأيت وسمعت واعلم أنك إذا أحسنت القيام بهذه المهمة كافأتك خير مكافأة ، وإذا خنتني جازيتك بالقتل .

– معاذ الله أن أفعل فاني أكره الموت .

– إذن أخلع ثيابك والبس ثيابي وسر بي إلى غرفتك .

فامتثل السائق ، وبعد هنيهة كان المركيز في غرفة السائق وكان السائق يتنزه في الشارع وهو بملابس المركيز .

أما المركيز فإنه فتح الصرة وأخرج منها حبلاً معقداً يبلغ طوله عشرة أمتار فأحكم طرفه في نافذة السائق وتدلى عليـه بمنتهى السهولة إلى نافذة غرفة مرغريت .

وكانت ستائر النـافذة كثيفة ولكن المركيز رأى نوراً ضعيفاً ينبعث من الغرفة بالرغم من كثافـة الستائر فأيقن ان الدوقة لم تنم بعد .

ولكنه كان موقناً أيضاً أنها وحدها فلم يتردد وأزاح الستائر برفق ونظر نظراً مضطرباً إلى داخل الغرفة فرأى مرغريت بملابس النوم وقد لبست ثوباً أبيض من الحرير المزركش بالدانتيلا وعليه شرائط معقودة من الحرير الأحمر .

وكانت جالسة على كرسي وقد أسندت كوعها إلى مائدة وأسندت رأسها إلى يدها وهي تفكر تفكير المهموم وتنظر إلى رسم معلق في الجدار ولكنها تفكر بغيره دون شك .

وكان شعرها الأشقر الطويل مسترسلاً على كتفيها تقع عليه أشعة النور فتنبعث منه أشعة ذهبية ، ويحيط بوجهها كما تحيط الهالة بالقمر .

فوقف المركيز هنيهة يتأملها وقد سحرته تلك المحاسن ، ثم أزاح الستائر كي تفسح له مجالاً للمرور فانتبهت الصبية والتفتت فلم تتمالك عن أن تصيح صيحة ذعر ضعيفة .

أما المركيز فإنه رجع لفوره ووضع سبابته على فمه .

فلما تبينت مرغريت وجهه وعرفت أنه المركيز دي كولدراي جمعت ثوبها إخفاء لصدرها وتحول ذعرها إلى دهشة ، فقالت له: أنت هنا ؟

قال : رحماك سيدتي . . إني أتوسل اليك أن تصغي الى ما أقول ، فما هو إلا بضع كلمات .

– أنت هنا في هذه الساعة ، إنك إذن تريد فضيحتي .

– اطمئني يا سيدتي فقد حذرت كل الحذر ، وأنا أعلم بخطورة الموقف ،فلا ألتمس منك غير أن تصغي إليّ ثم أنصرف .

فنظرت مرغريت الى ما حواليها نظرة رعب ثم اطمأنت لسيادة السكينة فأشارت إلى المركيز أن يتكلم .

فبدأ المركيز حديثه فقال :

شهد الله يا سيدتي اني منذ رأيتك في منزل البارونة دي ميراندوانت ممثلة لي في كل سبيل ، فلم يكن لي غير مطمع واحد وهو أن أراك ورجاء واحد وهو أن أقدم اليك .

ولكنني كنت لنكد طالعي منهمكاً في قضية إرث قضت عليّ بأن أكون في تورس ولم يصدر الحكم في هذه القضية إلا منذ أربعة أيام فخسرتها وبرحت أمس قصر كولدراي ذاهباً إلى باريس لعرض شكواي على الملك ، فإنهم حرموني إرث أبي.

وقد حاولت نسيانك يا سيدتي إذ قضي عليّ بأن لا أراك ، وفيما أنا أشكو أمري بالأمس الى رفيقي بالسفر رأيتك فجأة فتجددت آمالي وأيقنت ان الله قد أجاب دعوتي ويسر لي أسباب لقياك .

غير اني حين رأيتك متوكئة على ذراع ذاك الشيخ خطر لي في البدء أنه أبوك ثم عثرت اتفاقاً بسر أولئك اللصوص الذين كانوا عازمين على مهاجمة الدوق في الوادي فسررت لهذا الاتفاق وطلبت مقابلة الدوق على رجاء أن تقع خدمتي موقع الرضى وأنا لا يخطر لي في بال أنه يغار مني عليك فرفض طلبي شر رفض .

غير أني لم أجد بدأ من إنقاذه لأنك بصحبته وشعرت عند ذلك أني كفوء لمقاتلة جيش برمته .

وأنت تعلمين يا سيدتي كيف استقبلنا الدوق دي فيلان بعد تلك المعركة فلم أكترث لجفائه لأني لم أكن أرى في ذلك الحين غير جمالك ولا أفتكر إلا بسعادتي برآك ، ولم يخطر لي أنه يغار مني إلى ان نبهني رفيقي إلى ذلك فحسبنا أنه وصي عليك أو أنه راغب بزواجك فعزمت العزم الأكيد على أن أحول دون هذا القصد .

وأنت ترين يا سيدتي كيف ان حبك قد شغلني عن ثروتي وأنساني كل أمر في الوجود .

على اني عرفت منذ ساعتين الحقيقة الهائلة وهي أنك زوجة هذا الشيخ فانفطر قلبي من الحزن وشعرت ان ساعتي قد دنت .

فقاطعته مرغريت قائلة :إسمح لي يا سيدي أن أزيد انذهالاً لقدومك اليّ ولمعرفتك بحقيقة أمري . نعم ان أمي مدام شامبفورت قد أزوجتني الدوق دي فيلان بالرغم عني ونعم اني استنجدت بالكونت لوريجبيري وهو خالي .

ولكن كل ذلك لا يغير شيئاً من حالتي بإزائك وحالتك بإزائي ، فاني أعد نفسي ضعيفة بل مذنبة لسماع حديثك .

وبينما كانت تقول هذا القول كان رينالد قد دنا منها فأخذ يدها بين يديه وقال :

إنك لو تعلمين يا سيدتي مقدار حبي لعذرتني فيما ارتكبته من الجنون ومع ذلك فان ما قلته لي لا يخلو من فائدة كما تظنين فإنك لم تتزوجي إلا منذ ثلاثة أيام وقد عاد الكونت لورجيري منذ شهر من اسبانيا .

– ألعلك رأيته ؟

– كلا ،ولكن رفيقي الكولونيل ريكمبرج رآه في حادثة أنقذه فيها من القتل .

– أتعلم الى أين كان ذاهباً ؟

– الى باريس ، وكان مسرعاً كل الاسراع ليعارض في زواج

إبنة أخيه كما قال .

– ولماذا سافر الى باريس ؟ لا شك انهم خدعوه ولكني لا أبالي ، ومهما بلغ من جرأتهم فإنه يجب عليّ أن احترم نفسي ، فاعلم يا سيدي إني أدعى الدوقة دي فيلان ولا أنسى ذلك ولو سحق قلبي .

ثم سحبت يدها من يدي رينالد وقالت : إن ذلك يكفي لتبرئة نفسي أمامك بعد ان عرضت راحتي وسمعتي للخطر .

وقد مدت يدها عند ذلك إلىالنافذة التي دخل منها وأشارت اليه أن يخرج .

فذعر رينالد وقال :رباه، ماذا أرى..أتأمرينني بالانصراف دون أن تحيي قلبي بكلمة رجاء .

فأجابته بلهجة رفق قائلة : إني إذا عللتك بالرجاء اكون مذنبة ، وخير ما تبرهن لي عن حبك واحترامك هو أن تنصرف في الحال .

– نعم ، لقد أصبت يا مرغريت وأنا المذنب المتسرع ، ولكن لا تتهمي بذلك غير حبي ، ولو كنت تعلمين ما ألاقيه من العناء بفراقك لأشفقت عليّ.. كلمة يا مرغريت تدملين بها قلبي الجريح . عديني بحبك ولو بمستقبل بعيد . كلمة واحدة يا مرغريت .

– ان المستقبل لله يا سيدي ،أما أنا فلا أستطيع قبول حبك إلا بشرط .

– مري يا مرغريت فإني أمتثل مقدماً لكل ما تأمرين .

– إن شرطي هو أن لا تحاول أن تراني أو تعرضني الى ما عرضتني به اليوم من الهم والشقاء .

– كيف ذلك ، ألعل الدوق تجاسر ؟

– ان الدوق يحبني ويعلم أني لا أحبه .

– سأمتثل لشرطك وأبعد عنك على أن تعديني بأن تكوني وإياه كما أنت وإياي .

– لا تخف ، فان ما تسألني إجراءه أقسمت قبل أن تسألني على فعله ولا أحنث بيميني ولكني أرجوك أن تذهب فإن بقاءك يزيد عذابي .

فنهض رينالد فقبل يدها وقال : مرغريت ، إني لك ما حييت .

ثم خرج من النافذة كما دخل وتوارى عن الأنظار .

أما مرغريت فانها سقطت على كرسيها واهية القوى بعد ذهابه ، وبعد هنيهة سمعت صوت الدوق من الشارع بلهجة تدل على الغضب فهلع قلبها خوفاً ثم قرع باب غرفتها وسمعت صوت الدوق يقول لها : افتحي ، اني آمرك أن تفتحي .

فقالت بصوت مختنق : ويلاه ، لقد قضي علي .

ثم قامت ففتحت الباب فدخل الدوق وهز ذراعها بعنف وقال : ما هذا الحبل المدلى الى غرفتك ؟

فلم تجب مرغريت بحرف .

فهزها ايضاً بعنف شديد وقال : أتستطيعين الانكار بعد ان رأيت رجلاً خرج من غرفتك وهرب بهذا الحبل ؟

فأفلتت مرغريت من يده وحاولت ان تجيب .

غير ان سائق مركبة الدوق دخل عند ذلك من باب الغرفة الذي بقي مفتوحاً فركع أمام الدوق وقال : اسألك العفو يا مولاي فأنا هو المخطىء ، وسأخبرك بكل ما جرى .

فنظرت مرغريت نظرة المشكك الى السائق وهي لا تعلم أيقضي عليها بالعار أم يقضي لها بالبراءة .

وقال السائق : إني أشكو نفسي ولكني أتعهد أن لا أعود إلى هذا الخطأ ، على اني لم أفعل ما فعلت إلا في سبيل الاخلاص لمولاي .

فدهش الدوق وقال : كيف ذلك ؟

قال : ان هذا الحبل أنا علقته يا مولاي وأنا هو ذلك الرجل الذي رأيته هارباً .

فهدأ غضب الدوق وقال : أنت ، وكيف كان ذلك ؟

قال : هذه هي الحقيقة ، وأنا أقولها كما اتفقت راجياً أن أن تشفق عليّ كما ألتمس من سيدتي الدوقة أن ترحمني لجرأتي ، فقد تجاسرت على إهانتها .

فأشرق وجه مرغريت بنور الرجاء وقد خطر لها ان السائق كان متفقاً مع رينالد ، وأما الدوق فقد هاج به الفضول حتى تغلب على الغضب فأمر السائق بالوقوف وقال له :قل ما حدث.

قال : اني لاحظت يا مولاي ان رجلين من الأشراف يسيران في أثرنا من أمبواز ولا سيما أحدهما وهو ذلك الفتى الذي أنقذنا في الوادي وقد رأيته جميلاً باسلاً فقلت في نفسي ، انه لم يقتحم هذه الأخطار ويلقي بنفسه الى التهلكة من أجل الدوق ومن أجلي وقد خطر لي هذا الخاطر الأثيم وهو أنه لم يفعل ما فعل إلا إرضاء لسيدتي الدوقة . أقول هذا وأنا ألتمس من مولاتي المعذرة فقد أقول ايضاً ما يمس نفسها الطاهرة .

فقال له الدوق : إمضِ في حديثك ، فانها طيبة القلب وستعفو عنك .

قال : ولما وصل هذا الفتى الى الفندق سألني أسئلة مختلفة ، وقد رأيت عليه علائم الاضطراب حين علم مني ان الدوقة متزوجة منذ ثلاثة أيام ، فزاد اضطرابه في هواجسي وخشيت شر هذا الفتى فبالغت في المراقبة .

وقد كنت سألتني يا مولاي في بدء السهرة إذا كنت رأيت أحداً يتنزه في الطريق فزاد سؤالك في شكي وصعدت الى غرفتي وهي فوق غرفة سيدتي الدوقة ..

فقاطعه الدوق قائلاً : كيف ذلك ، أكان الحبل متدلياً من غرفتك ؟

– نعم يا مولاي .

– ولكن كيف علق فيها ؟

– ذلك اني حين صعدت الى غرفتي رأيت منها رجلاً يتنزه

في الشارع وقد اتشح برداء طويل وظننت انه المركيز دي كولدراي .

فدخلت الى غرفتي وحاولت الرقاد فخطر لي خاطر اثيم وهو ان المركيز قد يكون ألبس أحد أتباعه لباسه وأوقفه في الطريق كي يوهم الناس انه المركيز ثم دخل الى غرفة سيدتي الدوقة .

فلم أتردد في الأمر وعلقت الحبل في نافذة غرفتي وتدليت منه الى نافذة غرفة سيدتي لاراقب ما يجري في الغرفة ثم أخبر مولاي بما يكون .

وقد بالغت في الحذر كي لا أدع الرجل الواقف في الطريق يراني ، فلما بلغت النافذة رأيت أنها غير مقفلة فوقفت وراء الستائر نحو نصف ساعة حتى اذا وثقت انه لا يوجد ما يحمل على الريبة عدت الى غرفتي على ذلك الحبل .

وبينما انا أتسلق رأيت مولاي الدوق قد خرج من الفندق ليرى ذلك المتنزه في الطريق دون شك ولكنك يا مولاي قبل ان تبلغ الى هذا الرجل نظرت الى غرفة سيدتي الدوقة فرأيتني وصحت تلك الصيحة وأسرعت الى غرفة سيدتي قبل أن تتحقق من أمر ذلك الرجل .

وقد سمعت صوتك يا مولاي وأنت تقرع باب غرفتها وعلمت من لهجتك ان الغيرة هائجة بقلبك وشعرت بما ارتكبته من الخطأ فأسرعت كي اعترف بزلتي ، والتمس من سيدتي الغفران .

فاحمر وجه مرغريت وقالت : لا يجب أن تلتمس الغفران مني بل من الدوق فهو وحده يعلم هذه الحكاية المخترعة عن تنزه المركيز في الطريق وعن نزولك الى غرفتي .

فقال لها الدوق : ان بابتيست قد قال الحق ، فان المركيز كان يرود تحت غرفتك وقد خرجت من الفندق لأناقشه الحساب عن هذه القحة فالتفت الى غرفتك فرأيت رجلاً خارجاً من نافذتها يصعد على حبل الى الدور الأعلى فأسرعت اليك لأقف على حقيقة أمر هذا الرجل .

ولا أقول اني لا آسف لهذه الحادثة المفجعة التي انتهت كما تنتهي الروايات الهزلية ، بل أقول اني سعيد لانها أثبتت لي براءتك واخلاص بابتيست .

ولكني لا بد لي من تأديب هذا الوقح مع إخلاصه لجسارته على الشك بسيدة طاهرة مثلك ونزوله الى غرفتك في الليل لمثل هذه الغاية المنكرة ، غير اني أرجو ان يكون له من ندمه خير عقاب وأن تصفحي عنه كما صفحت .

قالت : وأنا أصفح عنه ايضاً ، ولكن لا بد لي من القول بأني أستطيع الدفاع عن شرفي دون أن ألجأ الى هذه الطرق المنكرة ودون أن أدع الخدم يجسرون على إهانتي .

ثم التفتت الى السائق وقالت له : إني أصفح عنك هذه المرة فاحذر أن تعود الى مثل ذلك بعد الآن .

وقد سر الدوق لهذه النهاية فحيى امرأته وانصرف بعد أن

أشار الى السائق أن يتبعه .

فلما خلا به أعطاه عشرة دنانير وقال له : يجب ان تنهج في المستقبل مناهج الحكمة ولا تدعها تشكك بك .

فتركه السائق ، وبدلاً من ان يذهب الى غرفته ذهب الى غرفة المركيز رينالد فقال له المركيز بلهجة دلت على قلقه العظيم : ماذا حدث ؟

قال : لقد قضي الأمر على ما تريد .

ثم ذكر له الحكاية التى لفقها فسر المركيز لحسن اختراعه ونقده ايضاً عشرة دنانير .

فأخذها السائق وسار الى غرفته وهو يقول : اذا دام الأمر على هذا المنوال لا يمضي عهد قريب حتى أغدو من الاغنياء ، فبارك الله في العشاق وأكثر من الشيوخ أهل الغيرة .

*

الفصل الخامس

رسالة حب

كان المركيز رينالد قد توقع أن يراقبه الدوق ولذلك ألبس السائق ملابسه وأوقفه في الطريق .

ولكن لم يخطر له أن الدوق سينزل اليه ويخاصمه .

فلما رأى السائق وهو في الطريق أن سيده قد رأى المركيز يصعد على الحبل اسرع الى غرفته وانتظر الى أن دخل اليه المركيز فقال له: أهرب الآن الى غرفتك وأنا أدبر الأمر فامتثل المركيز وفعل السائق ما عرفه القراء.

وأقام المركيز في غرفته وهو خائف أشد الخوف على مرغريت فانها أخبرته تلميحاً أن غيرة زوجها لا تطاق ، فلما جاءه السائق وأخبره بفوزه سر سروراً عظيماً وأيقن أن مرغريت تحبه حباً خالصاً لا ريب فيه فانها استقبلته ببرود ولكنها أصغت الى حديثه .

ونعم انها تحصنت وتذرعت بالشرف ولكنها زادت بما فعلته للمركيز احتراماً وحباً ، وما نفع الحب بغير احترام ؟

ثم أنها لو لم تكن أحبته لكانت تخلت له عن يدها وأذنت له بلثم تلك اليد وفوق ذلك، ألم تخبره بأمرها واكراهها على الزواج؟

وقد كان يعد نفسه اسعد انسان لو اذنت له بالبقاء بقربها ولكنها امرته الابتعاد عنها .

غير ان الذي كان يعزيه انها كانت ذاهبة الى باريس وهو ذاهب اليها ايضاً فلا بد له ان يراها فيها .

اما وقد رضي بالشرط الذي اشترطته عليه فلم يبق بد من تنفيذ هذا الشرط .

وعند ذلك نظر الى وجهه بالمرآة نظرة المحتقر لما رآه من اتساخ ثوبه وتلوث صدرته بالدم فقال في نفسه ، اني سألبس في باريس خير الملابس على احدث طراز بحيث لا يقع نظرها على اجمل مني بين الفتيان وعلى اعظمهم ثروة .

وقد سقط على كرسيه حين ذكر الثروة وقال ، نعم لا بد لي ان اكون غنياً باسترداد ثروتي ولا يقبح المرء الا اذا كان من غير مال ولاسيما في عيون النساء .

وعند ذلك قام الى سريره مطمئناً وقد عزم عزماً اكيداً على البحث عن ثروته وبذل كل ما يمكن بذله في سبيل استردادها .

وفي الصباح جاء ريكمبرج ليتفق معه على ميعاد السفر فقال له المركيز اني مستعد للسفر واذا شئت وصلنا الليل بالنهار .

وبعد هنيهة امتطى الاثنان جواديهما وبرحا ذلك الفندق فالتفت رينالد عله يرى مرغريت من تلك النافذة فلم يرها لانها بالغت بالاحتجاب وراء الستائر ولكنه رأى الدوق دي فيلان واقفاً في نافذة غرفته ينظر اليه بعينين تقدحان ناراً ، فغضب

ريناله لهذه النظرات النارية ولكز بطن جواده بعنف فاندفع به يتبعه ريكمبرج .

ولم يكن ريكمبرج يعلم شيئاً مما جرى للمركيز فحسب ان غضب المركيز كان ناتجاً عن اخفاقه في مقابلة مرغريت الى ان اخبره المركيز بحسن تخلص السائق فضحك ضحكاً شديداً ثم قـــال لـــه :

انها تحبك الان فلم يبق عليك الا ان تتفرغ لنيل تلك الثروة التي فقدتهـــا .

وواصل الاثنان سيرهما دون حادث حتى وصلا الى باريس بعد خمسة أيام .

وقد ذهب ريكمبرج برفيقه المركيز الى فندق كان يقيم فيه منذ عشرة اعوام يدعى فندق الاوزة السوداء ، فاحتفى به صاحبه كل الاحتفاء ، فاختار الاثنان غرفتين متجاورتين لا يفصل بينهما غير رواق .

ولما استراحا من مشقة السفر طلب المركيز الى ريكمبرج ان يسير به الى خياط ماهر كي يخيط له ملابس تليق بمقابلة الملك .

فسار به الى اشهر الخياطين في ذلك العهد واقام ثلاثة ايام وهو يتفرج على باريس ويتفقد معاهدها .

وفي اليوم الرابع اراد المركيز ان يتنزه وحده كي يتمرن على الشوارع وحده فلا يضل السبيل .

وقد سار منفرداً فذهب تواً الى الارصفة ، وفيما هو

عائد من جهة اللوفر اعترضته امرأة عجوز فقالت له ، انت المركيز دي كولدراي ؟

قال ، نعم انا هو يا سيدتي ، فماذا تأمرين ؟

فأخرجت العجوز رسالة مطوية من جيبها فاعطته اياها وقالت له ، اسرع الى تخبئتها ولا تقرأها الا حين تعود الى منزلك .

ثم تركته وانصرفت مسرعة دون ان تدع له وقتاً للسؤال وكان رينالد قريباً من الفندق فدخل غرفته وفض الرسالة فقرأ ما يأتي :

« اذا كنت من اهل الشرف والكتمان فاذهب في الساعة الثامنة من مساء غد الى شارع كالاندر تجد عند باب المنزل المكتوب عليه نمرة ٥ من ينتظرك ، فاتبعه الى حيث يسير بك بعد ان يقول لك هذه الكلمة « الامل » .

فقال في نفسه اني سأذهب فان هذه الرسالة من امرأة دون شك بدليل ما كان ينبعث منها من الروائح العطرية .

وقد حاول وقت العشاء ان يبوح بهذه الرسالة لصديقه ريكمبرج ، ولكنه ذكر ما فيها من التحذير والحض على الكتمان فلزم الصمت .

وعندما خلا بغرفته افتكر بمرغريت ، فكاد يمزق هذه الرسالة وتردد في الذهاب ، الى ان غلبه غرور الصبى على امره فلم يتردد .

وفي الساعة السابعة من مساء اليوم التالي لبس خير ملابسه

وبرح الفندق ، وقد سأله خادمه ان يصحبه فأبى وذهب تواً الى ذلك الموعد .

وما زال يسأل عن ذلك الشارع حتى وصل اليه واهتدى الى المنزل الموصوف بالرسالة .

وكان الظلام قد اقبل ، ففتح الباب حين وصوله وسمع صوتاً يقول « الامل » ، فتقدم رينالد وقال ، هوذا انا .

وكان صاحب هذا الصوت يحمل مصباحاً تحت ردائه فادناه من رينالد كي يتبين وجهه ، فعرف رينالد انها نفس تلك العجوز التي اعطته الرسالة .

وقد تقدمته تلك العجوز وصعدت سلماً من الخشب وهو يتبعهـــا .

ثم فتحت باب قاعة كثرت انوارها فادخلته اليها .

فأجال المركيز في تلك القاعة نظراً حائراً ، ولو كان عارفاً بمنازل باريس لادرك لفوره ان هذه القاعة قد فرشت بتسرع عظيم .

ولكنه لم ير شيئاً من ذلك ورأى في وسط تلك القاعة مائدة اعدت فيها معدات الطعام لشخصين .

ولم يطل قيامه في تلك القاعة ، كانهم لم يريدوا ان يطلقوا له مجال التفكير ، ففتح بابها ودخلت منه صبية تدهش الابصار بجمالها النـــادر .

فنهض المركيز ودنا منها وقبل يدها التي مدتها اليه وهي تقول : أأنت المركيز دي كولدراي ؟

قال نعم يا سيدتي ، واني خادمك المطيع

- انك تقيم في تورين وقد اتيت الى باريس منـــذ خمسة أيام ، أليس كذلك ؟

- هو ذاك يا سيدتي ، ولكنني أعجب كيف تعرفين حقيقة أمري .

- لاتعجب ففي باريس يستطيع المرء بالمال أن يعرف كل ما يريد عرفانه ، ومتى كان خدم الفنادق من اهل التكتم ؟

ثم أخذت بيده فاجلسته على المائدة وقالت ، اننا سنتعشى معاً وهذه خير طريقة للتعارف .

فجلس المركيز وجلست الحسناء بازائه وجعل يتمعن في وجهها ، فرآها في الخامسة والعشرين من عمرها ، سوداء العينين لها منطق رخيم وجمال عجيب .

فلما جلسا سألته عن السبب في قدومه الى باريس وعن المدة التي يزمع ان يقيمها فيها وعن اصدقائه الى غير ذلك من الاسئلة فكان رينالد يجيبها بملء الصراحة ماخلا الغاية عن سفره فلم يجد من الحكمة ان يذكرها لها .

فاخبرته هي انها رأته اتفاقاً وان زوجها من ضباط البحرية وهو دائم الاسفار طويلها ، حتى انها تقيم وحدها عاماً وعامين دون ان تراه ، فتجد من ضجر الوحدة مالا ينطبق على ذوقها وصباها

فأدرك رينالد مقاصدها وعلم انها فاسدة التربية كثيرة العبث بالقيود الزوجية ، ولكنه لم يكترث لذلك ، فقد شغله عنه جمالها ولطفها وما كانت تسقيه اياه من الشراب .

وكانت كلما فرغ كأسه املته حتى شعر رينالد ان الشراب قد اخذ منه ، فكان اذا حاول الامتناع عنه تقدم له الكأس باسمة وتقول له ، اترفض ان تشرب نخبي ؟

فيشرب كل ما في الكأس جرعة واحدة بشرط ان ينال قبلة ، ولكنه لم يكن يجد صعوبة بنيل ما يقترحه من الشروط.

ثم احس ان السكر قد تمكن منه لكثرة شربه وهو لم يتعود ان يشرب اكثر من زجاجة واحدة مع الطعام .

فحاول ان ينهض عن المائدة فأجلسته المرأة برفق ولم يستطع المقاومة ، ثم شعر ان الارض تدور به وان قوة عظيمة تطبق عينيه ، فبذل جهداً عنيفاً كي يفتحهما فلم يستطع ، ونام على كرسيه نوماً عميقاً اشترك في احداثه السكر والتخدير .

*

ولنعد الى ريكمبرج فانه انتظر المركيز في وقت العشاء فلم يحضر فشغل باله ونادى خادمه بابيلاس فسأله عنه .

ولم يكن الخادم يعلم من امر سيده سوى انه برح الفندق في الساعة السابعة من المساء بعد ان بالغ في التأنق بملابسه .

فقال له ريكمبرج ، الم يقل لك الى اين ذاهب؟

— كلا .

— ولكن انت ، الم تلاحظ شيئاً يدل على السبب في هذا الغيـــاب ؟

— لم اعلم شيئاً من امره سوى اني رأيته يقرأ رسالة وقد أعاد تلاوتها ثلاث مرات .

— اهي رسالة غرام ؟ — ربمـــا .

— بل ان ذلك لا شك فيه ، فقل اتعلم أين وضع المركيز هذه الرسالة ؟

— كـــلا .

— من اين اخرجها حين رأيته يقرأها ؟

— من الجيب الذي يضع فيه عادة كيسه

— هل ارجعها اليه ؟ — نعم

— الم يغير ثوبه بعد ذلك ؟

— نعم ، واظن ان الرسالة بقيت في الثوب القديم

— اذن سر بي الى غرفة سيدك

فتلجلج الخادم وقال ، ولكني ... لا اعلم ... يا سيدي اذا كان يجب ان ..

— سر امامي ايها الابله ، اتحسب اني اريد ضرر سيدك ام تريد ان يسقط في كمين ونحن عنه متغاضون ؟

كيف يسقط في كمين ؟

فدفعه ريكمبرج وهو يقول ، سر امامي ايها الابله فان الوقت ضيق لا يحتمل الجدال

فامتثل الخادم وتقدمه الى غرفة المركيز ، وهنـــاك فتش جيوبه وعثر على الرسالة ، ففتحها وقرأ ما فيها فقطب حاجبيه وقال : كالاندر .. انه اقبح شوارع باريس واكثرها شراً .. ثم انهم يسألونه الكتمان ، وممن عساهم يحذرون اذا لم يكن مني ؟

وجعل يسير في الغرفة مفكراً ثم قال :

لا بد لي من الذهاب فان كل شيء ممكن ، فاذا رأيت ان اللقاء لقاء غرام محض لم أظهر له ، واذا حدث مكروه كنت واقفاً موقف الرقيب . نعم لا بد لي من الذهاب . وعند ذلك تمشى مسرعاً ثم نادى الخادم وقال له ، يجب ان تذهب معي

قال : ولكن أذا عاد مولاي يا سيدي اين يجدني ؟

– أن سيدك لا يعود قبلنا فاننا ذاهبان اليه

– اذا كان ذلك فاني اتبعك

– ولا تنس ان تأتي بغدارتيك

فارتعش الخادم وقال : اهناك خطر ؟

قال لا اعلم ، ولكن الحذر محمود في كل حال

وبعد هنيهة جاء الخادم بسلاحه الناري وبرح الفندق مع ريكمبرج

وكان ريكمبرج واثقاً ان المركيز لا يعرف ذلك الشارع ، وانه لا بد ان يكون اهتدى الى ذلك المنزل بعد ان سأل عنه اصحاب الدكاكين .

ففعل فعله وجعل يسأل اصحاب الدكاكين ايضاً عن ذلك المنزل نفسه ، فاخبره احدهم ان رجلا نبيلا سأل نفس سؤاله منذ ساعة ودله على المنزل .

فشكره ريكمبرج وقد ايقن ان المركيز ذهب الى اللقاء ،

فالتفت الى الخادم وقال له ، يجب ان تحذر كل الحذر وان تقف موقف المتأهب ولا تقدم على امر الا بأمري .

وما زالا يسيران حتى وصلا الى ذلك المنزل ووقفا عند بابه ، فنظر ريكمبرج الى النوافذ فوجدها مقفلة .

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة فوقف ريكمبرج متردداً حائراً في امره وهو لا يعلم ايدخل الى ذلك المنزل ام يقف وينتظر ، فكان اذا خطر له ان يدخل شعر بعظم المسؤولية وخشي ان يكون مسيئاً الى المركيز والى صاحبة ذلك المنزل .

ولذلك عزم على الانتظار وهو يقول في نفسه ، ان المركيز منذ ساعة في المنزل فلا تطول اقامته فيه .

ولكنه صبر الى الساعة العاشرة دون ان يخرج المركيز ، فقلق ريكمبرج عليه ودنا خطوة الى الباب .

وعند ذلك فتح الباب وخرجت منه امرأة عجوز تحمل مصباحاً، فارتد ريكمبرج مسرعاً كي لا تراه واختبأ في زاوية هناك .

اما العجوز فانها نظرت الى ما حواليها نظرة الفاحص وقالت بصوت منخفض .. لايوجد احد .

ثم خبأت مصباحها تحت ثوبها ، فرأى ريكمبرج عند ذلك رجلين قد خرجا من ذلك الباب وهما يمشيان مشي المتثاقل كأنهما يحملان حملا ثقيلاً .

وخيل له انهما وضعا جسماً اسود عند الجدار .

ثم رأى في اثرهما امرأة كانت بادية عليها علائم الخوف بدليل

اضطرابها و كثرة التفاتها الى ما حواليها .

ثم اقفل احد الرجلين باب المنزل وقال ، هلموا بنا الآن .

فقال له رفيقه ، اذن الا تريد أن ...

فاجابه الآخر ، كلا لا فائدة من ذلك فقد امضى .

فذهل ريكمبرج لما سمعه ورآه وقال في نفسه ، ما هذا الحادث الغريب فان الباب قد اقفل والمركيز لم يخرج ، ألعله برح المنزل قبل وصولنا اليه .

وكان الرجلان والمرأتان قد انصرفوا ، فدنا ريكمبرج من ذلك الجسم الذي وضعوه عند الجدار ولم يستطع ان يتبينه في البدء لاشتداد الظلام ، ولكنه وضع يده عليه وصاح منذهلا : انه جسم انسان .

ثم ظهرت عليه علائم الرعب اذ خشي ان يكون رينالد قتيلا ، فنادى الخادم وأزاح الرداء عن الرجل اذ كان ملتفاً به ، فرأى الخادم بالرغم عن الظلام ان الثياب ثياب المركيز .

اما ريكمبرح فانه ناداه وهزه مرتين فلم يجب قال ، رباه العلهم قتلوه .

ثم حمله وحاول ايقافه فشعر انه يشبه الجثة فحمله بين يديه وسار به الى جهة الارصفة والخادم يتبعه وهو يكاد يجن اشفاقاً على سيده .

وما زال سائراً به حتى ابتعد عن ذلك المكان المظلم ، فألقاه على الارض وجعل يفحصه الفحص الدقيق فقال :

انهم لم يقتلوه والحمد لله ولكن ما باله لا يجيب ولا يتحرك ، العله سكران ؟

وعند ذلك حمله على كتفه وسار به تواً الى فندق الاوزة السوداء حيث يقيم .

وهناك امر الخادم ان يسرع الى احضار الطبيب ونقل المركيز الى سريره وفحصه ، فاطمأن اذ لم يجد في جسمه اثراً للجراح .

وبعد هنيهة اقبل الطبيب فما زال يعالجه حتى استفاق .

اما المركيز فانه لما فتح عينيه وضع يده على جبينه ونظر نظراً حائراً الى ما حواليه .

فقال له ريكمبرج ، ماذا حدث لك ؟

ثم ذكر ما سمعه من الرجلين فقال له ، العلك امضيت ورقة؟

فلم يستطع المركيز ان يجيبه عن شيء من اسئلته واقام على ذلك نحو ساعة حتى استفاق تماماً فاخبره ريكمبرج عند ذلك بجميع ما اتفق له في ذلك المنزل الى ان ضاع رشده من السكر او التخدير فلم يعد يعي على شيء .

غير انه لم يكن يعتقد بوجود كمين اذ كان يحسب انهم لو ارادوا قتله لتيسر لهم ذلك اذ لم يكن يستطيع اندفاع .

فاعترضه ريكمبرج قائلاً ، ان من الاساءة ما يزيد على القتل ولا شك انهم كانوا يريدون سلبك او الاساءة اليك بغير ذلك ، ولو لم يكن هذا قصدهم لما سقوك هذا المخدر .

— ربما كنت مصيباً ايها الصديق ولكني بحثت كثيراً فلم

اهتـــد .

– ارأيت العجوز والصبية ؟

– ولا ازال اراهما الى الان فانهما ممثلتان لي .

– هل انت واثق انهما لم يذهبا الى ذلك المنزل لمجرد الغاية التي يدل عليها الكتاب ؟

– هذا ما ارجحه .

– وانا اؤكد انهما شريكتان بالجريمة ، وانما اقول جريمـة لاني رأيت رجلين خرجا بك من ذلك المنزل تتبعهما المرأتان فالقياك في الطريق حيث وجدتك . اتذكر شيئاً من ذلك ؟

– كلا

– اذن فاسمع ، انه حين سأل احد هذين الرجلين رفيقه اذا كان يجب قتلك اجابه الآخر ، لا حاجة الى ذلك فقـد امضى وذلك يدل دلالة صريحة انك امضيت صكا أو غير ذلك .

– لا أظن ، فاني لا أذكر شيئاً من هذا .

لا فائدة اذن من البحث في هذا الموضوع فستظهر نتيجة هذا التوقيع وستحول بينك وبين هنائك .

– كيف ذلك .

– ذلك أني لا أعرف لك غير عدوين، أحدهما عمك الكونت دي مورلاي والثاني الدوق دي فيلان ، وهما فقط يحتاجـان الى استكتاباتك كتابة تشينك او تضييع حقك .

– اتظن ان احدهما قد نصب لي هذا الفخ ؟

– بل اني واثق كل الوثوق .

فلم يجب رينالد ولكنه انتهى بمشاركة ريكمبرج باقتناعه وقد بانت عليه علائم الكآبة ، فاشفق عليه ريكمبوج وقال له :

ولكن ذلك لا يمنعنا عن الاهتمام باعمالنا .

– اي اعمال تعني ؟

– لعلك نسيت بأنك تسعى لمقابلة الملك .

– كلا ، وكيف انسى .

وانا ايضاً لم انس فانك حين اخبرتني اليوم انك تريد الخروج وحدك ذهبت فقابلت الكونت لورجيري .

– ارأيته ؟

– وأقمت ساعة معه .

– أأخبرته بزواج ابنة اخته بالدوق ؟

– كان عالماً بهذا الزواج قبل ان أخبره .

– ماذا قال لك بهذا الشأن ؟

– انه منذهل لما اتفق ، فان مرغريت كتبت اليه ان ينتظرها في باريس مع انها كانت في تورين .

– وهذا الامر نفسه اشكل على مرغريت ايضاً .

– لا بد لهذا الابهام ان ينجلي لنا ولنعد الآن الى ما يفيدك وهو مقابلة الملك .

– لقد اصبت ايها الصديق فأرجو المعذرة .

– وانا اعذرك يا سيدي المركيز .

– الا تزال تدعوني سيدي المركيز .

– ماذا تريد أن ادعوك ؟

– رينالد .

– اتريد ؟

– دون شك ، الم نرتبط من الوداد بأمتن وثاق الم تنصرف الى ادارة شؤوني بينما انا ارتكب الهفوة اثر الهفوة ؟

– حسناً فاعلم اذن أيها الصديق رينالد ان الملك قد عاد هذه الليلة من سانت جرمين حيث كان يصطاد مدة ثلاثة ايام .

– اذن سأكتب توآ الى جلالته .

– لا حاجة الى ذلك ايها الصديق فان الكونت لورجيري اراد مكافأتي فتعهد ان يمهد سبيل مقابلتك مع الملك .

– متى ؟

– انه سيبدأ بهذا السعي منذ الغد فانه صديق قائد الحرس وهذا القائد من اقرب المقربين .

– لقد عرفت ذلـــك .

– اما نحن فسنذهب الى اللوفر في الساعة العاشرة من صباح غد فنقابل الكونت ويعرفنا بالمسيو دي تريفيل قائد الحراس وهو يقدمك الى الملك .

– اني اشكرك ايها الصديق من صميم قلبي .

– وانا يسرني ان يسرك هذا النبأ ، فاسترح الان بالرقاد .

وكان الليل قد انتصف ، فذهب ريكمبرج الى مضجعه

بعد ان اوصى الخادم بالسهر على سيده .

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي عاد الى المركيز وذهبا معاً الى اللوفر .

وهناك لقيا الكونت لورجيري فقال لهما ، هلما معي فتبعاه الى غرفة دي تريفيل قائد الحراس ، وهي غرفة كائنة عند مدخل غرف الملك .

وكان الملك في ذلك العهد شديد التعب من كثرة التفاف النبلاء حوله ، فان الكردينال ريشيليه كان مريضاً وقد برح به الداء حتى كانوا يتوقعون موته من حين الى حين ، فاعتزله رجال البلاط وانصرفوا الى التقرب من الملك والتزلف اليه .

اما دي تريفيل فانه احسن استقبال الكونت لورجيري ، فقدم له الكونت ريكمبرج والمركيز .

فقال قائـــد الحرس وقد مد يده الى المركيز ، ان المركيز يوصي بنفسه فقد صافحت يدي يد المرحوم ابيه وارجو ان القى من صداقة الابن ما لقيته من صداقة الاب .

واما الكولونيل ريكمبرج فقد عرفناه من زمن بعيد ورأينا أعماله المدهشة ولو كان من الذين يحبون التقرب لنال من انعام الملك فوق ما يستحق ، ولكن الملك لا ينساه حين الحاجة اليه .

فأجابه ريكمبرج ، لو كان جميع الذين يجب التقرب اليهم يشبهونك لما فارقت غرفتك .

فقال لهم دي تريفيل ، انتظروني هنيهة فاني عائد اليكم .

ثم تركهم ودخل الى قاعات الملك .

وقد كان سرور رينالد عظيماً لما لقيه من حسن استقبال رئيس الحرس لاسيما وانه اجال نظره في الردهة الملكية فوجد عمه الكونت دي مورلاي مختلطاً بين الاشراف فسر لما كان يرجوه من الانتصار أمامه .

ولم يكن يخشى الا ان يأبى الملك مقابلته فيفشل فشلاً عظيما امــام عمه .

وبعد هنيهة عاد رئيس الحرس وأشار الى المركيز ان يتبعه وسار به الى الملك .

فلما مثل رينالد بحضرة الملك ركع امام جلالته فاشار الملك اليه ان ينهض وامره بالكلام .

فبسط له رينالد عند ذلك حكايته مع عمه بالتفصيل حتى اذا اتم حكايته قال له المــلك :

اني لا اشك بشيء مما تقول ولكن لا بد لي من ان ارى الكونت دي مورلاي قبل البت في هذا الشأن .

فقال له رينالد ان عمي يا مولاي مقيم الان في الردهة الــكبرى .

فقرع الملك جرساً امامه وامر الحاجب الذي دخل عليه ان يأتيه بالكونت دي مورلاي .

وبعد هنيهة دخل الكونت دي مورلاي مبتسماً وعليه ظواهر السكينة فنظر الى ابن اخيه نظرة احتقار .

الفصل السادس

ما امضاه رينــالد

وقد استقبل الملك الكونت دي مورلاي ببرود وقال له ، أن المركيز دي كولدراي الواقف الآن بحضرتنا يتهمك يا كونت انك استبديت بثروة ابيه ولم ترجعها اليه، فماذا تقول؟

فقال الكونت ، اظن يا مولاي انه لا حاجة الى ازعاج مسامع جلالتكم بالجواب عن هذه القضية بعد ان صدر فيها حكم البرلمــان في تورين ؟

— بل يجب ان تجيب حين أكون أنا السائل ولا أخالــك تنسى ان الملك فوق البرلمــان .

إن جلالتكم يا مولاي لم تدعوا اليّ وقتاً لاتمام حديثي فاني اشد الناس خضوعاً لاوامر مولاي فاذا اذن لي مولاي اظهرت لجلالته برهاناً جلياً على سوء قصد المركيز .

فتحرك المركيز حركة عنيفة فطمأنه الملك باشارة وقــال للكونت ، ما هو هذا البرهان ؟

— هو يا مولاي ان المركيز قد تنازل تنازلاً صريحاً عن هذه الثروة التي يطالب بها الآن .

– الديك هذا البرهان ؟
– نعـــم يا مـــولاي .
– اهو معك الان ؟
– كلا فاني لم اتوقع حين قدومي الى اللوفر ان اعرض لمثل هذه الشكوى الدالة على جرأة لاحد لها .
– ولكنك مستعد لتقديم هـذا البرهان ؟
– حين يصدر اليّ أمر مولاي الملك .
– اذن جئتني به غداً في مثل هذه الساعة .
فبهت المركيز لما رآه من سكينة الكونت ، وقال للملك :
وانا التمس يا مولاي ان أطلع على هـذا البرهان كي اثبت لجلالتكم انه مزور فاني لم اكتب حرفاً بهذا الشأن .
فقال له الملك ، دون شك اذ يجب ان تحضر معه غداً في الساعـــة المعينـــة .
وعند ذلك اشار اليهما بالأنصراف فخرج الكونت هادئاً مطمئناً وخرج المركيز في أثره وقد بدت عليه علائم القلق .
حتى اذا خلا بريكمبرج اخبره بكل ما جرى عند الملك .
فقطب ريكمبرج حاجبيه وقال ، لا شك ان هذه المرأة الحسناء كانت شريكة عمك بالجريمة ، وان هذه الورقة التي امضيتها كانت ورقة تنازلك عن ثروتك وهي الورقة التي سيعرضها عمك غداً على الملك .
– تباً له من شقي سافل .
– لا تأسف لذلك ايها الصديق فان توقيعك على التنازل

انقذك من الموت . .
والان فدع الغضب واليأس ولنبحث عن هذه الورقة فاجهد ذاكرتك عساك تذكر أمراً .
قال نعم نعم أني اذكر .
وخرج ألاثنان من اللوفر حتى اذا ابتعدا عنه قال له ، نعم اذكر ان هذه المرأة لم تكن تشرب غير الماء وهي تسقيني الخمر فلما فرغت الزجاجة الاولى فتحت الثانية وكانت كل ما فرغ كأسي أملته وأكرهتني على شربه حتى اذا شعرت بالدوار افرغت لي كأساً وقالت لي، الا تشرب هذا الكأس على نخبي . .
وقد شعرت عند ذلك ان قواي قد وهت وحاولت ان انهض فاجلستني على الكرسي بالرغم عني .
ومنذ تلك الساعة اختلطت افكاري ولكن يخال لي الان اني اذكر ما لم اذكر امس وهو انها انحنت علي فطوقتني بذراعيها وقالت لي اتحبني ؟
فاجبتها نـــعم .
– وهل تعدني بالكتمان وان الغرور لا يدفعك الى المباهاة امام اصحابك بأنك كنت عندي .
– اعـــدك .
– ولكنك تقول لي هذا القول بملء البرود .
– اني اقسم لك على الكتمان .
وكنت اشعر وأنا أقول هذا القول أن لساني يتلجلج وان عيني تطبقان بالرغم عما كنت ابذله من الجهد .

فقالت لي ولكن جميع العشاق يقسمون هذه اليمين .

– ولكنك لا تعرفين المركيز دي كولدراي فانه لا يحنث بـأقسامه .

– لقد صدقت بل سأصدق قولك اذا كنت تمتثل لما سأطلبه منك .

–قولي ، ماذا تطلبين ؟

– اريد ان تتعهد لي هذا التعهد كتابة .

فضحكت وقلت لها ، ما هذا التعهد الغريب ولكني ارضى بـه اذا كان يرضيك .

فقامت الى درج فاخرجت منـه أدوات الكتابة .

ولم أكن استطيع أن اقرأ واكتب لفرط سكري ولكنها وضعت القلم بيدي ودلتني على مكان في الورقة وهي تقول ، اكتب اسمك .

وقد اعتقدت عند ذلك أن هذا الصك تعهد غرام فأمضيت الورقة وأنا لا اعلم ما أفعل ثم انطرحت على الارض لا اعي لفرط سكري .

والان فانني لا اعلم اذا كان الامر قد جرى كما وصفته لك أو كان ذلك حلما تمثل لي فانني أشعر بغمامة كثيفة تجول بين ذاكرتي وبين تلك الحادثة .

فقال له ريكمبرج ، كلا فليس ذلك بحلم بل هي الحقيقة رويتها كما اتفقت .

– ولكن يوجد طريقة سهلة تمكننا من الوقوف على الحقيقة

وهي الذهاب الى هـذه المرأة .

ـ اين ، افي شارع كالاندر ؟

ـ دون شك .

ـ أتحسب انها لا تزال في ذلك الشارع ؟

ـ وأنت ، اتحسب انها برحته ؟

ـ دون شك

ـ لنبحث ولا خسارة من ذلك لا سيما وأننا على قيد خطوتين من المنزل فوافقه ريكمبرج على ما أراد وهو يبسم ابتسام الواثق من صحة رأيه حتى وصلا اليه وطرقا بابه فلم يفتح لهما .

وقد طال طرقهما الباب حتى جاءهما فران مجاور للمنزل لهما ، ان هذا المنزل لا يسكنه أحد وهو مهجور .

ـ العله مهجور من زمن بعيد ؟

ـ منذ ثلاثة اشهر اي منذ موت الصيدلي الذي كان يقيم فيه

ـ وهذا البيت أهو للصيدلي ؟

ـ كلا ، بل هو لبقال يقيم في شارع اللوفر .

ـ ماذا يدعى ؟

ـ مسيو فردريت .

فشكره ريكمبرج وذهب مع رينالد الى ذلك البقال فقال له ، انك اجرت منزلك امس فأرجوك ان تخبرني لمن اجرته ؟

فاستاء البقال لهذا السؤال وقال له الست حراً بتأجير منزلي لمن أريد فما هذا السؤال ؟

فقطب ريكمبرج حاجبيه وقال له بلهجة المتوعد ، انك اذا أجبتني على هذا السؤال أكفيك مؤونة الجواب لدى رئيس البولـــيس .

فخاف البقال حين سمع اسم البوليس وقال ، اي شأن للبوليس معي ؟

ـ شأنه معك أنه حدث امس جريمة في منزلك ، فاذا ابيت ان تخبرني باسم الذي استأجر منزلك ذهبت الان الى رئيس البوليس وأخبرته بما حدث .

فاضطرب البقال وقال ، نعم وقد جاءني رجل أول امس وسألني أن أؤجره منزلي لمدة اربع وعشرين ساعة .

فقلت له ليس ذلك من الأمور المألوفة فقال لي اني استأجر منزلك بالساعة بدلاً من استئجاره بالعام فاذا أعطتني مفتاحه الان دفعت لك دينارين عن كل ساعة .

فدهشت لسخائه وقلت له ، من انت ؟

قال ذلك لا يعنيك ، فاما ان تقبل او ترفض .

فلم أجد بدأ من القبول حين رأيت اني سأقبض أجرة المنزل عن يوم قدر ما كنت أقبضه عن عام فقبضت المال واعطيته المفتاح

فقال له ريكمبرج ، أريد منك ان تذكر لي صفات هذا الرجـــل.

ـ انه طويل القامة براق العنين رقيق الشفتين اقني الانف وهو يبتسم على الدوام .

فارتعش رينالد وهمس في اذن ريكمبرج قائلاً :

ـ انه برجريت خادم عمي ، الم تعرفه ؟

فقال ريكمبرج للبقال ، اهذا كل ما تعرفه من امر هذا الرجل

ـ نعم .

الم تره بعد ذلك ؟

ـ كلا فقد ارسل لي في صباح اليوم الثاني مفتاح المنزل مع رجل من اتبـــاعه .

فتركه ريكمبرج ورينالد وذهبا الى الفندق وهما كئيبان اذ لم يبق شك لديهما ان صاحب هذه الفعلة المنكرة كان الكونت دي مورلاي .

وقد هاج رينالد هياج المجانين وخطر له ان يذهب الى عمه فيكرهه والخنجر بيده على ارجاع الورقة ولكنه وجد ذلك محالا

وخطر لريكمبرج ان يتحرش بالكونت دي مورلاي فيبارزه ويقتله ولكنه كان مشككاً بقبول الكونت هذه المبارزة

وقد اكلا دون ان يعلما ما يأكلان فان همهما كان شديداً اذ لم يكن لهما وقت وجيز لمقاومة الخطر فان الكونت اذا تمكن من تقديم صك التنازل ضاع حق رينالد وسقطت منزلته في عين الملك ومن اين للملك ان يعلم حقيقة الخدعة ؟

وقد افترقا بعد طعام الغداء ودخل كل منهما الى مخدعه يفتكر بطريقة ازاله هذا الخطر ، فخطر لريكمبرج انه يجب على رينالد ان يخبر الملك بجميع ما اتفق له في تلك الليلة وكيف

انهم اسكروه وأكرهوه على التوقيع فقد تتبين للملك الحقيقة وقد يفحص ذلك التوقيع نفسه فيجد فيه اضطراباً دون شك فان يد السكران ترتعش عند الكتابة فيختلف الخط .

وقد تجسم لديه هذا الخاطر وخرج من غرفته سائراً الى غرفة المركيز كي يعرضه عليه ويقنعه على وجوب الاباحة للملك

فلما خرج من الغرفة الى الرواق سمع صوت صاحب الفندق يقول ، من هنا يا سيدتي .

فخطر لريكمبرج ان هذه الزيارة النسائية فخ جديد نصب لصديقه فوقف مصغيا .

ثم رأى صاحب الفندق قادماً اليه يتبعه امرأتان وكلتاهما متشحتان برداء طويل ومتبرقعتان ببرقع كثيف يحجب وجهيهما .

وكان يظهر انهما خادمة ومخدومة فكانت المخدومة تصعد السلم متوكأة على كتف الخادمة .

حتى اذا وصلتا الى الرواق قال لهما صاحب الفندق ، هوذا الكولونيل ريكمبرج الذي تبحثان عنه .

فنظر ريكمبرج الى المرأتين نظرة مفادها انكما لا تبلغان مني مابلغتماه من المركيز .

اما المرأتان فأنهما تقدمتا منه وقالت له احداهما ، أأنت هو يا سيدي الكولونيل ريكمبرج ؟

قال ، نعم انا هو .

ـ انك صديق المركيز دي كولدراي اليس كذلك ؟

ـ دون شك وقد تحالفت معه على الموت والحياة .

ـ اظنه لا يزال فتى مندفعاً مع تيار الغرور .

ـ ولكنه مخلص باسل يا سيدتي .

ـ لا ريب عندي في ذلك ولكنك يا سيدي رجل مجرب كما علمت ولذلك رأيت ان يكون حديثي معك .

ـ ماذا تأمرين يا سيدتي ؟

ـ لدي رسالة عهد الى اياها وهي للمركيز .

فمد ريكمبرج يده كي يأخذ الرسالة فقالت له ، ولكني لا اعطيك اياها الا بشرطين .

ـ تفضلي بذكر شرطيك يا سيدتي .

ـ انكما ستذهبان غداً الى اللوفر ؟

ـ نعم

اذن عدني انك لا تخبر المركيز بهذه الزيارة قبل غد وان لا تفتح هذه الرسالة قبل ان تدخل الى اللوفر .

ـ اني اعدك بذلك .

ـ اتقسم بشرفك ؟

ـ اقسم

فاعطته الرسالة وحاولت الانصراف ، فاراد ريكمبرج ان ان يقدم لها ذراعه كي تتوكأ عليه وقال ، ارى انك تعرجين يا سيدتي .

ـ نعم فاني عثرت حين صعودي السلم وسقطت على ركبتي ولكن ذلك عرض يزول قريباً ،فاشكرك يا سيدي الكولونيل

ثم استندت الى رفيقتها وذهبت واياها ، فانار لهما الطريق حتى خرجتا من الفندق .

وعاد الى غرفته فجعل ينظر في غلاف الرسالة فلا يجد عليها ما يدل على مرسلها .

ولكنه كان واثقاً ان السيدة التي اعطته اياها كانت من اهل الحشمة والتربية الراقية كما يبدو عليه ادب حديثها .

وقد هاج فضوله حتى انه هم بفتح الرسالة ولكنه حك اذنه وقال ، اني اقسمت بالشرف ولا سبيل الى فتحها قبل الوصول الى اللوفر .

ولكني امس كنت اهزأ برينالد لانهم احتالوا عليه وحلفوه بالشرف على الكتمان وها انا اخطىء خطأه الان .

غير أني لا أجد سبيلاً ألى الحنث باليمين وكان يجب أن لا أحلف .

وكأنه خشي أن يدفعه الفضول الى فض الرسالة فوضعها في خزانة واقفل عليها وخرج من غرفته فذهب الى القاعة العمومية فوجد رينالد فيها .

وكان رينالد مشرق الوجه تظهر عليه علائم السرور فدهش ريكمبرج لارتياحه وقال له، ماذا جرى ؟

فابتسم رينالد وقال له ، لقد رأيتها ؟

— من هي ؟

— مرغريت .

فاستاء ريكمبرج لما رآه من خفة صديقه وقال له اني لا

أنكر تأثير الغرام على القلوب ولكن يجب ان تفكر بالغد فان مستقبلك موقوف عليه .

فاطرق رينالد بعينيه وقال في نفسه ، ان السكينة واجبة في مثل هذه الاحوال ولكن اين لي بها وقلبي يرقص بين جنبي لذكر مرغريت .

غير انه لم يجد بدأ من موافقة ريكمبرج بالظاهر فلم يحدثه بكلمة عن مرغريت .

وفي صباح اليوم التالي ذهب الاثنان الى اللوفر فلما دخلا اليه اخرج ريكمبرج الرسالة من جيبه ففض ختمها وقرأها .

فذهل المركيز وسأله عن هذه الرسالة .

فقال له انها مرسلة اليك ، ولكن مرسلها خشي ان تسيء استعمالها فطلب الي أن اقرأها حين دخولي الى اللوفر .

— كيف اتفق ذلك ؟

— لا اعلم وسأخبرك كيف وصلت لي هذه الرسالة اما الان فخذها واقرأ فانها خطيرة فيما اظن .

ثم دفعها اليه فأخذها المركيز وقرأ ما يأتي :

« انا الموقع ادناه المركيز رينالد دي كولدراي اعترف اني قد تنازلت بهذا الصك عن كل ما املكه من ارض وعقار وعن كل ما خلفه ابي واقرانه بات ملكاً لعمي الكونت دي مورلاي

باريس في ٢٢ ستمبر سنة ١٦٤٢

رينالد دي كولدراي

فلما علم الاثنان ما فيها ايقنا انها نفس الصك الذي كتبه

المركيز وهو سكران ولم يصدقا ما رأياه فأخذ ريكمبرج الرسالة من يد رينالد كأنه يريد ان يتأكد انه غير حالم ثم قال له ، الم اقل لك انك امضيت ورقة في تلك الليلة ؟

فقال له المركيز ، ولكن من اعطاك هذا الصك ؟

– ليس ذلك بالأمر الهام ،فهلم بنا نر وجه عمك ، فسيكون حزنه مضحكاً وفشله عظيما امام الملك .

وصعد الاثنان الى قاعة الملك فأقاما في الردهة ينتظران الامر وكان الكونت دي مورلاي ينتظر أيضاً ولكنه لم يكن على ما كان عليه امس من القحة .

وبعد هنيهة صدر أمر الملك بالدخول ، فدخل المركيز وعمه وبقي ريكمبرج واقفاً عند الباب .

فالتفت الملك الى الكونت دي مورلاي وقال له ، هل جئتني بالبرهان يا كونت ؟

قال ، كلا يا مولاي فان ابن أخي حين علم أني سأظهر لجلالتكم هذا البرهان الناصع سرق الصك مني او دعا سواه الى سرقتـــه .

فقال المركيز بلهجة تبين فيها الغضب ، التمس من مولاي الملك أن يأذن لي برواية حكاية لجلالته .

قال قل ، فأني مصغ اليك .

فروى له المركيز عند ذلك كل ما اتفق له في شارع كالاندر واخبره كيف علم أن المنزل قد أستأجره برجريت خادم الكونت فقطب الملك حاجبيه ونظر الى الكونت فقال له بجفاء ،

أحق ما يقوله أبن أخيك يا كونت ؟

قال اذا كان مولاي يتنازل الى سماع كل ما يقوله ابن اخي من النمائم . .

– أتعتبر ما قاله نميمة ؟

– نعم يا مولاي .

– أتقسم على ذلك بشرفك ؟

فبسط الكونت يده يحاول القسم .

وعند ذلك تقدم ريكمبرج من الملك وقال له ، اني واثق يا مولاي من أن الكونت يقسم هذه اليمين الكاذبة ولكني اصونه من هذا العار ، فاعلم يا مولاي ان المركيز صادق في كل ما قاله فاني لم افارق عنه لحظة الا في تلك الساعة التي ذهب فيها الى ذلك الموعد ولكني تبعته بعد ساعة .

فقال الكونت ، ان هذا الرجل كاذب يا مولاي .

وهز ريكمبرج كتفيه فقال الملك ، من أنت ؟

قال ، الكولونيل ريكمبرج وقد اخبر المسيو دي تريفيل اجلالتكم بأمري .

– الست أنت الذي كنت تقود تلك الفرقة المتطوعة في الحرب الاخيرة ؟

– نعم يا مولاي.

– اذن اني أعرفك حق العرفان فامض في حديثك .

– أنا يا مولاى الذي حمل المركيز من ذلك المنزل وانا حسبه جثة من غير روح ، وانا الذي سمعت ما كان يقوله

أعوان الكونت دي مورلاي ، وانا الذي أرسل الي ذلك التعهد الذي اكرهوه على كتابته ، فليتفضل مولاي بفحصه .

فأخذ الملك التعهد وجعل ينظر فيه .

فقال رينالد ، استلفت انظار مولاي الى امرين ، أحدهما ان هذا التعهد ليس فيه من خطي غير التوقيع ، وان التوقيع نفسه مضطرب يدل اوضح الدلالة على اضطراب يدي حين الكتابة .

فتمعن الملك هنيهة ثم قال للكونت بماذا تجيب ؟

قال ، أجيب يا مولاي ان هذه الحكاية ملفقة وان الرجلين متفقان على خديعة جلالتكم .

فظهر التردد هنيهة على الملك ثم امر المركيز ان يدنو منه وقال له ، خذ ورقة واكتب عليها توقيعك كما توقع عادة .

فدنا المركيز من المائدة التي أشار اليها الملك وكتب اسمه على ورقة خمس مرات .

فقال له الملك ، كفى فهات الورقة .

ثم اخذها وجعل يقابل بين توقيعه عليها وتوقيه على التعهد فقال ، لقد ظهر جلياً ان هذين التوقيعين لم تخطهما يد واحدة .

وقد وقف واصفر وجهه فقال للكونت ، خذ وانظر الا ترى ما أراه ؟

فانحنى الكونت وقال ، أرى أن عدوي قد أثر على مولاي قال دون شك وذلك لحسن حظه ، ثم مد يده الى الباب وأمر الكونت بالخروج .

فخرج الكونت يتعثر باذيال الخيبة وهو يكاد يتميز من القهر

اما الملك فانه التفت الى المركيز وقال له ، اطمئن واذهب الان في شأنك يا مركيز وأنا ذاهب الى الكردينال لاطلعه على ما جرى وأعطيه هذه الاوراق كي يجري العدل في مجراه .

فخرج رينالد وهو يكاد يطير سروراً حتى اذا برح القاعة الملكية قال لريكمبرج ، لم يبق علي الان الا ان افكر بمرغريت .

فقال له ريكمبرج ، صبراً ايها الصديق فان ثروتك لم ترد اليك بعد .

— كيف تقول ذلك ، ألم تسمع ما قاله الملك ؟

— ان الملك طاهر النية شديد العدل ولكن . .

— ولكن ماذا ؟

— ولكنه ليس بالملك .

اذن من هو الملك ؟

فقال له بصوت منخفض ، ان الملك الحقيقي ايها الصديق هو الكردينال وانت قلت أن عمك من اصدقائه وأن أباك من أعدائه .

— لقد أصبت فقد كان من ألد خصومه .

— اذن يجب أن نهتم بمقابلة الكردينال وسنشتغل بهذه المهمة منذ الغد .

— نعم أما اليوم فدعني اهتم بغرامي .

— اذهب حيث تشاء فسأشتغل عنك ولكن احذر الطيش فان عدوك شديد .

فوعده المركيز ان ينهج مناهج الحكمة وافترق عنه .

وكان قد رأى امس دوقة دي فيلان سائرة في مركبة فتبع هذه المركبة حتى رآها وقفت عند باب قصر كبير في شارع رصيف سانت بول .

فلما افترق عن صديقه بيكمبرج ذهب تواً الى ذلك الشارع .

الفصل السابع

هرمين دي مورلاي

كان الكونت دي مورلاي في خلال ذلك قد ذهب واليأس ملء قلبه الى منزله فقد كان له قصر شاهق في باريس .

وكان هذا القصر في الشارع نفسه الذي تركنا المركيز رينالد ذاهبا اليـه .

وهذا القصر كان مجاوراً بل ملاصقاً لقصر الدوق دي فيلان وانما نبسط هذا التفصيل لشدة علاقته بحوادث هذه الرواية .

ونزيد على ذلك ان المركيز لم يكن يعرف مكان عمه ولا يريد ان يعرفه وهو يعلم انه اشتراه بماله المسروق .

اما الكونت دي مورلاي فقد كان اشتراه في اوائل سنة ١٦٣٣ حين مات اخوه واستبد بمالـه وعزم على مبارحة تورس والاقامة في باريس .

وكان يعرف كثيراً من الناس في العاصمة فلما جاء اليها انتظم في سلك رجال البلاط والناس في ذلك العهد حزبان حزب الملك وحزب الكاردينال فتردد بضعة ايام ثم انضم الى حزب القوة اي حزب الكاردينال ريشيليه .

وذلك ان قوة الكردينال كانت ماثلة للعيون وكان بطشه يلقي الرعب في القلوب فانه كان يفتك بالنبلاء الفتك الذريع ويعامل من يتحزب عليـه منهم دون رحمة واشفاق

فاسرع الكونت وعرض خدمتـه على الكردينـال فلم يرفضها لانـه كان محتاجاً في ذلك الحين الى اعوان اشداء اذكياء يفهمون مقاصده ويخدمونه باخلاص .

وكانت الافكار ثائرة على الكردينال في اللورين والكونت منها فعهد اليه بمراقبة اهلها فكان اعظم جاسوس في تلك الولاية

ولم يطل به العهد حتى عرفه اهل اللورين فمقتوه المقت الشديد ولكنهم كانوا يخافونه وهذا كل ما كان يريده .

على أنه لم يغنم غنما يذكر من الجاسوسية ، فان الكردينال ريشيليه كان يحتقر جواسيسه ولا ينعم عليهم بشيء ، ولكنه اذن للكونت أن يقابله حين يشاء فاكتفى الكونت دي مورلاي بذلك وعد نفسه من العظماء .

ولنرجع الآن الى هذا الكونت في عهد صباه فقد كان تزوج قبل موت أخيه ابنة رجل فقير اعجبه جمالها .

فلما أدرك بغيته من جمالها ندم لهذا الزواج ولكن ندمه لم يطل فان تلك الزوجة ماتت بعد عام وقد ولدت له بنتاً دعاها

هرمين .

ففي اليوم التالي لدفن امرأته عهد ببنته الى احد المزارعين وبرح القرية التي كان فيها فعاد الى تورس حيث كان يقيم أخوه.

وتوالت الايام وتعاقبت السنون والفتاة تشب وتنمو ويتناسب جمالها الى أن سقطت وهي في العاشرة من عمرها ، عن الجواد فجاؤوا بها الى المنزل وهي دامية العين مكسورة الساق.

فلم يحضر لها ذلك المزارع طبيباً معروفاً بل احضر لها دجالاً من المشعوذين في الطب ، فشفيت بعد ثلاثة اشهر ولكنهـــا فقدت عينهـــا وباتت عـوراء .

أما ابوها الكونت فقد اهملها كل الاهمال ، حتى أنه لم يكن يسأل عنها ولا يأذن لاحد بان يحدثه بشأنها ، وعاش في تورس عيش النزق والغرور .

وقد كان اخوه عرفه بدي لوبرمون احد اعضاء مجلس النواب من اسرة عريقة بالنسب وله بنت وحيدة تدعى جورجيت

وكان عمر هـذه الفتاة ثمانية عشر عاماً حين عرفها الكونت ، وقد ماتت أمها وخلفت اربعمائة الف فرنك ، ذلك عدا ما ترثه من ابيها بعد موته .

فخطر للكونت دي مورلاي أن يتزوجها لمالها ثم هام بها وكان عمره في ذلك العهد ثلاثين عاماً .

فخطبها الى ابيها فرفضت الفتاة الاقتران به لانها كانت تحب اخاه ، وقد عرف الكونت ذلك كما تقدم في بدء هذه الرواية .

فلما جاء خادمه برجريت واخبره بموت اخيه ، ذهب تواً

الى منزل جورجيت واخبر أباها على مسمع منها بهذه الفاجعة ، وهو يعلم انه ينتقم منها شر انتقام بهذا النبأ الهائل جزاء رفضها الاقتران بـــه .

فسقطت الفتاة مغمياً عليها وعرف ابوها لفوره انها لم ترفض القران بالكونت الا لانها كانت تحب اخاه المركيز .

فالتفت الى الكونت وقال له ، انك شديد القسوة يا كونت، ثم حمل بنته ودخل بها الى غرفته .

اما الكونت فانه برح ذلك المنزل وهو يقول لقد تسرعت في الامر وبعد يومين عاد بحجة السؤال عن صحة الفتاة فأبى دي لوبرمون استقباله وابلغه انه مريض لا يستطيع مقابلته .

واما جورجيت فقد اصيبت بحمى بالدماغ وقضى عليها الاطباء بالموت أو بالجنون .

فتركها الكونت وشأنها وذهب الى اراضي اخيه فتفقدها واستوثق من المزارعين .

ولمـــا رجع الى تورس زار دي لوبرمون فاراه بنته جورجيت وقال له ، انظر ماذا فعلت .

فذعر الكونت لمنظرها ، فقد رآها مصفرة الوجه نحيلة الجسم تنظر نظرات تائهة لا تستقر على شيء لانها جنت واصبحت من غير عقل .

وقد كان يرجو ابوها أن يكون ذلك الجنون عرضاً زائلاً وانها حين تعود اليها العافية يعود معها العقل ، ولكنه خاب رجاؤه فان العافية عادت اليها دون العقل .

ولم تكن جورجيت تعرف احداً غير ابيها ، وكان يعود اليها الصواب احياناً فتذهب الى الحديقة وتذهب الى تلك الغرفة التي عاهدت فيها هنري على الزواج فتقيم بضع ساعات ، فلم تكن تفوه بكلمة ولكن هيئتها كانت تدل على انها تفكر تفكير العقلاء .

وقد جاءها ابوها مرة وهي على هذه الحال فدنا منها وأخذ يدها بين يديه وقال لها ، بماذا تفتكرين يا ابنتي ؟

فابتسمت وقالت ، ان هنري سيحضر وأنا انتظره .

ولما دخل الكونت عليها شعرت حين رأته بخوف عظيم بدا بين عينيها ولكنها لم تعرفه .

أما الاب فأنه رأى ما كان من خوف ابنته فحسب أن تردد الكونت الى منزله يعيد الصواب الى ابنته ، فجامله خير مجاملة وجعل الكونت يتردد الى المنزل وهو يرجو أيضاً ما كان يرجو الاب من شفاء الفتاة .

اما الفتاة فلبثت على ما كانت عليه .

وقد اتفق يوماً أنه جاء للزيارة حسب المعتاد فأخبره احد الخدم أن الفتاة مع ابيها في الحديقة فذهب الكونت اليها فلما رأته الفتاة وقفت منذعرة وقالت له :

. قايين ، ماذا فعلت باخيك ؟

فاصفر وجه الكونت ووهنت عزائمه ، واسرع دي لبرمون الى ابنته كي يهدأ ثائرها فانه لم يرها مرة على هذا الهياج ، ولبث الكونت مضطرباً لا يعلم ايذهب أم يبقى .

وقد تمكن الاب من ارجاع ابنته الى مجلسها ولكنه لم يستطع تسكين هياجها .

وأما جورجيت فانها حين رأت الكونت لا يزال واقفاً مدت اليه يدها وقالت ، قايين ، انك قتلت اخاك . . انك سفاك اثيم .

وقد كررت هذا القول وهاجت بعده هياجاً عظيما ، فخاف ابوها عاقبة هذا الهياج ودنا من الكونت فقال له ، ارجوك ان لا تقيم هنا لحظة .

فقال له الكونت ، كيف ذلك اتصدق هذه التهمة الهائلة ؟

قال اني لو كنت واثقاً منها لما دعوتك انا الى الابتعاد بل امرت الخدم ان يطردوك بالعصا .

- انك تنسى من تكلمه .

فابتسم الاب ابتسامة الحزن وقال ، اني لا اتهمك بشيء ولكني اؤثر أن احرم من التشرف بزيارتك على ان اعرض ابنتي لكوارث جديدة فقد كفانا ما لقيناه .

فرأى الكونت ان آماله قد ذهبت ادراج الرياح فقال له ، اذن انت تطردني ؟

كلا لا اطردك ولكني ارجوك باسم صداقتي القديمة مع اخيك وباسم صداقتي معك ان لا تعود الى زيارتي .

قال كفى ولن اعود بعد الان .

ثم تركه وانصرف مغضباً فسافر تواً الى باريس وكانت هذه خاتمة غرامه الثاني .

فاعتزل كل غرام وأنصرف الى تحقيق مطامعه السياسية وانتظم في سلك خدمة الكردينال كما تقدم .

ولم يكن عنده في منزله غير برجريت ، وكان قد اعطاه المال الذي طلبه حين اخبره بقتل اخيه ولم يسأله بعد ذلك كلمة عن هذا القتل ، ولكن وجود برجريت معه كان يقلقه ويذكره بالجناية فيدعوه الى الندم فذكر عند ذلك ان له بنتاً

وكان في كل سنة يسافر الى تورين فيتفقد اراضيه ويرى ابنته فلا يسمع عنها غير كلمات الثناء فجاء بها الى منزله في باريس .

ولم تكن هرمين قبيحة بل كانت جميلة ، ولولا ذهاب عينها وعرجها لكانت من خيار الجميلات ، ولكنها كانت تعتقد انها مشوهة وانها باتت قبيحة بعد هذا التشويه فكان الابتسام لا يفارق شفتيها ولكنه ابتسام قنوط .

ولم يكن عمرها حين جاء بها ابوها الى منزله غير خمسة عشر عاماً .

وكانوا قد اخبروها أن لها ابن عم يدعى رينالد وان اباها قد تولى ادارة ثروته الى ان يبلغ سن الرشد ولم تكن قد رأته غير مرة واحدة وقد فاجأته العاصفة فالتجأ الى المنزل الذي كانت فيه ثم لم تره بعد ذلك فذهلت ذهولاً عظيماً حين علمت ان اباها وابن عمها يتقاضيان في البرلمان ، لا سيما حين علمت ان رينالد قد خسر القضية وحكم عليه المجلس بالحرمان .

وكانت امها قد ماتت بعد ان ولدتها لم تتثقف غير أن تلك القروية التي تولت تربيتها غرست في نفسها خير قواعد الدين

فنشأت على حب الفضيلة والعدل .

ولذلك نفرت من ابيها حين علمت باستبداده واغتصابه ثروة ابن اخيه ولم تعد تحترمه احترام الابناء للآباء ولكنها كانت السيدة الآمرة في البيت وقد اكره برجريت على الامتثال لها .

ورأت هرمين أن لابيها ثقة عظيمة بوكيله برجريت فجعلت تستميله اليها بلطفها العادي حتى بات آلة بيدها لا يخالفها في شيء مما تريد وباتت تعلم كل ما يكتمه ابوها عنها وتسترق منه تلك الاسرار بمهارة غريبة ، فيروي لها كل ما تريد أن تعلمه دون ان يعلم بأنها تدفعه بحذقها الى الاعتراف .

وقد انتهى الامر ببرجريت أنه بات واحداً من اهل المنزل ، فاذا تكلم بلسان سيده قال نحن ، وكذلك الكونت مورلاي فان ثقته به زادت بعد موت اخيه وقدوم بنته فكان يستشيره في كل شأن من شؤونه .

فلما حكم البرلمان له بالثروة ورأى ان رينالد عازم على السفر الى باريس لعرض شكواه على الملك ، خاف العاقبة واستشار برجريت في الامر ، فخطر لبرجريت ان يزوج رينالد بهرمين ازالة للخلاف ، فاتفق على ذلك مع الكونت وذهب في البدء الى هرمين لاستشارتها والوثوق من موافقتها .

فأشرق وجه هرمين بنور البشر ثم افتكرت بما بينها وبين ابن عمها الجميل من التباين فقالت ، كلا ان ابن عمي لا يرضى بي زوجة .

فقال لها برجريت ، انك مخطئة يا سيدتي فاسمحي لي ان

احاول هذا الأمـــر .

قالت ، اذا كان ذلك منوطاً بي وحدي فاني امنعك عن محاولته كل المنع .

واما اذا كنت تعده وسيلة لارجاع تلك الثروة الى ابن عمي رضيت .

وكان قد اشيع انه قدم طبيب الماني يدعى موزو وهو يدعي أنه يستطيع ابدال العيون المفقودة بعيون من الزجاج .

وكان هذا الاكتشاف حديثاً في ذلك العهد حتى انهم كانوا يعدونه من العجائب وقد نفاه اطباء باريس وقالوا انه يورث العمى ، فكان ذلك الطبيب الالماني يطوف البلاد على نفقاته ويبذل ما يستطيعه من الجهد في سبيل تعميم اكتشافه دون جدوى

حتى وصل الى القرية التي كانت فيها هرمين واشتهر امره كما اشتهر الخوف منه حتى عول على الرحيل .

غير أن هرمين كانت قانطة فجاءت اليه وهو عازم على السفر وطلبت اليه ان يضع لها عيناً من الزجاج بدلاً من عينها المفقودة فقال لها الطبيب وكان شديد الحنق على أهل القرية ، انك لو كنت رجلا لطردتك ولكنك امرأة فاجلسي ويكفيني ان تكوني برهاناً يدل على بلاهة هؤلاء الناس .

وقد بالغ بالعناية في تركيب العين وجعل زجاجها من لون العين الطبيعية حتى لم تعد تفرق عن العين الطبيعية في شيء .

ففرحت هرمين فرحاً لا يوصف وكانت دهشة اهل القرية عظيمة بهذا النجاح الغريب .

ولما عاد بوجريت اليها استاءت استياء عظيماً حين علمت رفض ابن عمها وانه يأبى الزواج بها لأنها ابنة الكونت دي مورلاي وليس لأنها مشوهة .

وقد ذهب كل رجاء في سبيل التوفيق بين العم وابن اخيه ولكن هرمين كانت تبحث عن هذه القضية فلا يفوتها شيء من دقائقها .

ثم علمت من برجريت بقدوم ابن عمها الى باريس مع رجل يدعى الكولونيل ريكمبرج وعلمت منه أيضاً ذلك الفخ الذي نصب لابن عمها في منزل شارع كالاندر .

فلم تظهر لبرجريت شيئاً من استيائها بل تظاهرت بالرغبة في الوقوف على نتيجة هذه الخدعة وأطلعها برجريت على هذا الصك الذي يتنازل فيه رينالد عن ثروته كما تقدم .

ولما كانت عالمة أن اباها قد تعهد للملك بأن يطاعه على هذا الصك سألت برجريت عن نتيجة المقابلة فقال لها ، لقد خابت آمالنا يا سيدتي ورزئنا بالحرمان ولا شك انه يوجد خائن في المنزل فان الصك قد سرق منـــه .

فأظهرت الفتاة الدهشة وقالت ، ماذا تقول ؟

قال ، نعم يا سيدتي فان اباك الكونت اراد أخذ هذا الصك في صباح اليوم من الدرج الذي وضعه فيه فوجده مفقوداً ولا نعلم الى الآن كيف فقد .

— وماذا جرى به ؟

انه في حوزة ابن عمك المركيز وان رينالد لم يمزقه بل أطاع

الملك عليه وأخبره بجميع ما حدث في شارع كالاندر .

– وماذا قال جلالة المـــلك ؟

– اطلق سراح ابيك بملء الجفاء ووعد المركيز بأنه سيخبر الكردينال كي يجري العدل في مجراه .

– اذن ستعود هذه الثروة لابن عمي ؟

– انك تتسرعين يا سيدتي ، أتحسبين ان أباك يذل للصعاب ليسلم هذه الثروة بما تتصورينه من السهولة ؟

– هذا ما اتمناه فهل خطر له خاطر جديد ؟

– اننا لم نبحث بعد في هذا الشأن فان أباك لم يعد من اللوفر ألا منذ ساعة .

– اني واثقة من ذكائك يا برجريت ولا بد ان تجد بدهائك حيلة تفضل الحيلة الأولى .

– اطمئني يا سيدتي فسأفتكر وأرجو ان لا اعدم وسيلة أتمكن بها من استبقاء هذه الثروة ، فانها كل ما يطمع بـــه والدك في هـــذا الوجود .

وقد تركها وانصرف معجباً بنفسه لما سمعه من مديحها وهو يقول ، ما اسعدني لو كنت من اهل الالقاب فاني كنت اتزوجهـــا .

ثم تنهد تنهداً طويلاً ومضى .

وبعد هنيهة جاء الكونت الى ابنته كي يذهب وإياها الى المائدة وكانت تبدو عليه علائم الانشغال .

فقالت له ، ما لي أراك كئيباً يا أبي ؟

قال ، ليس ما ترينه بي كآبة يا ابنتي بل هو اليأس .

– مما القنوط ؟

– لقد سرق لي ورقة ذات شأن خطير .

– من الذي سرقهـــا ؟

– لو كنت أعلم السارق لقتلته في الحال .

فرعبت هرمين ورأى ابوها علائم رعبها فقال لها ما اصابك قالت لقد سمعت ذكر القتل يا أبي فخفت ثم ابتسمت وقالت ، انك تذكر القتل كما تذكر الامور العادية المألوفة .

وقد تقدم لنا القول ان الكونت اهمل ابنته في حداثتها كل الاهمال وانها علمت بجريمته فاحتقرته وانها ربيت على المبادىء الدينية فلم يكن يحلو لها غير العدل وتكره الجور حتى من أبيها ولذلك لم تكن تستطيع احترامه .

وكانت ترى ان الكونت لا يحبها حب حنان بل حب الفة وايقنت انه لا يميل اليها الا لما رآه من كمال عقلها وحسن ادارتها في تدبير المنزل فكان يتكلف الحنو تكلفاً حين يضطر الى معاملتها معاملة الآباء للابنـــاء .

وعلى الجملة فقد كانت منزلتها منزلة خادمة صادقة مدبرة .

وفوق ذلك فقد كانت الطباع الغريزية متنافرة بينهما كل التنافر حتى خطر له مراراً ان يرجعها الى القرية التي نشأت فيها ، فكان يثنيه عن ذلك ما يراه من تدبيرها واقتصادها المنزلي وصبرها على كل ما يبدو من قسوته وشره في حين انها كانت مثال الرقة والادب واللطف .

ولو كانت امها على قيد الحياة لكانت جعلتها من اشباه الملائكة ولكن شر أبيها عرس في نفسها الطاهرة بذور الشك والاحتقار .

فلم تكن تكره اباها ولكنها كانت تحتقر اعماله الشائنة وتحتقر نفسها لانتسابها اليه .

اما أبوها فقد أعمته مطامعه وشغله الاهتمام بنفسه عن معرفة فضائل بنته فلم يكن يشغله غير الاحتيال على ارضاء الكردينال ريشيليه اذ كان مصدر القوة الحقيقية في ذلك العهد ، فكان يستفيد من تقربه وتجسسه ويستعين برضى الكردينال عليه للانتقام من اعدائه ، ولا اسهل من الانتقام على الجواسيس .

وكان بين الاسماء التي عرضها على الكردينال اسماء عدوين له اتهمهما بالمؤامرة على ريشيليه وانهما من الد اعدائه وهما دي لوبرمون والد جورجيت وابن اخيه المركيز دي كولدراي .

ولم تكن مقاصد الكونت لتخفى عن مثل الكردينال ، فانه حين رأى مبالغة دي مورلاي بشكوى هذين الرجلين ايقن انهما من اعداء الكونت لا من اعدائه ، وان الكونت لا يريد بهذه الوشاية غير الانتقام ، فعهد الى جاسوس آخر السؤال عنهما دون ان يعلم الكونت ،فوردت اليه التقارير تفيد ان دي لوبرمون من اغنياء تورين ومن اعضاء برلمانها وان الكونت دي مورلاي لم يعاده الا بعد ان ابى تزويجه بابنته .

واما عن رينالد فقد دل التقرير ان هذا الفتى لا يشتغل بشيء من الامور السياسية وان عمه يكرهه ويريد التخلص منه

لانه يقاضيه كي يرد له الثروة التي اختلسها .

ولكن الكردينال لم يستطع أن ينسى عداء والد المركيز واتفاقه عليه مع المارشال مونمورانسي وانه مات في ساحة القتال وهو مشهر لواء العصيان وانه طالما تحزب على الكردينال وعقد المؤمرات لاذلاله .

ونعم ان ولده رينالد لم ينخرط في سلك السياسة ولكنه لا يزال في مقتبل الشباب ولا يبعد متى خمدت جذوة الصبى ان ينهج منهج أبيه ، فان الحية لا تلد الا الحية ، ولذلك كان الخوف منه اكثر من الرجاء به فمحى الكردينال اسم لوبرمون من قائمة الذين يريد اضطهادهم وابقى اسم المركيز رينالد .

وكان الكونت دي مورلاي يرى بوارق الحقد تتقد في عيني الكردينال كل ما ذكر اسم ابن أخيه فكان يكثر من ذكره كي يبقى هذا الحقد لاعتقاده ان ابن اخيه لا بد له ان يحضر الى باريس للمطالبة بحقه فيجد مثل هذا العدو الشديد الذي يخافه الملك نفسه .

وقد رأى القراء كيف ان ريكمبرج قد اصاب حين حذر رينالد وقال له ان الملك الحقيقي هو الكردينال وان وعد الملك وحده لا يرد له ثروته المفقودة .

غير ان رينالد لم يكترث لما سمعه لانشغاله بمرغريت فترك ريكمبرج وسار تواً الى شارع الرصيف ، فوقف قرب قصر

الدوق دي فيلان ينظر الى نوافذه وهـــو يرجو من حين الى حين ان تبدو لـــه مرغريت .

ولكنه خاب أملا فقد لبث واقفاً في موضعه الى المساء دون ان تفتح نافذة حتى اذا أقبل الليل رأى الباب قد فتح وخرج منه احد خدم الدوق راكضاً وقد ترك الباب مفتوحاً .

فنظر رينالد الى ما حواليه نظرة السارق وأسرع الى الدخول من ذلك الباب وهو لا يعلم ما يصنع .

الفصل الثامن

مكتب قصر دي فيلان

كانت الساعة قد بلغت الثامنة من المساء وكان الظلام سائداً في ذلك القصر .

وقد حضر رينالد اليه يدفعه جنون الغرام وهو لا يعلم كيف يصل الى مرغريت وهو لم يدخل الى هذا المنزل من قبل حتى انه لم يخطر له في بال ان وجوده في المنزل يشين تلك المرأة التي يعبدها وان جزأته لا يقدم عليها غير مجانين العشاق .

وقد دخل من الباب الى ردهة متسعة فيها كثير من الغرف على جانبيها وفي وسطها سلمان من الرخام يصعد بهما الى الدور الاعلى .

فوقف رينالد هنيهة متردداً لا يعلم كيف يسير وفي أي سلم من السلمين يصعد وايهما يؤدي الى غرف مرغريت .

وقد جمد الدم في عروقه حين صعد بالتصور أحد السلمين فبدلا من ان يجد الدوقة وجد الدوق .

وفيما هو حائر في أمره لا يعلم ما يصنع رأى خادمة تنزل على أحد السلمين وبيدها شمعة تستنير بها فأسرع رينالد الى الاختباء في احدى الغرف .

وعند ذلك رجع ذلك الخادم الذي رأيناه خارجاً من باب

القصر يركض فقال للخادمة ، هل استبطأتني الدوقة ؟

قالت كلا ، ولكنها تنتظرك .

فاسرع الخادم وصعد احد السلمين وانصرفت الخادمة في شأنها.

فقال رينالد في نفسه وقد سمع الحديث، لا شك ان مرغريت ارسلت هذا الخادم في شأن لهـــا وهذا السلم الذي صعده يؤدي الى غـــرفها .

فتردد هنيهة ثم صعد ذلك السلم حتى انتهى منه الى ردهة تشبه تلك الردهة التي رآها في الدور الاول فوقف كما وقف هناك حائراً متردداً اذ رأى اربعة ابواب ولم يعلم اي باب يجب ان يفتحه .

وكان الظلام مدلهما ، ففيما هو واقف رأى احد هذه الابواب قد فتح وانبعث منه نور ضعيف اضاء الردهة .

فاسرع رينالد الى الاختباء وراء عمود ورأى ذلك الخادم نفسه قد خرج من تلك الغرفة وهو يقول :

لتطمئن سيدتي الدوقة فسأقضي الامر كما تريد ثم نزل في السلم وتوارى عن الأنظار بعد ان اقفل باب تلك الغرفة

فخفق قلب رينالد خفوقاً شديداً وحاول ان يدنو من ذلك الباب ولكنه توقف فجأة وعاد الى الاختباء وراء العمود .

ذلك انه سمع صوت خادم آخر يصعد السلم الذي نزل عليه الخادم الاول فالتقيا فيه وقال الخادم لرفيقه .

العل سيدتي الدوقة في غرفتها ؟

قال نعم ، فاني خارج من عندها الآن .

قال حسناً فان سيدي الدوق ينتظرها وقد أرسلني اليها لاخبارها .

ثم تركه وصعد الى غرفة مرغريت فقرع بابها وفتحت له خادمة فقالت له ، ماذا تريد ؟

قال ، اني قادم من قبل سيدي الدوق وهو يرجو سيدتي الدوقة ان تذهب اليه في الحال وانا أنتظر الجواب فقد صدر الي الأمر بأن أنير طريق الدوقة .

فقالت له الخادمة ، ذلك يفيد انه يجب ان تذهب اليه في الحال . ثم قالت له بلهجة الهازىء .

— حسناً فاذهب وقل لسيدك الدوق ان سيدتي لم تتأهب بعد ومتى أرادت ان تذهب الى هذا الشيخ الظالم أنرت أنا طريقها وقد اقفلت الباب بوجهه فانصرف الخادم صاخباً لاعناً .

أما رينالد فقد حار في امره فان وجود الخادمة في غرفة الدوقة أقلقه وليس ذلك لأنه كان يخشى ان تخون سيدتها ولكنه كره ان يعلم الخدم ما بينهما .

فوقف وراء العمود يفكر في امره ولا يدري ماذا يصنع حتى رأى ذلك الباب قد فتح أيضاً وخرجت منه مرغريت تتقدمها الخادمة بصباحهـــا .

وقد رأى وجه مرغريت على نور ذلك المصباح فاذا هو أشد جمـــالا مما يعهده .

ولكن الكآبة كانت ظاهرة عليها ، فوقفت عند عتبة الباب ورفعت عينيها كأنها تستشهد الله على ما تعانيه ، ثم مشت في

أثر الخادمة ونزلت الى السلم.

وعند ذلك دخل رينالد الى غرفتها دون ان يتردد لوثوقه من خلوها.

وقد وقف على عتبة ذلك الباب حين رأى ملابس مرغريت متبعثرة في تلك الغرفة وهي تلك الملابس التي خلعتها حين ذهابها الى الدوق ، فدنا منها وشعر بحرارة جسمها لا تزال في تلك الثياب فركع وجعل يقلبها .

ورأى على مائدة فوقها مرآة عقدة من الحرير زرقاء اللون فأخذها أخذ السارق ووضعها في جيبه وحاول ان يسرق تذكارات أخرى ولكنه سمع صوتاً أيضاً فارتجف ولم يدر أين يختبيء.

ثم سمع صوت مرغريت وخادمتها ، فالتفت الى ماحواليه في تلك الغرفة فرأى باباًففتحه واسرع بالدخول منه واحكماقفاله اما مرغريت فانها دخلت مع خادمتها فذهبت الى تلك المائدة وقالت للخادمة ، أين وضعتها يا ماربيت ألعلك أخذتها ؟

– ما هي يا سيدتي ؟ – العقدة الزرقاء .

– كلا .

– ولكني واثقة من اني وضعتها على هذه المائدة .

أظن سيدتي مخطئة .

– كيف أكون مخطئة وأنا ما رجعت الا لأخذها فقد نسيت ان أضعها في صدري ، أنظري الا ترين محلها فارغاً ؟

– لقد أصبت يا سيدتي ، ولكن أين اختفت ؟

لا أدري سوى اني وضعتها بيدي على هذه المائدة .

وجعلت مرغريت وخادمتها تبحثان عن تلك العقدة فلم تجداها ، فطلبت مرغريت الى ماربيت ان تأتيها بغيرها ثم خرجت واياها من الغرفة وهي تقول ، ترى من دخل الى غرفتي؟

ولقد تقدم لنا القول ان الدوق كان شديد الغيرة على امرأته حتى انه نغص عيشه وعيشها .

وقد لاحظت مرغريت حين دخلت الى القاعة التي كان ينتظرها فيها انها نسيت عقدتها فاستأذنت زوجها بالذهاب لاحضارها فلما عادت قال لهـــا .

لقد قلت لي ان العقدة زرقاء .

قلت ، هو ذاك .

– ولكن التي تلبسينها الآن حمراء .

– لم أجد العقدة التي ذهبت للبحث عنها .

– ألم تقولي لي انك تركتها على المائدة ؟

– كنت أحسب أنها عليها فلم اجدها .

– لقد سرقوها .

فأجابته بلهجة دلت على نفاد الصبر قائلة ، لماذا يسرقونها وأية قيمة لها ؟

– لا قيمة لها عند اللصوص وأما ..

ولم يتم ما أراد قوله فنظرت اليه مرغريت محدقة وقالت ، وأما من ؟

واما الخادمة مثلاً .

– لا يدخل غرفتي غير خادمة واحدة وهي ماربيت .
اذن ماربيت أخذتها .

– ولكنها تعلم يقيناً انها اذا سألتني عقدة أعطيتها فهي لا تسرقني .

– ادن من يسرقها ، أتريدين ان اذهب فأبحث ؟

– اية فائدة من ذلك ، الا تليق بي هذه العقدة الحمراء ، واذا كنت وضعت العقدة المفقودة في خزانة من الخزائن أتعرف ان تبحث عنها كما ابحث أنا ؟

– لا أدعي ذلك ، ولكني قد أجدها .

فنفذ صبر مرغريت وقالت له اذن فاذهب وابحث فأنت السيد المطلق هنا وقد طالما كررت هذا القول حتى لم أعد أنساه ثم جلست وأدارت ظهرها لزوجها .

فتردد الدوق بين ان يذهب الى غرفة امرأته وبين ان يبقى ثم جعل يفحصها بنظراته فرأى انها ساكنة هادئة فعول على البقاء وقال لها ، كـــلا اني لن أذهب ولكن ذلك لا يمنعني عن استغراب سرقتها .

فضربت مرغريت الارض برجلها وقالت ، أعدت الى البحث فيها ؟

فقال لها ثقي اني لا أعود الى هذا الموضوع غير اني أرجوك ان تأذني لي بسؤالك عن السبب في عدم ذهابك الى النزهة اليوم مع انك ذهبت امس .

– اني لم أذهب اليوم لأنك أردت ان تصحبني واما أمس

فقد كنت وحدي أي اني كنت آمنة غيرتك .

– أتعجبين يا مرغريت اذا اردت ان اصحبك في نزهتك ؟ أيليق في هذا الزمن الذي نحن فيه ان تتنزه امرأة صبية وحدها في شوارع باريس ؟

– الا تكفيك هذه الخادمة التي عينتها لمرافقتي فتستريح ؟

– انها غير كافية لحمايتك .

– وممن تخاف علي ، أما اذا أردت ان أبقى أسيرة في هذا المنزل فقل لي صريحاً فاني لا أنكر عليك اني لا اتنزه بصحبتك فان غيرتك تنغص علي نزهتي

– أهكذا تقضين واجباتك الزوجية ؟

– لست امرأتك ولن أكون امرأتك ما زلت في قيد الحياة وأنت تعلم ذلك يقيناً فقد أنبأتك به قبل عقد الزواج ورضيت بشرطي .

– معاذ الله ان أرضى بمثل هذا الشرط الجائر .

– بل رضيت وانا اعجب لانكارك .

– لقد رضيت به موقتاً على رجاء ان تعلمي بأن ذلك محال

– بل هو كائن وتبعة هذا الخطأ عليك فأنت أردت ان تعيش وأعيش معك على هذا النكد ، فقد اغتنمت فرصة حاجة امي الى المال واستعنت بثروتك فأكرهتها اكراهاً على الرضى بهذا الزواج ، ولا أخالك تنكر اني كنت غير موافقة عليه حتى بلغنا باب الكنيسة ، اليس كذلك ؟

– نعم

وقد قلت لك ولا ازال اقول انك مهما بلغت من الحب والحنو فلا أحبك ولا أنسى انك أكرهتني على أن أكون زوجتك ولا أغفر لك هـذا العنف فانك أردت ان تهصر صباي هصراً دون رحمة واشفاق .

– ليكن ما تريدين ، ولكنك تحملين اسمي ويجب عليك المحافظة على شرفي .

– سيان حملت اسمك أو لم أحمله فاني أحافظ على شرف نفسي ولا احتاج الى معين في سبيل حفظه .

وقد حاول الدوق ان يجيب ولكن الخادم دخـل وأخبره ان العشاء قد أعد .

فنهض الدوق وقدم ذراعه لامرأته فسار وإياها الى المائدة وقد وضعت عليها صحون الطعام على أختلافه .

ولكن مرغريت كانت منقبضة الصدر حزينة النفس لا يروقها شيء من هذه الزخارف فقد مات ابوها وهي لا تزال طفلة وعاشت مع أمها في القصر الذي خلفه لها .

وكانت أمها لا تزال صبية حسناء فأبت ان تتزوج ولبثت أرملة تعيش من تلك الثروة الطائلة التي مات عنها زوجها البارون .

وعاشت مدة طويلة وهي خير مثال للأمهات بالاقتصاد وحسن التدبير الى ان ملت الوحدة لسوء طالعها وسرى اليهـا ذلك الداء الرهيب الذي كان داء الاغنياء في ذلك العهـد وهو القمار ، فانه كان كثير الشيوع في بيوت الاسرات النبيلة وقـد سرت اليها هذه العادة من بلاط لويس الثالث عشر ، وما زال

كبار القوم أساس كل مفسدة وشر .

وتاريخ جميع المقامرين واحد في كل عهد لا يختلف فانه لم يمض بمدام شامبفورت والدة مرغريت عشرة أعوام حتى بددت ثروتها وباتت مدينة ، ولم يبق لها غير مزرعة بجوار امبواز لا يزيد ايرادها على أربعة آلاف فرنك .

فذهبت مع ابنتها اليها وعمرها يومئذ سبعة عشر وهي لم تخسر مالها فقط بالقمار بل خسرت مال ابنتها أيضاً .

غير ان علاقتها رغم افلاسها بقيت حسنة مع جيرانها وبينهم الدوق دي فيلان وكان الدوق دي فيلان يبلغ من العمر خمسة وستين عاماً ولكنه كان لا يزال قوي البنية ، فقد صرف معظم عمره في الحروب فلم يكن له متسع من الوقت للزواج .

وقد رأى مرغريت فراقت في عينيه وأحبها لجمالها ولما كان يراه من رقة أخلاقها ، فانها كانت تنفق معظم أوقاتها على عمل الخير ومساعدة اهل البؤس والفاقة مستعينة على ذلك بامرأة كهلة تدعى البارونة دي ميراند حتى لم يبق فقير في تلك الجهات لا يعرفها .

ولم يكن احد من الفلاحين ينادي البارونة باسمها الحقيقي فكانوا يلقبونها ذات العقد .

فكانت مرغريت تزور تلك البارونة فتعطيها ما تجمعه من الاحسان وقد رأت رينالد أول مرة في منزلها .

وقد مالت اليه كما مال اليها لاول نظرة فسألت عنه البارونة بعد انصرافه ، فاخبرتها انه المركيز دي كولدراي .

وكذلك المركيز فقد نظر اليها نظرة ايقنت بعدها أنه يحبها وأنه سيقتفي أثرها وأنها اشرفت على هاوية ذلك الحب الذي طالما أخبرتها أمها بأخطاره

فعادت الى منزلها وهي مضطربة وسعيدة معا .

ولم تكن مخطئة فأن رينالد أحبها لاول نظرة كما أحبته ولكنه ضطر مكرهاً ان يسافر الى تورس لقضيته فلم تعد تراه ولكن الدوق دي فيلان لم يكن له قضية تشغله عن حب مرغريت .

وكان يعلم أن أمها قد خسرت كل مالها وان الديون قد تراكمت عليها فحرمتها الراحة فلم يجد صعوبة في الاتفاق معها ولكن تلك الام لم توافق على زواجه بابنتها الا بشرطين .

احدهما أن يفي جميع ما عليها من الديون والثاني ان يعين لها ايراداً يكفيها مدى الحياة

فاستعظم الدوق في البدء الشرطين ثم حمله الغرام على الرضى بهما وقد اتفق واياها اتفاقاً تاماً قبل أن تخبر ابنتها بشيء .

ولما تم الأتفاق أخبرت ابنتها أنها ستغدو دوقة وتصبح أغنى مما كانت في عهد أبيها .

فأبت مرغريت هذا الزواج كل الاباء فان رينالد كان لا يزال ممثلا في قلبها .

الى أن رأت أن لا سبيل الى مقاومة امها فطلبت مهلة شهر كي تتمعن في أمرها فامهلوه .

فاغتنمت مرغريت هذه الفرصة وكتبت الى خالها وهو مهاجر

الى اسبانيا منذ عهد بعيد مستنجدة به على ما هي فيه وعهدت الى البارونة التي يلقبونها بذات العقد ارسال الكتاب اليه بعد أن باحت لها بما تعانيه .

فذهلت البارونة حين علمت ان الكونت لورحييري خال مرغريت واعترفت لها بدورها أنها عرفت هذا الكونت وأن حوادث هائلة قد فصلتها عنه

أما والدة مرغريت فقد كانت تراقبها مراقبة شديدة فعلمت أنها كتبت كتاباً مبهماً ، فقد أخبرتها الخادمة أنها رأت ذلك الكتاب ولكنها لا تذكر اسم المرسل اليه وغاية ما تذكر منه انه كونت وأنه مقيم في أسبانيا .

فأيقنت عند ذلك أن مرغريت كتبت لخالها فكتبت هي أيضاً الى أخيها ما يأتي :

«لقد كتبت لك ابنتي مرغريت فعلمت من كتابها مقدار شقائي ولا سيما بهذا الزواج الذي أكرهت أكراهاً على الموافقة عليه وأنا على أتم الأتفاق مع ابنتي في محاولة منع عقده ، فاذا كنت على رأينا من ذلك أسرع الى باريس فإننا نكون فيها حين يصلك كتابي هذا»

فورد الكتابان الى الكونت وحسب أن الأم والبنت متفقتان حقيقة فذهب تواً الى باريس وهو يعتقد أنه سيجدهما فيها

وقد حسبت والدة مرغريت أيضاً ما يقتضي من الزمن لوصول الكتاب الى أخيها وايقنت أن المهلة التي عينتها لابنتها تنقضي قبل وصول الكونت .

فلما انقضى الشهر الحت عليها الحاحاً شديداً حتى اكرهتها

على الرضى بزواج الدوق ، فاصبحت تدعى دوقة دي فيلار بينما الكونت لورجيري كان قادماً الى باريس لمنع هذا الزواج .

ولنعد الان الى مرغريت فانها بعد ان تعشت مع زوجها الدوق ، الذي باتت تكرهه كرهاً عظيما بعد وثوقها من حب رينالد قالت للدوق انها متعبة وأنها تريد الاستراحة في غرفتها.

ثم صعدت الى غرفتها وتبعها الدوق غير أنها أقفلت الباب في وجهه ومنعته من الدخول اليها ، فانصرف يحرق الأرم من الغيظ وعاد الى غرفته متسلحاً بالصبر الجميل وهو يرجو أن تلين الأيام فؤاد هذه الفتاة التي هام بها هياماً خير ما يوصف به أنه غرام شيوخ .

وأما مرغريت فانها لم تكن تستطيع الرقاد فاخذت كتاباً وجعلت تقرأ فيه وهي لا ترى بين سطوره غير وجه رينالد .

وفيما هي جالسة تفكر خيل لها أن باب تلك الغرفة المحاذي لسريرها قد فتح ، فجزعت ولكنها لم تصح ونظرت الى ذلك الباب الذي فتح برفق ، فرأت رينالد يتلصص منه كانه يريد ان يستوثق من وجود مرغريت وحدها في غرفتها .

فدهشت دهشاً عظيما وقالت له أنت هنا . . ولكن كيف اتيت ؟

فأخبرها كيف دخل الى القصر ثم قال ، اني سمعت كل الحديث وهذه العقدة التي فقدتها أنا اختلستها . وهذه هي في صدري وقد وضعتها بقلبي فلا اتخلى عنها ما حييت .

– اذن اين اليمين واين ما عاهدتني ، انسيت ما أقسمت به

أم انت تريد هتكي وثلم شرفي ؟

– انا اثلم شرفك يا مرغريت ، معاذ الله ان افعل بل أني أريد أن أنضم اليك فلا افترق عنك الى الابد . وأنا لا أحدثك الآن بما اعانيه من اليأس القاتل بل أحدثك بشأنك انت فانظري الى المرآة تجدي أنك أشد مني عناء واعظم يأساً فاين هذه الوردة التي كانت نامية فوق وجنتك ، واين هذا الابتسام الذي كانت تزدان به شفتاك وأين اشعة تلك النظرات التي كانت تنفذ الى القلوب وتشقها قبل الجلود ، ام تحسبين اني لا أعلم سر ذبول ذلك الورد الجني وخمود تلك الاشعة النافذة وذهاب ذلك الابتسام الساحر .. كلا يا مرغريت ان حديث القلوب لا يخطىء وأنا أشعر أنك تجدين من حبي ما أجده من حبك والفرق بيننا انك لا تطيقين احتمال ما أحتمله من عناء ذلك الحب للطف شعورك ولكن ذلك لا يطول يا مرغريت .

فذعرت الفتاة وقالت رباه ماذا أصنع . . رينالد ماذا تريد ان تصنع .

– اريد أن أنقذك من هذا العذاب وأن تهربي معي فتضحي بمستقبلك من اجلي كما قضيت على مستقبلي من اجلك ، وماذا علينا من هذا الفرار . اني اقرأ سطور النعيم والحياة في عينيك فهل لا تضيء لي عيناك الا على ضفاف السين ، وماذا علينا لو غادرنا هذه البقعة السوداء من الارض الى بقعة سواها تضيء لنا فيها اشعة الامل والنعيم ، وما بالنا لا نبرح هذه المدن والعواصم التي لا يلقى فيها المرء غير الخجل والحطة والذنوب الى مكان لا يقف فيه على أسرار قلبينا غير تلك الشمس المنيرة وهي في كل

مكان تظهر وتغيب .

– اليس لك من الواجبات غير واجبات الغرام يا رينالد ؟

– ان نعيمك ايتها الحبيبة اقدس واجب اقضيه واجل فرض اؤديه .

وانا اذا كنت لا استبقيك الا بمثل هذا العمل السيء لا اجزع من الفراق .

– أحق ما تقولينه يا مرغريت .. اتيطقين فقدي بالفراق ؟

– وا أسفاه انني لست واياك على وفاق في هذه الفروض ، فان الفراق مر صعب قد لا تحتمله النفوس الصغيرة ولكنه اذا حالت دونه واجبات الشرف كان هيناً سهل الاحتمال . وبعد فان المرء لا يفقد مالا يملكه وهل ملكتك انا الا بالأمل ، فكيف اكون فقدتك ؟

وهم رينالد ان يجيبها وقد راعته نبرات يأسها ولكنه سمع عند ذلك قرعاً عنيفاً على الباب وسمع صوت الدوق دي فيلان يقول بلهجة العنف الشديد ، افتحي في الحال .

فأنت الفتاة انين الموجع وقالت ، ويلاه لقد قضي علي .

فقال لها رينالد كلا أيتها الحبيبة ، افتحي الباب ولا تخشي

ثم ضمها الى صدره دون أن تستطيع دفاعاً وقبل ثغرها قبلة امتزجت بها الروحان واسرع الى الغرفة التي كان مختبئاً بها وهو يقول ، الى اللقاء القريب .

وكان الدوق في خلال ذلك يقرع الباب بعنف شديد حتى كاد يكسره ، فذهبت مرغريت وفتحته وهي تشبه الاموات

لاصفرارها ، فدخل الدوق يحمل غدارة محشوة باحدى يديه وبالاخرى مصباحاً ، فوضع المصباح على المائدة وأجال في تلك الغرفة نظر الفاحص فاصفر وجهه اذ لم ير فيها احداً غير مرغريت

وحكاية هذا الشيخ الغيور انه بعد أن فارق مرغريت دخل الى غرفته لينام فخطرت له تلك العقدة الزرقاء التي فقدتها ثم ذكر انها ذهبت الى غرفتها قبل الوقت الذي تعودت ان تذهب فيه فهاجت مكامن غيرته وبرح غرفته ذاهباً الى غرفة زوجته ووقف عند بابها يصغي .

ولم يطل وقوفه حتى ارتعدت فرائصه اذ سمع صوت محادثة ولكن الصوت كان بعيداً عنه فلم يتبينه .

غير انه وثق من أن زوجته ليست وحدها في تلك الغرفة ومن عسى أن يكون معها غير المركيز دي كولدراي .

فصعد الدم الى رأسه وتوهجت عيناه بنار الغيرة فاسرع الى غرفته وعاد منها بغدارة الى غرفة زوجته وهو عازم عزماً أكيداً على قتل الاثنين .

وعاد الى التنصت ، فسمع الصوت أيضاً كما سمعه في المرة الاولى فحاول ان يفتح الباب كي يباغت العاشقين ولكنه استعصى عليه ، فان مرغريت قفلته من الداخل بالمزلاج .

وعند ذلك جعل يقرعه بحدة المجانين .

وقد ذهل في البدء حين رأى مرغريت قد فتحت له الباب غير هيابة ، ولكنه خشي أن يكون ذلك خدعة منها وأن يكون العاشق قد اختبأ .

أما مرغريت فانها وثقت ان رينالد قد توارى عن الانظار فوثقت من النجاة وعادت اليها السكينة ، فنظرت الى زوجها نظرة انفة واستكبار وقالت له ، الا توضح لي أسباب هـذا العمل المنكر ؟

فهاج غضب الدوق وقال لها ، أتجسرين أيضاً على أن تحسي عملي منكراً بعد ان سمعت الحديث في غرفتك ؟

– أي حديث تعني .. الا يحق لي ان اقرأ في غرفتي بصوت مرتفع ؟

– كيف . . اتدعين . .

– انظر تر الكتاب لا يزال مفتوحاً على المائدة وهو ذلك الكتاب الذي اعطيتني اياه وأوصيتني بقراءته .. انظر فاني بعيدة عنه ولكني أعيد أمامك ما كنت اقـرأه فيه

فقد كتب في أول صفحة منه « السيد . . روايـــة تمثلية ذات خمسة فصول .. وضعها بيير كورنيل »

فراجع الدوق ما قالته في ذلك الكتاب فوجده كما قالت ولكن الشك كان لا يزال مخامراً قلبه فقال ، ولكني واثق ملء الثقة اني سمعت صوتين .

– ذلك محال يا حضرة الدوق على انك قد تكون سمعت لهجتين مختلفتين فاني كنت اقرأ المحاورة بين السيد وأبيه فكنت اكيف صوتي بما يقتضيه الكلام فيختلف لاندفاعي في تقليد لهجة الأب والابن .

فلم يستطيع الدوق انكار هذا البرهان ولا سيما وقد أيقن

انه لا يوجد سواها في الغرفة وعلم انه أندفع مع تيار الغيرة فاطرق برأسه

واغتنمت مرغريت هذه الفرصة فقالت له

امن أجل اني اقرأ رواية انت اوصيتني بقراءتها وقلت لي انها ترفع النفوس تغتصب باب غرفتي وتدخل الي والغدارة بيدك دخول المهاجمين في الحروب ، فكيف تستغرب قولي عن عملك انه منكر ؟

فلم يجب الدوق بشيء ولكنه كان مقتنعاً ان ما عمله كان حقاً من حقوقه بعد ان سمع في غرفة امرأته صوتين .

ومضت مرغريت في حديثها فقالت :

ان هـذا العيش لا يطاق وغيرتك لا تحتملها نفس ابية ، فاذا لم تأذن لي بالعودة الى أمي كنت عازماً على قتلي تباعاً ، واذا كان هذا الذي تريده فدعني اموت مطمئنة على الاقل .

فاجابها الدوق بسكينة ، انك تشكين من جور انت السبب فيه فانك لو كنت امرأتي حقيقة ..

فاجابته بلهجة دلت على الذعر ، معاذ الله ان أكون امرأتك وأنت الجاني في كل ذلك فقد طالما توسلت اليك وانذرتك فابيت الا ان تكرهني على الزواج بك .

– ليكن ما تريدين ولكني لا آذن لك بأن تفضلي رجلاً معدماً لا مركز له ولا مـــال .

– اني كنت أجهل من تعنيه بقولك هذا لو لم تذكر لي مرة انه المركيز دي كولدراي ، فاذا كنت تعنيه الآن أيضاً فقد

اخترت ابعد الوسائل لأذلاله في عيني لانك تعلم يقيناً كما اعلم ان هذا المركيز من اسرة عريقة بالنسب كأسرتك واذا كان لا مال له فـذلك لأنهم سرقوا مـــاله .

فحاول الدوق ان يجيب ولكنها قاطعته باشارة وقالت :

وفوق ذلك فلا فائدة من الخوض في هذا الحديث وهو لا يزيد النفرة بيننا اذ لم تعد تحتمل المزيد لبلوغها حد التمام فاذا كانت لم تتم تفتيشك اته وهذه مفاتيح خزائني فافتحها وفتش كما تريد .

فمشى الدوق مطرق الرأس الى الباب بخطوات بطيئـة وهو غير مقتنع ولكنها جردته من اسباب الدفاع .

فاسرعت مرغريت فاقفلت الباب في اثره ووقفت تصغي حتى سمعت انه نزل السلم وابتعد .

وعند ذلك ركعت جاثيـــة وهطلت الدموع من عينيها وهي تقول ، رباه انك قضيت علي ولم اذنب اليك .

ثم مسحت دموعها وسارت الى الباب الذي خرج منه رينالد . كانت تلك الغرفة التي دخل اليها رينالد غرفـــة صغيرة ولم يكن لها منفذ ظاهر غير ذلك الباب المتصل بغرفة مرغريت ولم تكن تستخدم لشيء الا لوضع ما قدم عهده من امتعة الزينـــة .

فلما دخلت مرغريت اليها لم تجد رينالد فحارت في امـره وفحصت الجدران فحصاً دقيقاً علها تجد منفذاً سرياً فلم تجـد فعادت الى غرفتها وهي منذهلة حائرة لا تعلم ما جرى له .

اما رينالد فانه حين دخلت مرغريت مع خادمتها الى الغرفة الصغيرة ليختبىء فيها كما تقدم .

فبعد ذهاب مرغريت عاد الى غرفتها ورأى ان الفـــرار يستحيل الا من الطريق الذي جاء منه أو من نافذة الغرفة وهي على علو تشرف ايضاً على ردهة القصر .

وعلى ذلك وجد نفسه أسيراً وقد عضه الجوع وبات لا يعلم متى يتيسر له الفكاك من الامر .

وكان المصباح قد بقي مضاء في غرفة مرغريت فأخـــذه وذهب به الى تلك الغرفة الصغيرة التي لجأ اليها وجعـل يبحث عن منفذ فلم يجد فضرب الارض برجله مغضباً .

فدهش عند ذلك دهشاً عجيباً إذ حدث له ما يحـــدث في روايات الف ليلة وليلة وهو ان ارض تلك الغرفة قـد فتحت تحت قدمه ثم ارتدت الى ما كانت عليه حين بطل الضغط فعاد الى الانفتاح ببطء فاستدل من ذلك ان هذه البقعة باب يفتـح بلولب لم يستعمل من عهد طويل فعـاد الى الضغط بشدة حتى فتح ذلك الباب ورأى منـه منفذاً ولكنه لم يعلم الى أين يؤدي ذلك المنفذ .

• •

الفصل التاسع

كيف عاد رينالد الى منزله

فنزل رينالد من ذلك المنفذ بملء الاحتراس فاستقر على الارض ووجد مستوقداً لا نار فيه فبحث على نور مصباحه فوجد في الجدار زراً نائتاً يشبه بشكله الزهرة فضغط على ذلك الزر ففتح الجدار كأنه باب وانكشف عن غرفة متسعة وجد فيها كل معدات الزينة الخاصة بالنساء .

ولهذه الغرفة باب ونوافذ وفيه سرير فاطل من النوافذ فوجدها تشرف على ردهة منزل وفي الردهة باب يشرف على رواق ضيق فلم يعرف لمن المنزل والى أين يؤدي الرواق ومن يقيم في هذه الغرفة ولكنه اطمأن اذ وجد منفذاً ولم يعد يشغله الا ان يرى مرغريت فعاد الى غرفتها .

وكان جل مراده ان يقنع مرغريت على الفرار معه وهو خاطر لا يخطر لعاقل .

ولكن الحب اعمى بصيرته فحسب ذلك الفرار سهلاً وعرضه على مرغريت فقاطعه الدوق بطرق الباب كما تقدم .

وعند ذلك صحا من سكرته ولم يعد يهتم الا بانقاذ مرغريت من التهمة فاسرع الى الغرفة الصغيرة فدخل اليها واقفل بابها

وفتح المنزل فدخل منه واقفله وضغط على لولب الجدار ففتح عن تلك الغرفة النسائية التي تقدم وصفها ولكنه لم ير شيئاً فيها لشدة الظلام .

ولما فتح ذلك الباب وقف حائراً مبهوتاً اذ سمع صوت امرأة يقول ، من هذا ؟

فايقن رينالد ان الغرفة مأهولة وان تلك المرأة نائمة في ذلك السرير الذي رآه من قبل .

فدنا من مصدر ذلك الصوت وقال بلهجة المتوسل وهو لا يرى من يخاطبه .

رحماك يا سيدتي واشفقي علي فان اتفاقاً عجيباً قادني الى هذا المكان ولست من اهل السوء .

فقال له الصوت ، ولكن من انت ؟

— اني شريف تعس قضي علي ان انقذ شرف امرأة نبيلة فلجأت الى هذا المنزل دون ان اعرف صاحبه .

فوثبت المرأة من سريرها وقالت بلهجة تضطرب ، ولكن قل لي اسمك .

— ان اسمي لا يفيدك شيئاً يا سيدتي فاشفقي علي بالله .

— اذكر اسمك او استغثت وناديت الخدم .

فخشي المركيز شر الفضيحة وقال ، اني ادعى المركيز دي كولدراي .

فاضطربت المرأة اضطراباً عظيماً وقالت أأنت هنا ؟ لقد ثبت لي الان انك لا تعرف حقيقة اين انت .

– يظهر يا سيدتي من لهجتك ان الخطر علي شديد في هذا المنزل .

– انه اشد من الخطر الذي نجوت منه .

– لكن اين انا يا سيدتي ؟

– لا يفيدك ان تعرف ذلك ما زلت عازمة على انقاذك .

– اشكرك يا سيدتي اجل شكر .

ثم تقدم في الظلام من مصدر الصوت ويداه مبسوطتان فالتقت يده بيد تلك المرأة فاخذها بين يديه وقبلها قبلة شكر وامتنان .

وقد شعر ان يدها ترتجف بين يديه وانها تحاول الافلات منه لاضطرابها .

فقال لها ، انك تجذبين يدك من يدي فكيف تريدين اذن ان اهتدي السبيل في هذه الظلمات ؟ الا تضيئين شمعة يا سيدتي فارى وجهك الجميل واعرف تلك المحسنة الي .

فاجابته بلهجة تبين منها الرعب .. كلا .. كلا

وكان رينالد يكلمها ويضغط على يدها الناعمة ويحاول جذبها اليه بلطف وهي تحاول الافلات منه وترجوه ان يتركها .

ولكنه لم يصغ اليها فتمكن من جذبها اليه وقبل كتفها .

اما المرأة فانها تخلصت منه بعد الجهد وقالت له ، اقسم بشرفي اني استغيث اذا عدت الى ذلك .

ثم قالت له ، الا يكفيك اني اساعدك على الفرار بتعريض سمعتي للاهانة ام تريد ان اندم على ما فعلت ؟

قال كلا يا سيدتي فلا شك انك من ملائكة السماء وان لساني يعجز عن اظهار امتناني .

قالت هذا الذي كنت اتوقعه منك فلا تدعني اسيء الظن بك وانت من الاشراف ثم اخذت حلقة مفاتيح عن المائدة وقالت له ، هات يدك الان واحذر ان تتكلم .

فامتثل رينالد واخذ يدها وهو يشعر باضطرابها ويسائل نفسه عن هذه المرأة وكيف ارادت انقاذه وأي خطر عليه في هذا البيت وكان يسأل نفسه هذه الاسئلة وهو لا يعرف ان يجيب عليها ويسير مع المرأة ويده بيدها وقد نزلت به سلماً طويلاً حتى اذا انتهت الى آخره فتحت باباً وقالت ، نحمد الله فلم يرنا أحد وهذه هي الطريق يا سيدي فسر في الجهة اليسرى تصل الى الأرصفة .

فقال لها رينالد ، ولكني اتوسل اليك ان تذكري لي اسمك فاعرف المحسنة الي .

قالت لا تطمع في ذلك بل اني استحلفك بشرفك ان لا تسأل عني ولا تحاول معرفة اسمي .

• •

بينما كان المركيز يرتكب الهفوة اثر الهفوة بالرغم عن نصائح ريكمبرج كان ريكمبرج منهمكاً في اعمال المركيز يهتم بتمهيد مقابلة الكردينال .

وقد خطر له ان يستعين بالكونت لورجيري فيعينه على مقابلة الكردينال كما اعانه على مقابلة الملك فذهب اليه واخبره

بما جاء لاجله .

فهز الكونت رأسه وقال له ، يعــز علي اني لا استطيع اجابة سؤالك فقد اعتزلت السياسة والبلاط وغــادرت فرنسا منـذ ثلاثين عاماً فاصبحت غريباً عن الكردينال ورجاله .

فقال له ريكمبرج ، كيف ذلك العلك كنت من المغضوب عليهم ؟

قال كلا ولكني اضطررت مكرهاً الى مغادرة فرنسا ونفيت نفسي منها حرصاً على هناء امرأة اقلقت راحتها وكنت من حين الى حين ازور باريس خلسة وارى فيها اصحابي القدماء فلم اتمكن من مصادقة احد من رجال الكردينال .

ولذلك كان هـذا الوزير في عيني نجماً جديداً اشرق في سماء باريس لا اعرف احداً من المحيطين به ولا استطيع الاعتماد على احد من اصحابي النبلاء في سبيل التقرب اليه فقد غضب عــلى كثيرين منهم وفتك بكثيرين .

وانا لا اذكر لك ذلك اشارة الى الامتنــاع عن السعي فاني سأبذل جهدي في سبيل تمهيد هذه المقابلة .

ولكني بسطت لك هذه الاعذار حتى اذا اخفقت علمت ان فشلي كان قائده العجز لا سوء الارادة .

— اني أشكرك في كل حال يا سيدي الكونت ولا أنسى أنك انت الذي مهدت لي سبيل مقابلة الملك .

— بل اراك تنسى انك خاطرت بحياتك لانقاذي وانت لا تعرفني .

— ولكن ذلك لا يذكر عند امثــالي ، الم اقض العمر في الحروب في سبيل اقوام لا اعرفهم ؟

— اني اعرف ذلك حق العرفان واعرف كثيرين من اهــل النفوذ مدينين لك بالحياة فهلا ساعدوك في مثل هذا الامر السهل اظهاراً لامتنانهم على الاقل واحتفاظاً بمبدأ عرفان الجميل ؟

فهز ريكمبرج كتفه وقال : لو كنت في مقامهم لتهافتوا علي وقدروا جميلي قدره ولكنني معدم فقير حرمت كل شيء في هذا الوجود حتى اني ليس لي اسم فادعى به .

— ولكن لك سيفك وقلبك .

— واية فائدة لي من هذا القلب وهو ما خلق الا ليشقى .

فتمعن الكونت به وقال له ، اني اراك غريب الأطوار .

— لماذا ؟

— لاني بينما اراك من اهل الجرأة والاقدام اجدك من اهــل التواني والقنوط كانك قد جمعت فيك الاضداد .

ولا ادري ما يمنعك ان تنال بسيفك وجرأتك ما لم تستطع ان تناله باسمك ومالك .

فابتسم ريكمبرج وقال ، اتحسب يا كونت اني من أهــل الكسل والخمول ؟ كلا فقد بذلت مالا يبذله سواي من الجهــد حين كنت اعتقد ان المرء باصغريه قلبه ولسانه وباكبريه همته وحسامه فعملت مالا يعمله انسان ولكني كنت مخطئاً وعلمت ان هذه الاقوال خطرات من وساوس الفلاسفة فان الملك نفسه انعم علي برتبة كولونيل وارسلني الى اعدائه بفرقة حشدتها من

شياطين الانس حتى اذا بلغ بي ما اراد وعقد الصلح على مــــا اشتهى انتزع مني تلك الرتبة اذ لم يبق له حاجة الي .

ومع ذلك فاني ما حنقت على الملك ولا اردت السوء لأولئك الذين تخلوا عني بعد احساني اليهم ولا حنقت على ابوي وقـــد تركاني رضيعاً .

فاتقدت عينا الكونت وقال له ، اتخلى عنك ابواك ؟

– نعم وقد تركاني على قارعة الطريق .

– في اية طريق ؟

– في الطريق المؤدية من باريس الى فونتنبلو .

– اتذكر كم سنة مضى على ذلك ؟

أربعة وثلاثون عاماً .

– كم كان عمرك في ذلك العهد ؟

– سنة واحد .

فظهرت علائم الحزن على الكونت وقال ، ما هذا النكد .

قال ، أسألك العفو يا سيدي الكونت فقد أهجت فيك كوامن الحزن كما يظهر فلنبحث في غير شأني اذا أردت .

– كلا بل لنبحث في شأنك أيها الصديق ، فلقد فتحت في قلبي جرحاً قديماً كنت احسبه قد اندمل بتوالى الايام .. نعم فقد كنت احب في ذلك العهد وكان لي ولد .. لو بقي لكان له الان عمرك .

ولكني كنت قائداً في فرقة الملك وكان الواجب يقضي علي

بالبقاء في البلاط فاصبت بنكبة هائلة وهي ان المزرعة التي كنت أقمت ولدي فيها عند مرضعة من اهلها شبت فيها النار في الليل فالتهمت المزرعة وساكنيها .

فلما عدت الى تلك المزرعة وجدتها بلقعاً ينعق فيها البوم .

وكانت يد أثيمة قد أضرمت النار في تلك المزرعة وهو سر لا أستطيع ان أبوح به ولكنك تذكر ذلك الرجل الذي قتلته في غابة امبواز وهو كامن لي مع رفاقه وابيت ان اذكر لك اسمه

– أهو ذلك الشقي الذي أراد قتلك واردت العفو عنه ؟

هو ذلك الرجل نفسه الذي احرق المزرعة ليقتل ابني راوول وهو يحاول قتلي منذ خمسة وثلاثين عاماً .

– أيقتل ابنك ويريد لك الموت ثم تريد له الحياة ؟

فسالت دمعة من عين الكونت وقال ، اني ما دفعت الى العفو عنه الا بعاطفة اشفاق ، فقد ذكرت حين رأيتك ولدي وقلت انه لو بقي لكان له عمرك وقد يكون له نبلك وكرم قلبك .

فعلم ريكمبرج حين ذاك معنى ذلك القول (من القلب الى القلب سبيل) فانه شعر حين رأى الكونت في ذلك الكمين بمثل ما شعر به الكونت من الحنو .

وعاد الكونت الى الحديث فقال ، ولقد كنت اتعزى لو وجدت شيئاً من الراحة بين عائلتي ولكن لي أختاً اصغر مني سناً ازوجتها البارون دي شامبفوت وقد مات زوجها في عهد الصبى متخلفا عن امرأته وبنته .

وكنت أنا في ذلك العهد في اسبانيا احاول نسيان احزاني فلما اتصل بي خبر وفاة صهري كتبت الى اختي ارجوها المجيء الي مع ابنتها ولكنها ابت أن تبرح باريس فاتيت بنفسي مراراً الى العاصمة وحاولت اقناعها فلم أفلح فنصحتها بمغادرة العاصمة والاقامة في تورين ومنحتها مزرعتين .

فأبت ان تبرح باريس أيضاً ففارقتها مكرهاً وعدت الى اسبانيا

وقد أخذت اختي منذ ذلك الحين تقامر مقتدية بنساء البلاط حتى خسرت كل مالها وعادت الى الاقامة في المزرعتين اللتين وهبتهما لها وهناك اغتنم الدوق دي فيلان فرصة خرابها وكثرة ديونها فاكرهها على ان تزوجه بنتها دون ان استطيع الاعتراض لوصولي بعد الاوان وانت ترى ايها الصديق شقائي بهذه الحادثة فان ابنة اختي قد بيعت بيعاً

ولنعد الآن اليك اتذكر كيف انهم التقطوك عن الطريق وكيف وجدت فيها ؟

قال ، كلا ولكن حادثتي لا تؤثر برجل اصيب بمثل ما أصبت .

— لقد أخطأت ايها الصديق فان أهل الشقاء اخوان . ارو حكايتك فاني مصغ اليك .

ولم يكن ريكمبرج يحب رواية حكايته ولكنه لم يجد بداً من الحاح الكونت فقال :

لا اذكر لك شيئاً عن أيامي الاولى اذ لا اذكر منها غير ما روي لي عنها وملخصة كما رواه لي ذلك الرجل الذي تبناني

انه لقيني في طريق فونتنبلو وليس لي من العمر غير عام .

وكنت ابكي لما كان يلم بي من الجوع واظن انك عرفت مدة اقامتك في باريس رجلا ايطالياً جاء اليها في عهد وزارة كونشيني وكان يعلم قتال السيف .

اذا كنت تعني به مانكاردي فقد علمت عنده .

— اذن فاعلم ان مانكاردي كان يبلغ الخمسين من العمر سنة ١٦٠٨ ولكنه كان قوي البنية شديد العضل . ففي ذلك العهد الذي ذكرته لك كان مانكاردي قد اثرى وتاقت نفسه الى وطنه فبرح باريس ماشياً على الاقدام ولقيني على جوانب حفرة في طريق فونتنبلو وانا اكاد أموت جوعاً وبرداً . فحملني بين يديه وسار وهو لا يعلم ما يصنع بي فوقف حائراً متردداً .

وفيما هو على ذلك رأى فلاحاً مختبئاً بين الادغال وقد هرب حين رآه فحسب مانكاردي هذا الفلاح القاني في الطريق واختبأ ينتظر ان يشفق علي احد المارة .

فزاد مانكاردي اشفاقاً علي وسار بي الى فونتنبلو فاستراح فيها ليلته وفي الصباح اشترى كيساً فوضعني فيه وحملني على كتفه وواصل السير .

وقد أخبرني بعد ذلك انه هم مراراً بالتخلي عني في البدء ولكنه كان كلما حاول تركي ذكرانه وحيد مثلي فزاد اشفاقاً علي وتعلقاً بي .

وبعد شهر وصل الى مدينة بيسكانا وهي المدينة التي ولد بها واراد ان يموت فيها .

فاشترى هناك بيتاً واستأجر خادمه واصبحت منذ ذلك الحين ولده بالتبني .

وكنت أنمو نمواً سريعاً فلما بلغت الخامسة عشرة من العمر رآني اسبق اخواني في الالعاب الرياضية فخطر له ان يجعلني خليفته في فنون السيف وجعل من ذلك الحين يدربني على القتال ويفاخر بي حتى سبقته في هذا المضار وصرت اغلبه في التمرين .

ولا ادري اكان ذلك لكبر سنه فقد كان يبلغ السبعين في ذلك العهد ام لرشاقتي الطبيعية وميلي الفطري الى قتال السيف كما كان يقول .

وكان يدعوني تونيو فقال لي يوماً وقد غلبته مراراً ، اني لا ادع لك ارثاً يذكر من المال ولكني علمتك ما لا يعلمه سواك وهو خير ارث .

والان لم يبق لي ما اعلمك اياه فاذهب الى ميلانو وفلورنسا وروما وفينيسيا ونابولي وكل مكان يوجد فيه اساتذة لهذا الفن فاذا رأيت استاذاً يعلم مالا تعلم فلازمه حتى تقف على اسراره .

وكان معجباً بي كل الاعجاب حتى انه كان يلقبني بالسيف، ومن ذلك الحين جعل الناس يدعونني ريكمبرج .

وقد سافرت كما امرني وعدت اليه بعد سنتين وانا في العشرين من عمري ولكن صيتي تقدمني اليه فاستقبلني باكياً لسروره .

وكنت قد عرفت خلال اسفاري فتى يزيد عمره خمسة اعوام عن عمري وهو شديد الذكاء كثير الحيلة تلقى فن السيف فاتصلنا بصلة الصداقة وهو يدعى جيليو مازارين .

وهو ابن رجل من نبلاء سيسيليا فأدخله أبوه في سفارة الكردينال كولونا في اسبانيا وقد تثقف وتعلم خير تعليم .

وقد مر حين عودته من اسبانيا بروما فحاول اليسوعيون ان يضموه اليهم وكادوا يظفرون به لولا شدة شوقه الى اهله والي

وعلى الجملة فاني حين لقيته كان بملابس القواد وهو قد عاش الى ذلك اليوم بين الكهنة ورجال الدين فاقترحت عليه اقتراحات رضيها وحال دون تحقيقها اصراره الى سرعة السفر.

وقد عرض علي خدمات كثيرة في ايطاليا بعد ان اشتهرت فيها شهرة واسعة ولكني كنت ارفضها قائلاً ، اني فرنسي ولا أحب ان أخدم الا دولتي وبلادي .

الى أن استصوب استاذي رأبي وأذن لي بالسفر الى فرنسا فكدت أطير شوقاً الى تلك البلاد التي لم أكن أعرفها بعد .

فقال له الكونت ، وقد كنت ترجو أيضاً أن تجد أبويك .

قال ، كلا فانهما لم يخطرا في بالي لأنني كنت أعلم كيف وجدت حتى أن ذلك الفلاح الذي هرب حين رأى منكاردي قد لا يكون هو الذي وضعني على الطريق ولذلك لم أكن أرجو ان أظفر بأبوي اذ ليس لي اليهما سبيل ولا أستطيع أن أهتدي اليهما بدليل ولكني كنت أرجو أن أجد بين رجال السيف من يقدر قدر سيفي وهذا كل ما كنت أطمع فيه .

وقد كدت أسافر لفوري لو لم أجد ذلك الرجل الذي تبناني قد أخذ بالانحلال فقد التقطني ضعيفاً محتضراً فلا اتخلى عنه وهو في دور الأحتضار .

على ان نزعه لم يطل وقد قال في آخر ساعاته ، اني تارك

لك من المال ما تستعين به ولا تحتاج الى أحد .

غير انه لم يفطن الى اقربائه فلما اسلم الروح اقبلوا ينازعونني ذلك الارث وظفروا به دوني لاني لم أستطع اثبات ذلك التبني وكنت فوق ذلك غريباً فذهبت الى قبر أستاذي فودعته الوداع وسافرت الى باريس .

وهناك أردت الظهور بمظهر يستلفت الي الانظار فدعوت جميع اساتذة السيف الى مناضلتي ومناظرتي .

فلم يتخلف احد منهم عن الحضور حين علموا بانتسابي الى مانكاردي وحضروا لمقاتلتي ، وجاء كثير من النبلاء لحضور هــذا القتال .

ولا أطيل الايضاح بل اكتفي بالقول اني انتصرت عليهم جميعم وكنت اعين المكان الذي اصيب به احدهم فاصيبه به حتى اذا انتهى القتال خرجت وقد ملأت شهرتي باريس .

وكان المسيو دي تريفيل قائد الحرس من الذين حضروا تلك المناظرة فاقترح علي الدخول في سلك الحراس .

وفي اليوم التالي ارسل الي جاسوسه لافماس وسألني ان انضم الى سلك رجــاله فرفضت سؤاله بعد ان رفضت اقــتراح دي تريفيل لأني كنت ميالاً الى الاستقلال .

ولا انكر اني اخطأت ولكني كنت في ذلك العهد شديد الطموح الى العلى فانفت هذه المناصب الصغيرة .

وعشت بعد ذلك عشرة اعوام اجترحت فيها العجائب دون ان افتخر يوماً بـــا فعلت .

اتدري يا كونت ما كان يقول الناس عني بعد ذلك ؟

انهم كانوا يقولون اني رجل لا اسم لي ولا مال واني لا اخاطر بنفسيْ الا كي يتحدث الناس بامري وانما لم يكونوا يفكرون اني من احذق رجال السيف .

ولكن اتعلم ما الذي استفدته من هذه الشهرة ؟

ان الملك دعاني اليه في الحرب الاخيرة ومنحني رتبة كولونيل على ان احشد فرقة من المتطوعين انفق عليهم من مالي.

فنجحت في تأليف هذه الفرقة وبلغت بها ما لم تبلغ فرقة من جيوش الملك حتى باتت تضرب بنا الامثال .

حتى اذا ما وضعت الحرب اوزارها أمر جلالة الملك بحل فرقتي واسترد مني الرتبة التي قلدني اياها اذ لم يعد محتاجاً الى خدمتي ثم وهبني عشرة آلاف دينار فرقتها بجملتها على رجال الفرقة ولم استبق لنفسي شيئاً بحيث اني حين التقيت بك في غابة امبواز كنت خالي الوفاض بادي الانقباض ليس لي غير جوادي .

فانقبض الكونت لما سمعه وقال ، كيف لم تقل لي في ذلك الحين ؟

فلم يجبه ريكمبرج ومضى في حديثه فقال :

اني عرفت المركيز دي كولدراي بعد ذلك بشهر وانك لا شك قد عرفت هذه الاسرة حين اقامتك في فرنسا ولكنك ما عرفت المركيز رينالد فانه لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره

قال ، هو ذاك فان اباه كان من اصدقائي المخلصين ولكني لم ار ابنه رينالد قبل ان تعرفني به فكيف عرفته انت ؟

فروى له عند ذلك ريكمبرج كيف عرف رينالد واخبره انه عاشق مفتون بدوقة فيلان ابنة اخته وانها هي تحبه ايضاً

فقال له الكونت، يسوءني جداً اني لم استطع منع زواج ابنة إختي بهذا الدوق وهذا هو الشقاء يتبعني كيف سرت .

قال ، نعم ان ذلك يحمل على الاستياء اذ لا اعلم كيف ينتهي هذا الحب فان رينالد شديد التهور ومرغريت امرأة وهي مكرهة على الزواج بشيخ .

ولكنها طاهرة النسب لا خوف عليها من الزلل فلنعد الى المركيز فانه نهج معي مناهج النبلاء وقيدني بمروءته فلم اجد بداً من صحبته واعانتـــه على عدوه الهائل لا سيما وهو في مقتبل الشباب لم تحنكه الايام .

فقال الكونت ، اني لا أعجب لاخلاصك هذا فقد رأيت مساعدتك اياي وانت لا تعرفني ما يدلني خير دلالة على مرؤتك ولا شك عندي بانك ستفوز في ما تسعى اليه ما زال رائدك هذا الاخلاص .

– وانا لا اقنط من الفوز يا سيدي الكونت وانت نصيري .

– اذن تعال غداً ايها الصديق الى الكردينال فاني اتعهد بايصالك الى غرفه وهناك قد أجد صديقا يعينني على ادخالك الى الكردينال كما اعانني دي تريفيل على ادخالك الى الملك .

– اشكرك يا سيدي الكونت وسأحضر مع رينالد .

ثم تركه وذهب الى فندق الاوزة السوداء الى حيث كان يقيم وانتظر فيه رينالد الى الساعة العاشرة فلم يحضر .

وقد خاف عليه خوفاً شديداً اذ خشي ان يكون عمــه قد ظفر به أيضاً .

ولبث على ذلك الى منتصف الليل وهو لا يعلم اين يبحث عنه الى ان جاء رينالد وهو ممزق الملابس وعلى قميصه بعض نقط من الدم فاجفل لمنظره وقال له ، العلك تبارزت مع أحد؟

فجلس رينالد على كرسي واهي القوى وقال ، نعم

– مع من ؟

– سأخبرك فدعني استريح هنيهة .

– يجب ان تحذر يا رينالد فاذا كنت لم تحضر باريس الا للمقاتلة واذا كنت لا تريد ان تصغي لنصائحي تخليت عنك اذ لا تفيدك مساعدتي بشيء .

– لا تتسرع بلومي ايها الصديق فاني ما قاتلت الا في سبيل صديق لـــك

فذهل ريكمبرج وقال صديق لي ؟ ومتى كان لي اصدقاء .

– كيف ذلك الم تقل لي ان لك صديقاً يدعى مازارين .

– ارأيته ؟

– بل انقذته

– اليوم ؟

– منذ هنيهة .

– قل لي ما جرى .

– حباً وكرامـــة ولكني ارجوك ان تمهلني ريثـــما يهدأ اضطرابي فقد جرى لي من الحوادث في هذا النهار ما اثر بي كل

التأثير .

– مما تأثرت ؟

– صبراً ايها الصديق فسأخبرك بكل ما جرى ولنبدأ بأمر صديقك مازارين .

– قل

– بينما كنت عائداً منذ نصف ساعة الى الفندق وقد وصلت الى الجسر الجديد سمعت صوت امرأة تستغيث وتطلب النجدة فدنوت منها فرأيت رجلا لابساً ملابس من المخمل الاسود وهو يقاتل خمسة او ستة جنود سكارى قتالا عنيفاً .

وقد رأيت وراء الرجل فتاة لا تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ترتجف من الخوف .

وهي قريبته كما اخبرني وقد كان عائداً بها الى المنزل فدهمه اولئك الجنود وهيأ لهم السكر اختطاف الصبية فحاول في البدء ان يفر منهم ولما لم يجد سبيلاً الى الفرار جرد حسامه وانقض عليهم فجعلت الفتاة عند ذلك تصيح وقد سمعت صياحها

ولم اكن اعرف هذا الرجل وكل ما خطر لي في تلك الساعة ان رجلاً شريفاً معرض للقتل وفتاة معرضة للافتضاح فاسرعت الى نجدتهما وقاتلت الجنود مع الرجل .

افلا تفعل فعلي يا ريكمبرج لو كنت في مكاني ؟

– دون شك .

فلما رأى الجنود ما كان مني انصرفوا عن الرجل وهجموا علي فما راعني ذلك وصحت بالرجل قائلاً ، اهرب بالفتاة

ودعني مع هؤلاء الاوباش .

فأبى ان يمتثل لنصحي وهجم على الجنود فرأيته في الحقيقة من خير رجال السيف .

اما أنا فقد جريت على القاعدة التي علمتني اياها وكنت اقاتل بملء السكينة ولكنني لم اسلم منهم كل السلامة فقد كانوا ستة يهجمون هجوم رجل فرد .

– نعم فان من لم يكن متعوداً قتال الجماعة يباغتونه .

– غير اني مع ذلك تمكنت من اصابة اثنين رأيتهما سقطا امامي وهما يسخطان وكذلك رفيقي فقد قتل واحداً أيضاً .

وكنا على وشك الفتك بهم جميعاً لو لم يتفق ان تلك الفتاة هالها ما رأته فاغمي عليها واضطر الرجل ان يسرع الى مساعدتها بحيث اضطررت الى القتال وحدي .

وقد ذكرتك في تلك الساعة وافعم قلبي كبرياء اذ كنت اراك ممثلاً امامي تنظر الى كل طعنة اطعنها فزاد ذلك في تحمسي وحذري فجرحت اثنين ايضاً ولم يبق من اولئك السكارى غير واحد فاركن الى الفرار .

فما أردت لحاقه وعدت الى الرجل والفتاة فرأيتهـــا بين ذراعيه وهي لا تزال مغمياً عليها .

فاسرعت الى السين وغمست بمائه منديلي وعدت به الى الفتاة فعالجتها بذلك الماء حتى استفاقت .

فلما فتحت عينيها ورأتني امامها مع خالها دهشت وقالت ، اين الجنود؟

ثم رأتهم على الارض صرعى فنظرت الي نظرة اعجاب وقالت ، اسأل الله ان يكافئك عني .

ثم عاودها الرعب فامسكت بدخالها ويدي وقالت هلموا بنا فذهبنا جيماً الى جهة اللوفر وقد شكرني صديقك اجمل شكر وعرفني بنفسه وعرفته بنفسي وافترقنا قرب اللوفر بعد ان طلب الى ان ازوره فيه فاتيت اليك .

فاستقبلتني بالتقريع واللوم وانا احوج الى ما اسد به الرمق فاني لم اذق طعاماً منذ الصباح .

فاعتذر اليه ريكمبرج ونادى خادمه بابيلاس وكان لا يزال ساهراً ينتظر مولاه وامره باعداد الطعام .

الفصل العاشر

الدعوة الى المبارزة

وبعد هنيهة عاد الخادم بالطعام فجعل المركيز يأكل ويروي لصديقه ما اتفق له من الحوادث .

فلما اتم حديثه قال له ريكمبرج ، تقول ان غرفة الدوقة متصلة بممر سري يؤدي الى منزل يشرف على الشارع ؟

– هو ذاك .

– لم يبق شك أن هذا الشارع شارع سانت بول ولكنك عرفت بالتدقيق منزل الدوق اليس عليه نمرة ٨١ ؟

– نعم

– اذن ان منزل الدوق هو منزل البارون لاجيلير والمنزل الذي نفذت اليه وهربت منه هو عش الحمامة .

فانذهل رينالد لهذا الاسم الغريب وقال ، عش الحمامة ؟

فابتسم ريكمبرج وقال ، نعم وهذه الحكاية قديمة جرت في اواخر عهد الملك السابق ولكنها شاعت في باريس .

– ايمكن ان اعرفها ؟

– دون شك وهي موجزة وغير مفيدة ولكنك تعلم بها كيف اتفق وجود هذا الممر السري بين القصرين فاعلم .

ان البارون دي لارجيلير عين في عهد هنري الرابع سفيراً لفرنسا في المانيا .

وكان قد تزوج صبية ضرب المثل بجمالها فابت ان ترافق زوجها في اسفاره وتنقلاته في الخارج مدعية انها لم تتزوج لمفارقة وطنها .

ولم يستطع البارون اقناعها فغادرها في باريس وذهب الى سفارته بحيث باتت امرأته شبه ارملة بعد سفر زوجها بثلاثة اسابيع من عهد الزواج.

فلم يطل بها العهد حتى تعزت عن هذا الفراق بحب المركيز دي بالبير الذي تغلب على ارادتها بعد ان دافعته ستة اشهر فاشتهر امرها واي حب لا يفتضح .

وكان عشاق تلك المرأة كثيرين فكثر الرقباء وعلموا ان المركيز اشترى منزلاً مجاوراً لمنزل خليلته فايقنوا ان العاشقين قد فتحوا ممراً بين المنزلين كانا يجتمعان به في كل يوم .

وكانوا يحسبون ان هذا الحب بين العاشقين لا يدوم ولكنهم حين رأوه متصلاً خمسة اعوام اطلقوا على منزل البارونة اسم عش الحمامة .

ثم اتصل هذا الحب دهراً طويلاً كل ذلك وزوجها البارون

لا يعلم شيئاً من خيانة امرأته فيزورها من حين الى حين ويعد المركيز من خيرة اصدقائه حتى انه لما ماتت البارونة كان زوجها مسافراً فكان المركيز يستقبل عنه وفود المعزين .

وقد كنت مقيما في باريس في ذلك العهد وكان جميع الناس يعلمون انه يوجد ممر سري بين المنزلين ولكن لم يكن احد يعلم اين يوجد هذا المنفذ فقد حمل العاشقان سره معهما الى القبر.

ثم تنوسيت هذه الحادثة لتقادم العهد وبيع المنزلان فاشترى الدوق دي فيلان منزل المركيز ولا اعلم من اشترى منزل البارونة ومن يقيم فيه الان ولكن ذلك سهل ميسور مازلنا نعرف منزل الدوق وهو مجاور لعش الحمامة .

فقال له رينالد ، ذلك سهل كما تقول ولكنني لا اريد ان اعرف اسم صاحب المنزل .

– لماذا ؟

– لان امرأة استحلفتني بشرفي ان لا ابحث عنه ولا يزال صوتها الحنون يرن في اذني فلا يمكن ان اخونها .

ولا ادري السبب في ما كنت اراه من اضطراب هذه المرأة فقد يكون ذلك من الخوف وقد يكون من الحب فانها عرفتني دون شك .

اما انا فلا اعرف شيئاً من امرها ولا اعلم اذا كانت قبيحة ام حسناء وكل ما عرفته منها انها تحبني فان لهجتها وحنوها واشفاقها علي كانت تدل على هذا الحب واذا كان ذلك الا يمكن ان تكون هي نفسها تلك المرأة المقنعة التي جاءتنا بذلك الصك؟

وقد خطر لي هذا الخاطر فهممت بالرجوع والاستقصاء عن ذلك المنزل كي اعرف اسم منقذتي ولكني ما خطوت خطوة حتى ذكرت تعهدي فتراجعت وانا اجدد قسمي كي لا احملها على اساءة الظن بي .

فقال له ريكمبرج ، انت حر في فعل ما تشاء ولكني لو كنت في مكانك

– ومرغريت ؟

– ما دخل مرغريت في هذا الشأن العلي دفعتك الى خيانتها ولكني اردت ان اقول اني لو كنت في مكانك لبحثت وعرفت اسم تلك المرأة فاذا وجب على المرء ان يعرف مبغضيه فقد وجب عليه ايضاً ان يعرف محبيه .

– لا تحثني على هذا الرأي فاني ميال الى اتباعه لا سيما واني لم ازل متأثراً من صنع هذه المرأة .

– واذا كان ذلك فانت المصيب واني افتخر بأن أكون انا الذي ارتأى عليك هذا الرأي . وبعد فما الذي ترجوه من مرغريت وهي متزوجة وهب انها ضعفت لما تجده من حبك ومن عنف زوجها ووافقتك على الفرار ، اتحسب ذلك صنعاً شريفاً يخلق بمن ينتسب الى اسرة كولدراي .. انك تحسب يا رينالد انك تنقذ مرغريت بحثها على الفرار ولكنك تصم شرفها فيما تفعل بوصمة عار لا تمحى الى الابد وتضيع تلك

الثروة التي لا يحق لك ان تضيعها فانك لم تكسبها بل ورثتها عن ابيك ووجب عليك ان تورثها لبنيك بل انت عبد شرفك واسمك واي شرف يبقى لك وانت تغوي المحصنات فاذا اردت ان تبقى شريفاً وان تصون ذلك الاسم الشريف الذي ورثته من ابيك فلا تبحث عن تلك المرأة التي احسنت اليك اذا اردت ولا تحث مرغريت على الفرار كي تحترم تلك التي تحبك وتحترم الشرف نفسه وتحترم نفسك .

وكان ريكمبرج يكلمه بلهجة ملؤها الاخلاص ورينالد مطرق مفكر لا يجيب وقد بدت عليه علائم الاقتناع فقال له ريكمبرج .

كفى الليلة نصحاً وارشاداً فاذهب ونم ولا تنس انه يجب ان تذهب غداً الى الكردينال .

وعند ذلك افترق الصديقان ودخل كل الى مخدعه فنام وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ذهب كلاهما الى اللوفر فلقيهما الكونت لورجيبيرى وادخلهما الى الردهة التي يجتمع فيها من يلتمس مقابلة الكردينال .

وكان عدد المجتمعين في تلك الردهة من النبلاء يزيد كثيراً عن عدد الذين يحضرون لمقابلة الملك .

وقد رأى رينالد بين اولئك الجموع الدوق دي فيلان ينظر اليه نظرات تتقد ناراً .

وكان هذا الدوق في الخامسة والستين من عمره وقد خط

الشيب شعره ولكنه كان قوياً شديداً منتصب القامة كأنه لا يزال جندياً يخوض غمرات الحروب .

وكان مشهوراً بانه من اكابر النبلاء ومن اعاظم القواد ولكنه لم يكن معروفاً بالذكاء ولم يرد عنه ما يدل على العلم والحذق

وقد خدم في الجندية ثلاثين عاماً فتعود السيادة ولهجة الامر فكان وجيز الكلام اذا تكلم مستعطفاً خاله السامع يصدر امراً وهو يتكلم بلهجة تدل على وثوقه من الطاعة والامتثال كانه يأمر جنوده الاقدمين .

وكان منزهاً عن العيوب فلم يشتهر عنه انه اتصل بامرأة قبل زواجه ولم يقامر على تفشي القمار في ذلك العهد بل كان خير قدوة للجنود والقواد .

فلما تزوج استحالت اخلاقه فانه حين رأى استعصاء امرأته وايقن انها تكرهه استنتج انها تحب سواه فعضت الغيرة قلبه وهاج ثائره فبات كالمجانين .

ومع ذلك فقد أراد ادخال امرأته الى البلاط وجعلها من نساء الملكة اسوة بكبار النبلاء وهو يعلم ان ذلك يفسح لقلبه الغيرة ولكنه لم يجد بداً من الاقتداء بالاشراف .

وقد هان عليه الأمر لما كان يعلمه من ان كل متزوج يحق له ان يأتي بأمرته الى البلاط ويذهب بها فيتيسر له مراقبتها ولا يكون قد خرج عن قيود النبلاء .

وهو انما جاء الى اللوفر لمقابلة الكردينال والسعي لنيل هذا الامتياز .

وكان ريشيله في ذلك العهد مريضاً منهكاً من التعب ولكنه كان مع ذلك يهتم بادارة الشؤون ويفرق الانعامات بالرغم عن اضطراره الى ملازمة غرفته فانه لم يكن يذهب الى الملك ولكن الملك كان يأتي اليه .

وعلى ذلك فان البلاط الحقيقي لم يكن في ردهة الملك بل في ردهة الكردينال .

وكان النبلاء والنبيلات المقربون يجتمعون في الليل في قاعاته فيقامرون وهو مضطجع في سريره يراقب ذلك اللعب .

حتى ان لويس الثالث عشر نفسه الذي قضى العمر خاضعاً لهذا الرجل الشديد كان يحضر الى قاعاته في الليل ويلعب مع اللاعبين اكراماً لهذا الرجل العظيم .

بل انه كان في اواخر أيامه يظهر له من الرفق والعناية والاجلال ما لم يظهر بعضه لامرأته نفسها ولا لأحد من أمراء أسرته

وهو انما كان يفعل ذلك لاعتقاده ان الموت سينقذه قريباً من هذا الرجل الذي كان الملك الحقيقي في حين ان الملك نفسه لم يكن غير مثال للملك .

وكانت تلك القاعة غاصة بالنبلاء كما قدمناه فلما دخل رينالد نظر اليه الدوق نظرة منكرة ثم تكلم مع من كان حوله فأيقن رينالد ان الحديث كان عليه اذ رأى جميع الانظار قد اتجهت اليه .

فدنا رينالد من الجماعة وقال الدوق بصوت مرتفع كي يسمعه رينالد .

هذا ابن رجل أدركه الخراب يدعى المركيز دي كولدراي وقد جاء الى باريس يلتمس عملا يسد به الرمق ولو سمحنا له ان يعيش على نفقتنا لما إستاء .

وكان ريكمبرج قد تقدم أيضاً مع المركيز فلم تفتها كلمة من الحديث وأيقنا ان الدوق لم يقل ما قاله بصوت مرتفع الا بغية الاهانة والتحقير .

فحاول المركيز ان يتقدم ويجيب ولكن ريكمبرج أوقفه ودنا من الدوق فقال

يقولون يا سيدي الدوق انك من الاشراف وأنا أعلم انك قائد باسل ولذلك يسوءني ان ارى رجلا مثلك ينحط الى النمائم والكذب لغاية لا استطيع ادراكها .

– فقال له الدوق بلهجة المتوعد ، ماذا تقول

– أقول يا سيدي الدوق انك تعلم يقيناً بأن المركيز دي كولدراي مات مخلفاً لولده ثروة عظيمة .

وانك تعلم يقيناً أيضاً ان هذه الثروة لا تزال موجودة وانها في يد الكونت دي مولاري الذي استبد بها نابذاً قواعد المروءة والعدالة والشرف .

– وماذا يهمني ذلك ولكني قلت ان المركيز أدركه الخراب فهل قلت غير الحق ؟

– ولكنك تعلم يقيناً ان المركيز لا يعيش على نفقات أحد وانك لولاه لما كنت قادراً الان على النميمة والكذب .

فقال له الدوق بلهجة العظمة ، من أنت أيها الرجل

ومـاذا تريد مني ؟

– أنهم يدعونني الكولونيل ريكمبرج وقد كنت مثلك من ضباط جلالة الملك فاعلم الآن اني لا آذن لك ان تقول ما يشين صديقي المركيز دي كولدراي .

فابتسم الدوق إخفاء لغضبه وقال ، اذا لم أمتثل لأمرك فماذا تصنع ؟ فدنا منه ريكمبرج وحدق به ثم قال :

اني أعاقبك بفرك أذنيك كما يعاقبون من ساءت تربيته من الغلمان .

فاصفر وجه الدوق وقال ، أرى ان المركيز سعيد بمدافعة رجل افاق مثلك عنه ولكن ذلك يحمل أيضاً على الاشفاق .

– ولكن سيف المركيز يعادل سيفي ولا تزال تذكر انه أنقذك من الموت منذ اسبوعين .

فدنا المركيز من ريكمبرج وقال له بصوت يتهدج من الغضب كفاك ترحمه .

ثم التفت الى الدوق وقال له ، ماذا تريد ان تقول ألعلك تريد دعوتي الى القتال ؟

فقال له الدوق ، يظهر انك بطيء الفهم وقد كان يجب ان تعلم ذلك من قبل

قـال ليكن ما تريد يا سيدي الدوق ثم دنا منه وهمس في أذنه قائلا : ان مرغريت تصبح قريباً أرملة .

ولم يسمع أحد ما قاله المركيز ولكنهم رأوا وجه الدوق قد احمرّ فما شككوا بأن المركيز قد أهانه اهانة عظيمة .

أما الدوق فانه قال له ، حسناً فسنلتقي في الساعة الرابعة بعد الظهر في الغابات فقال له ريكمبرج ، وأنت فاجتهد ان تأتي بشاهدين اذا تمكنت من ايجاد شهود .

وكانت هذه المحاورة كلها قد قيلت بصوت منخفض فان الكردينال كان مشدداً تشديداً عظيما في منع المبارزة فلا يجسر أحد على المجاهرة بها ولا سيما في قاعاته ولذلك لم ينتبه اليهم أحد من الحاضرين غير الذين اشتركوا بالحديث .

وفي تلك الساعة جاء الكونت لورجييري فاجتمع بريكمبرج والمركيز وقال لهما ، اني لم أجد أحداً أعتمد عليه في ادخالكما الى الكردينال وفوق ذلك فان المرض مشتد اليوم على نيافته فهلموا بنا اليوم ولنعد في الغد فلا بد من الصبر في قرع مثل هذه الابواب .

فقال له المركيز ، ولكن ان طال الأمر أزعجناك وأنت مضطر الى السفر .

قال ، كلا فقد عولت على البقاء في باريس .

قال له ريكمبرج ، كيف ذلك ألا تعود الى اسبانيا ؟

قال ، كلا فان السبب الذي كنت أحاذره قد زال بفضلك .

فذهل ريكمبرج وقال ، أبفضلي أنا ؟ وكيف ذلك ؟

– ذلك أنه كان لي هنا عدو هائل يريد قتلي وقد أقسمت أن لا أقتله وهذا العدو الذي كنت مضطراً الى الفرار منه للوفاء بيميني قد قتلته أنت .

– أهو ذلك الشرير الذي كمن لك في غابات أمبواز ؟

– هو بعينه .

– لقد عرفت الآن لماذا أردت العفو عنه حين كنت راكعاً على صدره ، على أنه يسرني أني لم أصغ اليك فقد نقص عدد الاشرار واحداً في فرنسا .

فقال رينالد ، لقد أصبت يا ريكمبرج فان هذا الرجل لا يستحق أن يعيش ، وكان المركيز يعرف سر هذا الرجل وقد كتمه عن ريكمبرج .

فقطب الكونت حاجبيه وقال ، أتعرف هذا الرجل يا مركيز ؟

قال ، كلا ولكن صديقي ريكمبرج حكى لي هذه الحادثة فوافقته على قوله الآن حين قال إنه من الاشرار .

فتنفس الكونت الصعداء وقال لهما ، اذن الى اللقاء غداً في مثل هذه الساعة .

ثم افترقوا فعاد كل الى منزله .

أما الدوق دي فيلان فانه بعد أن انتظر ساعتين في ردهة الكردينال عاد الى منزله وهو ساخط صاخب فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي لقي فيها من يجسر على مقاومته أذ انفق معظم العمر آمراً ناهياً وقد راعه ان يرى فتى كالمركيز رينالد يجسر على مبادرته بما كان .

وقد رأى جميع من كان في المنزل ان الغضب كان يتأجج في صدره كالبراكين .

وكذلك مرغريت فقد رأت عينيه تتوقدان وسألته عن

سبب غضبه .

فقال لها ، لا يخلق بك التجاهل بعد ان شجعت هذا الوقح فجسر على ما لا يجسر عليه سواه .

– من هو هذا الوقح الذي تعنيـــه ؟

– انك تعرفينه كما أعرفه فهو المركيز دي كولدراي .

– ماذا فعل ؟

– انه اضطرني الى دعوته الى القتال .

– متى وأين ؟

– في صباح اليوم عند الكردينال .

– وماذا نتج عن ذلك ؟

– نتج اننا سنتقابل في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم .

فارتعدت مرغريت ولكن ظلم الدوق واتهامها بما هـــي بريئة منه أثار غضبها فقالت لـــه :

– انك مازلت قد شرفتني بالاباحة بمثل هذا السر الذي يكتمه عادة سواك فقد حق لي ان أسألك عن أمر أريد ايضاحه فقل لي،متى رأيتني شجعت المركيز دي كولدراي على ما تدعيه؟

قال ، يظهر انك ضعيفة الذاكرة ، أنسيت كيف اضطربت يوم التقيت به فجأة في فندق امبواز فاني ما علمت بأنك تعرفين هذا الفتى قبل ذلك اليوم وما أرشدني الى تلك المعرفة غير ذلك الاضطراب .

– سأجيبك على قولك هذا في الحـــال لأنك ليس لك ما تؤنبني عليه غير ما رأيته من اضطرابي، أليس كذلك ؟

– هو ذاك .

– حسناً والآن قل لي كيف حملك المركيز على ان تدعو الى القتال وماذا قال لك وماذا فعل ؟

– انه كان يهزأ بي ويظهر أمامي بمظهر القحة لأنه يعلم اني زوجك وانك تميلين اليه فحسب انه يحق له ان يهزأ بي ولكنني لا أحتمل ذلك أيتها السيدة فلا يمس شرفي وأنا في قيد الحياة .

– لا فائدة يا حضرة الدوق من هذا الاحتجاج وهذا الوعيد فانك في كل ما قلته لم تظهر برهانا يدعوك الى طلب قتاله .

– كيـــف ذلك ؟

فقاطعته قائلة دعني أتم حديثي فقد تجاوزت الحد بغيرتك الجهنمية كأنك تريد ان تدفعني الى الحديث ، اذن فاسمع .

اني قبل ان أرى المركيز في فندق امبواز رأيته مرة في في منزل البارونة دي ميراند فأثر على قلبي أبلغ تأثير ولكن ثق اني لم اكلمه ولم يكلمني كلمة ولم نتبادل نظرة تدل على اتحاد القلبين حتى اني لم أكن أعلم انه يحبني لو لم تنبهني الى ذلك .

هذه هي حقيقة أمري الى ذلك اليوم وكنت أود أن أخبرك بها في حينها لولا هذه الظنون التي هاجت بك فدعتني الى اغفال أمرك ولكنك منذ سميتني باسمك ، وهو اسم لا أريده ، أردت ان تجعل حياتي عذاباً فوجب علي ان أجعل حياتك جهنما فاسمع

ثم وقفت وقد ظهرت عليها علائم الاشمئزاز والانفة وقالت:

انك غيور ولقد أصبت بهذه الغيرة فقد بنيتها على أساس متين . نعم ان هذا الرجل لم أكد أعرفه وكان بوسعك ان

تجعلني أنسى حبه ولكنك أنت الذي جعلتني اهواه

اني حين اوازن بين وجهه الجميل ووجهك المجعد وأقابل بين عينيه المتقدتين بنور السلامة وبين عينيك اللتين لا أقرأ فيهما غير الريب والظنون واني حين رأيتك تنكر جميل هذا الرجل بعد ان انقذك من الموت وانقذني من الافتضاح وحين باينت بين قلبه النبيل وبين قلبك الذي لا يجول فيه غير الانانية وحب الذات. اني حين رأيت كل ذلك شعرت بقوة سحرية تجذبني اليه فلم استطع الرجوع.

نعم اني احبه ولا أحب الحياة الا من أجله ولا أريد الموت لا بهواه..

وكان الدوق يصغي اليها صابراً ولكنه لم يستطع الصبر بعد أن بلغت بأقرارها الى هذا الحد فهجم عليها وقبض على يدها والقاها الى الأرض.

فتألمت ألماً شديداً ولكنها لبثت تقول: نعم أحبه وتكرر هذا القول حتى اغمي عليها عند قدمي جلادها.

فنادى الدوق الخادمة ان تحملها الى غرفتها وهو يقول انها حكمت على نفسها بالموت.

ولبثت مرغريت ربع ساعة ضائعة الرشد حتى اذا عاد اليها الصواب استحالت تلك الهمة الى ضعف فجعلت تبكي.

ولكن هذا الضعف لم يطل فانها مسحت عينيها وهي تقول، كلا اني لا أسمح له بذلك.

ثم نادت خادمتها وامرتها ان تدعو لها السائق بابتيست.

فذهبت الخادمة مسرعة الى ذلك السائق فوجدته في الاصطبل يلقي الاوامر على اتباعه فأسرع اليها وقال لها وهو يتنهد، ادنا الميعاد أخيراً ؟

قالت، أي ميعاد ؟

- ميعاد زواجنا.

- انك كثير التسرع فان المرء لا يتزوج وهو منقبض النفس

- ما يدعوك الى هذا الانقباض ؟

- حالة سيدتي فقد حملتها الى غرفتي مغمياً عليها عند قدمي الدوق، فكيف أستطيع الزواج وانا أرى هذا المثال ؟

- ولكن الدوق شيخ يكاد يبلغ السبعين ولم أبلغ أنا هذا العمر بعد

- سيان عندي فاني مازلت أرى سيدتي على هذه الحال لا أوافق على هذا الزواج.

- احذري يا مرغريت فانك تدفعيني الى اليأس واني جدير بقتل الدوق والدوقة والعالم اجمع في سبيلك.

- أظن ان قتل الدوق وحده يكفي.

- كيف تقولين ذلك أحدث حادث جديد ؟

- تعال معي الى سيدتي الدوقة فهي تقول لك ما تريده منك

- انها ما دعتني اليها دون شك الا من أجل هذا الفتى

- لا تذكر اسمه حذراً من أن يسمعك أحد فقد بات جميع من في هذا المنزل جواسيس الدوق.

ثم أخذت بيده وسارت واياه الى غرفة الدوقة

كانت مرغريت قد كتبت كتاباً ووضعتـــه على المائدة فترددت هنيهة حين دخل السائق ثم قالت له

لا أسألك اذا كنت ميالاً الى خدمتي أو الى خدمة الدوق وأنت مخير بين خدمتي وخدمته فاذا أردت خدمتي أرسلت هذا الكتاب الى صاحبه واردت خيانتي أرسلته الى الدوق

– لا أجد ما يحمل سيدتي على الشك باخلاصي وقد برهنت لها عن هــذا الاخلاص في امبواز .

– ولاجل هذا دعوتك

– اني رهين أمر سيدتي .

– أتذكر ذلك الفتى النبيل الذي أنقذنا من القتل ؟

اليس هو المركيز دي كولدراي ؟

– هو بعينه فان هذا الرجل يقيم الآن في باريس وأريد ان يصل اليه هذا الكتاب قبل الساعة الثالثة .

– ان الوقت متسع يا سيــدتي فان الظهــر لم ينتصف بعد فأين يقيم المركيز ؟

فاضطربت مرغريت وقالت ، لا أعلم

فحك بابتيست اذنه وقال ، لــقد بدأت الصعوبة فهل المركيز معروف في باريس ؟

– أظن أنه لم يأت اليها قبل الآن ولكن بصحبه رجـل معروف يدعى الكولونيل ريكمبرج .

– حسناً يا سيدتي فسأحاول البحث عنه

– بل اريد انتضمن لقياه وانتفوز مها كلفك الامر من العناء.

– اطمئني يا سيدتي فسأفوز .

فأعطته الكتاب وقالت لاتنس انه يجب ان تعطيه أياه قبل الساعة الثالثة او تذهب الفائدة .

فوضع السائق الكتاب في جيبه وانصرف وهو يقول ان المركيز قدم حديثاً الى باريس فهو لم يشتر منزلا بعد ولا شك انه يقيم في احد الفنادق ولما كان كل نبيل يتردد الى البلاط فهو يقيم دون شك في فندق قريب من اللوفر .

وقد ذهب تواً الى شارع سانت اونوريه وجعل يسأل في كل الفنادق عن المركيز وعن ريكمبرج .

حتى وصل الى فندق يدعى فندق الآبار المتكلمة فوجد في ردهته اربعة جنود يتخاصمون وقد بسط ورق اللعب على مائدة امامهم .

فلما رأوه اسرع واحــد منهم اليه فقبض على ذراعه وهــو يقول لرفاقه ان هذا الرجل يفصل في خلافنا .

ثم جره الى المائدة وقال له ، اسمع حكاية خلافنا ذلك ...

فقاطعه بابتيست قائلاً ولكنني مستعجل ولا استطيع البقاء دقيقة .

فهز الجندي كتفه بعنف وقال له اتسمح ايها الوقح او ..

– ولكنني قلت لك أنني لا أستطيع أن أضيع دقيقة

– بل تضيع ساعة وساعتين ولا بد لك أن تجيب على مانسألك

فتخلص بابتيست منه بحركة عنيفة وحاول الهرب فانقض الثلاثة عليه عند ذلك فقبض واحــد منهم على ذراعه والثاني على كتفه والثالث على اذنيه واشار الرابع باصبعه الى الورق

المبسوط على المائدة وقد قبض باحدى يديه على شاربيه وجره جراً عنيفاً الى المائدة فأراد المنكود التخلص فاصطدم بالمائدة فاهتزت وسقط الورق عنها بحيث تبعثر ولم يعد يمكن الفصل فيما كانوا مختلفين عليه .

فهاج الجنود لما رأوه من عصيان الخادم وهجموا عليه يوسعونه ضرباً اليما فتسلح بكرسي وجعل يضرب بها كما اتفق وهو يحاول الفرار ويقول لهم متوعداً لو كان معي الكولونيل ريكمبرج أيها الأنذال لما جسرتم على هذا العدوان .

فصاح احدهم قائلا وقد امتنع عن ضربه ، اتعرف الكولونيل ريكمبرج ؟

– كيف لا أعرفه وأنا قادم اليه .

– ولماذا لم تقل ذلك في البدء ايها الابله .

فاتقدت عينا بابتيست بأشعة الرجاء وقال، العلكم تعرفونه؟

قال ويحك ايوجد جندي في الجيش لا يعرف ريكمبرج .

– اذن ستقولون لي اين يقيم .

– كيف ذلك اهو في باريس ؟

– لقد جاءها منذ بضعة ايام .

– اذن فهو مقيم دون شك في فندق الاوزة السوداء وهو على بعد خطوتين من هنا فقد كان يقيم فيه حين تشرفت بالانتظام في سلك فرقته .

فتركهم بابتيست ولم يعترضوه بعد ان عرفوا بأنه يبحث عن ريكمبرج وانصرف راكضاً الى ذلك الفندق وسأل صاحبه

عن المركيز دي كولدراي .

فأجابه انه دخل الآن الى مائدة الطعام .

قال يجب ان اراه في الحال لشأن خطير .

– ولكن من أنت ؟

– قل له انني سائق تلك المركبة التي انقذ من كان فيها في الغابة

فذهب صاحب الفندق الى المركيز واخبره بما سمع فاضطرب المركيز وقال ليدخل في الحال وقد أيقن ان السائق رسول مرغريت .

وبعد هنيهة دخل بابتيست واعطاه الكتاب فاخذه رينالد بلهف وفض ختامه بيد ترتجف

الفصل الحادي عشر

وقد رأى ريكمبرج بابتيست أيضاً فقطب حاجبيه وقال في نفسه ان الغرام سيشغله على الاهتمام بثروته

اما رينالد فانه جعل يقرأ الكتاب وريكمبرج يراقبه فلم يجد على وجهه ما كان يتوقعه من علائم الارتياح بل رآه قد ضغط على الورقة بيده كانه قد تلقى فيها خبراً سيئاً .

وكان بابتيست يراقبه وقد ذعر حين رأى ما كان من أستيائه ورأى ان المركيز لم يقل كلمة فقال له :

أي جواب يأمر مولاي ان أحمله الى الذي ارسلني .

قال ، قل لها انها تطلب الي الآن اضحي شرفي وهو أعز من حياتي ولكني سأمتثل .

– اهذا كل ما تأمر به يا مولاي ؟

فتنهد رينالد وقال ، أهي تريد ان انتزع قلبي من صدري وأطرحه عند قدميها .

فوقف ريكمبرج وقد اضطرب لما رآه من يأس صديقه فنظر الى الخادم وقال لقد سمعت جواب المركيز فاذهب به الى الذي أرسلك .

فانحنى الخادم وانصرف بعد ان نظر الى رينالد نظرة حنو واشفاق .

واما ريكمبرج فانه عانق صديقه عناق الأخاء وقال له بلهجة حنان صادق ، لا يجب ان تهتم الآن بأمور الغرام ايها الصديق فانك ستبارز خصماً عنيداً في الساعة الرابعة .

فهز رينالد رأسه وقال كلا وأسفاه .

فاجفل ريكمبرج وقال ، كيف ذلك ؟

فدفع اليه المركيز الرسالة التي وردته من مرغريت فاخذها ريكمبرج وقرأ مسرعاً ما يلي .

« سيدي

« اقسمت لي مرتين انك تحبني وانك تضحي كل عزيز لديك

في سبيلي وقد حان زمن امتحانك وتبين صدق قولك »

« ان الدوق دعاك في صباح اليوم الى القتال وعينتما موعد المبارزة في الساعة الرابعة بعد الظهر »

« فاعلم اذن ان هذا البراز مستحيل الا اذا اردت ان تحول الدماء بيني وبينك »

« على اني استحلفك بالله وبما بيننا من الحب ان تمنع هذه المبارزة فاذا فعلت كنت مدينة لك ما حييت بجميل لا انساه »

« مرغريت »

فغضب ريكمبرج بعد تلاوة الرسالة وجعل يسير في القاعة ذهاباً وأياباً وهو يقول :

ان ذلك لا يمكن ان ينتهي على هذا الشكل ولن يقال ان ريكمبرج رفض قتال من يدعوه الى المبارزة .

ثم مشى الى الباب فقال له المركيز الى اين ؟

قال الى الدوق .

– كلا انك لن تذهب .

– لا شك انك جننت يا رينالد أتريد ان يقول الدوق وشهوده أننا خفنا لقاءه ، الا يجب ان أخبره على الأقل بهذا الشأن الذي لا تستطيع ان تتولاه انت ؟

– لقد أصبت ولكني اريد منك قبل ان تذهب ان تقسم لي بأنك لا تدعو الدوق الى مبارزتك .

– ما هذا الطلب الغريب ؟

– أقسم او انك تذهب .

– وان أبيت ان اقسم فماذا يكون ؟ انك حر التصرف بشرفك كيف شئت ولكن لا يحق لك التصرف بشرفي .

فقال بصوت منخفض اواه يا مرغريت ثم قال لريكمبرج أنك مصيب ايها الصديق فيما تقول ولكنك مع ذلك لا تذهب وانا اعلم يقيناً اني لست من رجالك ولكني اعلم يقيناً ايضاً انك ستقتلني فاستريح ، فاقتلني .

فتأثر ريكمبرج لما رآه من يأس صديقه ومد يده للمركيز مصافحاً اياه .

فعانقه رينالد وهو يقول ، كيف تحبني ايها الصديق بعد هذه الاساءة التي اسأت بها اليك .

ثم جلس على كرسي ووضع رأسه بين يديه وجعل يبكي

فرق فؤاد ريكمبرج له وقال كفى ايها الصديق فان المصيبة لم تحل كما تتوهم وكما توهمت أنا حين بدئها فلو أراد أحد أن يفتخر أمام الناس بقوله أن ريكمبرج أبى مبارزته لضحكوا عليه وهزؤا به .

فقال له المركيز ، وفوق ذلك فاني أقول أمام كل الناس انني أنا الذي منعتك وأنك قبلت منعتي .

سيتفق على كل ذلك انما أرجوك ايها الصديق أن تأذن لي بمقابلة الدوق كي أخبره بامتناعنا عن المبارزة .

– على شرط أن تضمن لي ابقاءه على قيد الحياة .

– أعدك بذلك .

– أتقسم بشرفك ؟

– أقسم .

– اذن سر وافعل ما تشاء .

فسار ريكمبرج وهو مستاء مما أظهره من الضعف حتى وصل الى الدوق فقابله الدوق بمنتهى العظمة والاستكبار وقال له :

– ما دعاك الى أن تزورني هذه الزيارة الغريبة ؟

قال : ان الزيارة غريبة كما قلت لأني قادم لإخبارك بأننا لا نبارزك .

فحسب الدوق أنه لم يحسن الفهم وقال له أأنت تقول لي هذا القول ؟

– نعم يا سيدي الدوق ولا حاجة الى اظهار أسفنا لهذا الاتفاق .

– ولكن يجب أن توضح لي هذا النهج الغريب على الأقل .

– ذلك مستحيل ايها الدوق .

– أظن أنك تريد المزاح فقد اتفقت مع الشهود .

– اننا لا نريد مبارزتك أنت وأما شهودك فاننا نبارزهم بملء الرضى .

– وأي دخل لشهودي بهذا الشأن ومع ذلك فسأقترح عليهم هذا الاقتراح . غير أنه لا بد لي من أن أظهر لهم السبب في امتناعكما عن قتالي .

– لقد قلت لك يا سيدي ان ذلك محال فاننا مقيدان بما يشبه اليمين .

ولكنني لا أستطيع تصديق ذلك .

– ومع ذلك فلم أقل لك الا الحقيقة .

– انك لو أعدت هذا القول عشرين مرة لما صدقته وأرى أنه يحق لي أن أعتبر ذلك اهانة .

– لا أمنعك عن أن تعتبره كما تشاء .

كما أنك لا تستطيع منعي عن اعلان جبنكما على رؤوس الاشهاد .

فاصفر وجه ريكمبرج وهاجت كوامن الغضب في صدره ولكنه وعد رينالد بأن لا يقاتل الدوق فعاد الى السكينة وقال:

– لقد كنت قائداً مثلك يا سيدي الدوق وأنا لا أحدثك الآن محادثة نبيل مع نبيل بل محادثة جندي مع جندي فأقول أنك أنت الذي أهنتني فاني اتيتك بهمة سليمة فاغتنمت هذه الفرصة لاهانتي ونهجت نهجاً لا يليق بالشريف ولا يجمل بالجندي.

فوقف الدوق مغضباً وقال ، أتهينني في منزلي ايها الرجل ؟

قال ، كلا ولكنك انت الذي أهنتني في منزلك .

– أتعرف أيها الرجل الذي أبى أن يقاتلني وتجاسر على اهانتي أني أستطيع أن أطردك من منزلي بواسطة الخدم .

فضحك ريكمبرج وقال ، اذا جسرت فافعل .

فاحتدم الدوق غيظاً لما رآه من سكينة ريكمبرج وقال ، سوف نرى .

وجعل ينادي الخدم كلا باسمه ويقول أسرعوا جميعكم بالعصي

وقد خرج من تلك الغرفة وعاد مسرعاً يحمل غدارتين .

وعند ذلك فتح الباب وظهرت مرغريت .

وأما ريكمبرج فانه لبث واقفاً في مكانه ينظر الى الدوق نظرة الا اخر حتى اذا أتت مرغريت انحنى امامها وحاول الانصراف .

فقالت له مرغريت ،أرجوك ان تبقى يا سيدي فانك عارف بحوادثنا كما يظهر وأحب أن يسمع أمامك ما أريد قوله ايضاً

ثم التفتت الى الدوق وقالت له، احب ان اعلم السبب في صياحك وفي تسلحك .

قال ، اني أستطيع ان لا ارد عليك فقد كنت اليوم غريبة عني ولكني اجيبك فأقول ، ان هذا الرجل قد تجاسر على اهانتي وأني أريد تأديبه وطرده من منزلي .

– كلا انك لن تفعل .

فهز الدوق كتفيه ولم يجب

فقالت ، كلا انك لن تفعل ذلك وانا في قيد الحياة وذلك لأني أنا التي رجوت المركيز دي كولدراي ان لا يقاتلك .

– انت . . . انت جسرت على ذلك

– نعم كتبت له فقد ذكرت في آخر لحظة انك زوجي وانه يجب علي ان أحميك حتى من نفسك .

اني أرى عليك ملامح الانذهال ولو أردت لكان ذهولك اعظم من ذلك فانك كنت تستطيع ان تجعلني امرأتك امام الناس او تجعلني رفيقة شيخوختك غير انك جريت ابعد شوط في غيرتك فتجاوزت كل حد .

ولقد أردت ان تستميلني اليك بالعنف ولكنك أخطأت

فان القلوب لا تستمال بالقسوة .

أما اليوم فقد انتهى كل أمر بيننا لأنك تجاسرت على ضربي فما انا بعد الآن بامرأتك ولكني اسيرتك وسأحتمل عبء هذا النير الثقيل بملء الصبر الا اذا مسست شرفي فيكون بيننا فراق الى الأبد واحاول الخلاص منك كما يحاول الاسير الافلات من أسره .

فأجابها الدوق قائلاً ، سوف نرى .

وعند ذلك اقبل الخدم مسلحين بالعصي وهم نحو عشرة فأشار الدوق الى الخدم وقال لهم ، اقبضوا على هذا الرجل

فقال له ريكمبرج لتسقط تبعة دماء هؤلاء الأبرياء على رأسك ثم جرد حسامه وقال ، كل من دنا مني فهو ميت لا محالة .

وهم ان يهجم عليهم ولكن مرغريت اعترضت بينه وبين الخدم وقالت لهم ، من يجسر منكم على ان يضربني .. ان عصيكم لا تصل اليــه قبل ان تصل الي فاخرجوا اني آمركم بالخروج .

فقال الدوق ، وانا آمركم ان تبقوا وان تمتثلوا لامري .

ثم التفت الى امرأته وقال لها ، اسرعي بالعودة الى غرفتك او أطلقت النار .

وقد صوب غدارته الى ريكمبرج فوقفت مرغريت في وجهه وقالت ، أطلق نارك علي .

قال كلا لا أطلقها عليك بـل على الجبـان الذي يحتمي بك لينجو من العقاب.

أما مرغريت فانها تعلقت بملابس ريكمبرج بحيث لم يعد

يستطيع الافلات منها ثم قالت لزوجها ، ليس هو الجبان بل أنت هو . . اطلق نارك علي ايها الشقي فاني اؤثر الف مرة الموت على العيش معك .

وقد تبودلت هذه الكلمات بسرعة ووقف الخدم موقف التردد فلم يعلموا أيقدمون ام يحجمون وكذلك ريكمبرج فقد ضايقته مرغريت جداً حتى انه لم يعد يستطيع الدفاع عن نفسه

واما الدوق فقد اراد التخلص من هذا الموقف الحرج فهجم على مرغريت فقبض على يدهـــا وجرها بعنف شديد وهي معلقة بثياب ريكمبرج فجر الاثنان معاً .

واغتنم ريكمبرج هذه الفرصة فهجم على الدوق فجرده من الغدارة وخرج يتهدد بها الخدم وهم لا يجسرون على لحاقه فنزل السلم مسرعاً وبعد هنيهة وصل الى الشارع فتنفس الصعداء وهو يقول

ليس هذا الدوق بانسان بل هو وحش مفترس وسيكون من الد أعدائنا .

واما مرغريت فانها حين رأت ريكمبرج قد توارى عـن الانظار نظرت الى زوجها نظرة المتذمر وقالت له .

أذكر ما قلته لك منذ هنيهة وهو أني أصبحت أسيرتـك منذ اليوم واني أشير عليك بأن تراقبني اشد المراقبة فاني اذا رأيت سبيلاً الى النجاة لا أتردد في الهرب .

ثم تركته وذهبت الى غرفتها.

وكان الدوق في حالة من الهياج لا يصفها قلم فقد كان يرجو أن ينتقم من المركيز فلم يستطع لتخلفه عـن المبارزة واراد

الانتقام من ريكمبرج فلم يستطع لتداخل امرأته في شأنه فلم يبق لديه غير امرأته وعول على ان يلقي صواعق غضبه عليها فانها هي السبب في كل هذه الحوادث وهي التي أنذرته بالهرب وهي التي تريد التخلص منه فكاد يتميز من الغيظ وقال، سوف نرى

ثم التفت الى الخدم وقال لهم .

انكم منذ أعوام كثيرة في خدمتي ولم تعرفوا سيداً سواي الى الان ومع ذلك فقد انكرتموني حين حاجتي اليكم .

وقد كان يجب أن أطردكم جميعاً لأنكم لم تسرعوا الى تلبية أمري ولكنني علمت السبب الذي دعاكم الى التردد فاردت أن أغفر لكم هذه الزلة على ان لا تعودوا الى مثلها بعد الآن .

أما الذين لا يريدون ان يمتثلوا لأمري مهما كانت تلك الاوامر فلينصرفوا لفورهم وأني أدفع لهم مكافأة راتب عام فلم يطلب أحد منهم هذا الطلب .

فابتسم الدوق ابتسامة الرضى وقال :

واما من يمتثل لاوامري فاني أضاعف راتبه منذ اليوم على أن يخضع لي خضوعاً لا حد له ولا قيد فيه ويجب عليكم ان تراقبوا الدوقة كل المراقبة فلا تدعوها تخرج من المنزل الا اذا كانت معي ، أتمتثلون ؟

فاجابوا جميعهم بصوت واحد نعم نعم حتى بابتيست نفسه كان صوته أرفع من أصواتهم فانهم يفعلون اكثر من ذلك بعد مضاعفة رواتبهم .

فاطلق الدوق سراحهم وتفرقوا وهم يهتفون له

وأما ريكمبرج فانه حين وصل الى الشارع قال في نفسه يجب الآن ان أفحص هذا المكان ما زالت الحرب قد اشهرت بيننا وبين الدوق .

وكان أول ما خطر له ذلك المنزل الذي أخبره رينالد انه هرب منه فقال في نفســه يجب أن أعرف صاحب هذا المنزل فاني غير مقيد بيمين كالمركيز .

وبعد ان فحص ذلك المنزل وعرف الباب الذي خرج منه المركيز ذهب الى دكان قرب المنزل وقال لصاحبها ، اليس هذا المنزل بيت المركيز دي بالبير ؟

قال نعم فقد كان للمركيز ولكنه باعه منذ عشرة اعوام .

– من صاحبه الآن ؟

– الكونت دي مورلاي .

فاضطرب ريكمبرج حتى كاد يسقط لفرط دهشته من هذا الأكتشاف العجيب اذ لم يبق لديه شك ان رينالد حين هرب من غرفة مرغريت لجأ من ذلك الممر السري الى بيت عمه الكونت دي مورلاي أي ان ألد اعدائه كان السبب في انقاذه .

وكان رينالد لا يعرف مكان بيت عمه فذكر ريكمبرج ما رواه له رينالد عـن تلك المرأة التي قالت له حـين انقذته « أن هذا البيت اشد خطراً من البيت الذي هربت منه »

فذكر عند ذلك تلك الفتاة التي جاءت اليه بذلك الصك الذي أمضاه المركيز في حال سكره .

وكان يعلم أيضاً ان هرمين ابنة عم رينالد عرجاء فذكر ان

تلك المرأة المقنعة التي جاءته بالصك كانت تعرج وقد ادعت انها سقطت حين صعودها السلم فصدعت رجلها .

ولكنها لم تكن تمشي مشية المصدوع فلا شك انها هرمين نفسها سرقت الصك من أبيها كي تنقذ ابن عمها وهي التي انقذته ايضاً من تلك الغرفة .

ثم ذكر ان هرمين عوراء فتزعزع اعتقاده لان هذه المرأة التي جاءت بالصك لم تكن عوراء ولم يخطر له ان احدى عينيها من الزجاج .

وقد عاد الى صديقه المركيز واخبره بكل ما اتفق له فلم يجزما ان منقذة المركيز كانت ابنة عمة هرمين فان الليل كان حالكا حين انقذته فلم ير عينيها ولم ينتبه لعرجها .

والان فما الذي حمل هرمين على خيانة أبيها وانقاذ ابن عمها، العل ذلك كان منها لانفطارها على مبدأ العدالة والحق وهي تعلم جور ابيها ام انها كانت تحب ابن عمها المركيز .

وبعد فما يمنعها عن حب ابن عمها بالسر وهو فتى جميل نبيل وفوق ذلك فقد حادثوها بشأن زواجه بها واذا علم المركيز بما كان من حبها واخلاصها الا يحقق رجاءها بهذا الزواج .

كل ذلك كان يخطر لريكمبرج فيراه ممكناً بل يرجحه ترجيحاً ولكنه لم يقل كلمة منه للمركيز فان المركيز لم يكن يريد البحث في هذا الموضوع ويأبى السؤال عن اسم المحسنة اليه .

وقد رأى ريكمبرج ان الصمت اولى وان هرمين اذا كانت هي حقيقة تلك المحسنة فقد تكون لها خير معين في ذلك

المعترك لا سيما متى وثقت تلك الفتاة ان المركيز كان صادقاً في عهده وأنه لا يعلم انها تخون اباها من اجله بالسر .

وعاد الى محادثة صديقه بشأن استرداد ثروته وهما مهتمان بهذين المبحثين كل الاهتمام .

ولم يكن هذا الانشغال قاصراً عليهما بل قد تعداه الى الكونت دي مورلاي فان سرقة هذا الصك كادت تضل صوابه فجعل يراقب كل من في المنزل بمساعدة برجريت مراقبة شديدة.

وقد باتت ثقته عظيمة ببرجريت لا سيما بعد ان عهد اليه ادارة اعماله فانه اظهر من الصدق والغيرة ما دعا الى هذه الثقة

ولكنه مع ذلك دقق في اسئلته عن الصك المسروق حتى علم بعد التحقيق الطويل ان برجريت يحكي لهرمين كل ما يتفق حدوثه في المنزل وكل ما يشرع به ابوها لاهتضام حق المركيز دي كولدراي .

ولم يخطر له ان ابنته قد سرقت ذلك الصك غير انه ذكر ان أبنته لامته مرة بشأن رينالد .

فثارت هواجسه وقال لبرجريت ، هل أخبرتها بما قررناه أمس ؟

قال ، لقد اشرت اشارة الى المشروع اذ لم نتفق عليه نهائياً لاننا لم نجد الرجال الذين نحتاج اليهم بعد .

فلم يعنفه الكونت بكلمة بل طلب اليه ان يراقب خادمة هرمين مراقبة خاصة وقال في نفسه وأنا سأراقب هرمين .

ثم افترقا واغتنم الكونت فرصة اشتغال ابنته بتدبير المنزل .

فصعد الى غرفتها فوجد على مائدتها معدات الكتابة فقال في نفسه .

انها طلبت الي أمس ورقاً فاعطيتها عشر ورقات فلافحص هذه الأوراق .

وقد عد تلك الاوراق فوجدها تسعاً فقال انها كتبت رسالة لا شك فلمن عسى تكون قد كتبت وهي لا تعرف احـــداً في باريس ولا علاقة لها مع احد .

وبعد ان فتش غرفتها تفتيشاً مدققاً نزل الى غرفته ولغرفته نافذة تشرف على ردهة المنزل .

وكان بالفطرة كثير الظنون فساورته الهواجس وتمثل له ان ابنته قد خانته وانها هي سارقة الصك .

وقد وقف في تلك النافذة ينظر الى الردهة وهو يفتكر فرأى فرجيني وهي أخت هرمين بالرضاع وخادمتهـا قد نزلت من السلم حتى اذا انتهت الى الردهة وضعت في صدرها ورقة مطوية

فقال الكونت في نفسه ، لعل هذه الورقة العاشرة المفقودة

وقد خامره الشك حين رآها تخبئها باعتناء وهي ذاهبة الى الباب تريد الخروج منه .

فناداها برفق قائلا ، تعالي يا ابنتي فاني محتاج اليك .

فاجابته من الردهة قائلة ، اني ذاهبة الى السوق لقضاء مهمة

– لابأس فستقضينها بعد ان اكلمك .

فلم تجد الفتاة بداً من الامتثال وصعدت اليه فقال لها ، الى اين انت ذاهبة ؟

– الى السوق كما قلت لك لشراء ابر لسيدتي هرمين .

– وهذا الكتاب الذي خبأته في صدرك .

فتظاهرت الخادمة بدهشة عظيمة وقالت ، اي كتاب ؟

فحال الكونت بينها وبين الباب وقال ، الكتاب الذي خبأته في صدرك حين وصلت الى الردهة .

– ولكنني اقسم لك يا سيدي .

– لا تقسمي بل هاتي الكتاب او أضطر الى اخذه بيدي

ثم قبض على ذراعيها وقال لها بلهجة عنيفة هاتي الكتاب

فترددت الفتاة واما الكونت فلم يتردد ومد يده الى صدرها فمزق ثوبها وسقطت الرسالة على الارض .

فانحنت الفتاة كي تلتقطها ولكن الكونت دفعها فالقاها على الارض والتقط الرسالة بينما كانت فرجيني تفر هاربة من وجهه

اما الكونت فانه بدأ بالنظر الى الغلاف فلم ير عنوانا ففض ختمها وقرأ ما يأتي :

« سيدي

« احذر منذ اليوم ان تخرج من البيت في الليل واذا كنت مضطراً الى مغادرة الفندق ليلا فتدجج بالسلاح واياك ان تخرج وحدك »

ولم تكن هذه الرسالة الموجزة مذيلة بتوقيع ولكن الكونت لم يكن محتاجاً الى قراءة توقيع ابنته ليعلم خطها فضغط على تلك الرسالة بيده حتى كاد يمزقها ونادى خادمه مغضباً فقال له ، قل

لبرجريت يحضر الي في الحال .
وبعد هنيهة جاء برجريت فاعطاه الكونت الرسالة وقال له اقـــرأ .

فقرأ برجريت الرسالة وقال ان الخيانة جلية واضحة .

– نعم وان ابنتي التي خانتني فان هذا التحذير يدل دلالة واضحة على ان الرسالة مرسلة الى رينالد .

– وهذا ايضاً لا ريب فيه .

– ارأيت يا برجريت كيف ان هرمين كانـــت تعبث بك كما يعبثون بالاطفال .

– ولكني غير مخطىء في ذلك يا سيدي بل ان تبعة هذا الخطأ عليك الم أحذرك في البدء من ابنتك حين اردت احضارها من الريف الى باريس ، الم اقل لك انها تعدك جـــائراً هاضماً حق ابن عمهـــا رينالد ؟

ولكنك لم تقتصر على عدم الاكتراث لنصحي بل أمرتني بالخضوع لها في كل أمر كما أخضع لك .

– هو ذاك ولكني كنت أريد الاقتصار بذلك على الامور المنزلية وكنت تعلم يقيناً اني لا أذكـــر أمامها شيئاً من اعمالي ولكنك تجاوزت حد الطاعة وجعلتها مستودع سرك .

– لاانكر أني أخطأت ولكنها كانت بارعـــة باظهـــار الغيرة عليك فتمكنت من خديعتي .

– لا بأس وعسى ان تكون هذه الهفوة داعية الى يقظتك في المستقبل على أنه لم يبق سبيل الى العودة اليها فان هرمين

ستبرح باريس .

واما الان فيجب ان نسرع في ما عزمنا عليه ويجب عليك ان تجد الرجال العشرة في هذه الليلة .

– سأبحث عنهم منذ الان على ان تتولى مراقبة ابنتك

– دون شك

وعند ذلك افترقا فذهب برجريت للبحث عـــن اولئك الرجال وسار الكونت الى غرفة ابنته .

وكانت هرمين تعالج حين دخوله يـد الخادمة وقد رضها الكونت بعنف فلم تضطرب لدخول ابيها واستمرت تعالج يد الفتاة حتى أذا اتمت ربطها امرتها ان تنصرف .

أما ابوها فقد كانت ظاهرة عليه علائم الاضطراب فقال لها بلهجة جافية .

لا أرى فائدة من اطالة الحديث فقد كنت أعلم ان أحد اهل المنزل يخونني .

ولكني اعترف أني لم اشكك بك على الاطلاق في حين أنه كان يجب الريب فانك ما فتئت منذ حضورك الى باريس وانت تصرحين بآراء مناقضة لآرائي .

وكنت ارجو في كل حين ان ترجعي عن هذه الاراء وتهتدي سواء السبيل حتى اني خدعت في الايام الاخيرة وحسبت انك اهتديت الى الصواب .

غير ان الصدفة اوقعتني على خديعتك ولا اخالك تنكرين انك انت كاتبة ذلك الكتاب الذي اخذته من فيرجيني .

قالت ، كلا يا أبي لا أنكر .

قال ، ارى انك جريئة بالاعتراف وستعترفين ايضاً ان الرسالة كانت مرسلة الى المركيز دي كولدراي .

– لا أنكر يا أبي .

– وأنك انت التي سرقت ذلك الصك الذي اعترف فيه رينالد انه تنازل عن ثروة أبيه .

– نعم يا ابي لا أنكر .

فغضب الكونت لما رآه من سكينتها ولكنه كظم غيظه حتى يقف على الحقيقة بتفاصيلها فقال لها .

ولكن كيف اوصلت هذا الصك الى المركيز ؟

– ذهبت الى فندقه بنفسي .

– أنتِ تتحالفين مع هذا الشقي على نهبي .

– اني غير محالفة لاحد ولم ادفع ذلك الصك لرينالد بل دفعته الى الكولونيل ريكمبرج .

ولكني كنت مقنعة وكانت تصحبني فيرجيني وهي مقنعة مثلي ، فلا المركيز ولا ريكمبرج يعلمان اني انا التي أعطيت الصك فلم امس بذلك شرفي ولا اسمك .

– أحق ما تقولين يا هرمين ؟

– ان صراحتي باقراري تدلك على اني لا اعرف الكذب .

– ولكنها تدلني أيضاً على انك من ألد أعدائي .

– معاذ الله ان أكون من اعدائك يا ابي فقد حسبت في ما فعلته اني خدمتك اجل خدمة ، واي خدمة اشرف من ان

اجعل ابي من اهل العدل والحق ؟

– ارى انه لم يبق علي الا ان اسجنك في دير .

– وانا انقطع الى الصلاة فيه والابتهال الى الله كي يهديك الصراط المستقيم ويفتح عينيك فترى الحق .

– اذن لا تحولين عن رأيك فيما يتعلق بأرث كولدراي ؟

– كلا

– الا تعجبين اذا أرجعتك غداً الى الريف ؟

– بل اجد ذلك لا بد منه اذا كنت تريد البقاء على غيك واغتصاب ثروة ابن اخيك .

فضرب الكونت الارض برجله مغضباً وجعل يمشي في الغرفة مشية المجانين .

فقالت له هرمين ، ارى ان حريتي تثير غضبك ولكني اذا كنت كذلك خيراً من ان أكون منافقة مخادعة .

وقد طالما طمعت ان اراك تنقاد لصوت الضمير وتذعن للحق وترد تلك الثروة المغتصبة لابن اخيك فيحترمك الناس وتحترم نفسك اذ لا يخطر لي انك غير عارف بجورك وعسف هذه الطرق التي تسير عليها لأذلال ابن المحسن اليك .

ولكن وكيلك برجريت قد أضل رشدك واعمى بصيرتك مع انه خادم خائن لا يقيدك به ذنب فلا أدري كيف تثق به هذه الثقة وكيف أصبحت لا ترى الا بعينيه .

على انك لو اصغيت لكلامي بل لو سمعت ما يقوله الناس عنك في مسامراتهم لعلمت ان اولئك الناس الذين خدعت بظاهر

ودهم لا يحبونك بل يخافونك ولا يوافقون على اقوالك الا امامك فاذ تواريت عنهم لاموك وطعنوا بك الطعن القبيح ولو أستطاعوا لجثوا امامك كما أجثو الان ...

فقاطعها ابوها قائلا ، لاشك انك مجنونة بـــل لاشك اني ضعفت ضعفاً شديداً اضطررت معه ان أصغي الى حديثك .. كفى الان فقد عرفت ما أريد وغداً تذهبين الى الريف .

فنهضت هرمين ومسحت دموعها دون ان تجيب .

فتركها أبوها وهو يقول ، اعدي معدات السفر .

اما هرمين فانها جلست على كرسي وجعلت تبكي .

وفيما هي على ذلك سمعت صوت حركة من جهة مستوقد غرفتها فكفت عن البكاء وجعلت تصغي الى ذلك الصوت .

• •

الفصل الثاني عشر

لم تكن هرمين يهدأ لها بال منذ دخل رينالد الى غرفتها وخرج منها في ظلام الليل وهي لا تعلم كيف دخل .

وقد أنساها الاضطراب ان تسأل ابن عمها كيف دخل الى غرفتها ولا منفذ فيها الا من بابها المقفل .

وفوق ذلك فقد كان الخطر عليه شديداً في تلك الساعة فلم تكن تهتم الا بوقايته من هذا الخطر .

ولم تكن تذكر من تلك الحادثة سوى انهـــا صحت من رقادها وقد سمعت صوتاً من جانب مستوقد غرفتها ثم رأت على أثر الصوت خيال رينالد .

فلما انصرف رينالد وأمنت عليه الخطر عادت الى غرفتها فاضاءت مصباحاً وجعلت تبحث بحثاً دقيقاً عن المنفذ الذي دخل منــه حتى أعياها التفتيش فنامت على ان تعود الى البحث في اليوم التالي فبينما كانت تبكي سمعت ذلك الصوت كما تقدم وهو يشبه نفس الصوت الذي سمعته حين رأت رينالد وقد خرج من نفس المكان فمسحت دموعها واقفلت باب غرفتها من الداخل ثم اسرعت

الى ذلك المستوقد حيث سمعت الصوت .

وقد رأت زراً صغيراً لم تنتبه اليه في الليل فضغطت عليه بعنف فرأت ان الجدار قد فتح كما تفتح الابواب ورأت وراءه امرأة بارعة الجمال شديـــدة التأنق بملابسها وهي منذهلة نفس ذهول هرمين من ذلك الأتفاق .

فقالت لها المرأة ، العلك وحدك يا سيدتي ؟

قالت ، نعم يا سيدتي فتفضلي بالدخول .

وكانت هذه المرأة مرغريت فدخلت مع هرمين الى غرفتها وكان السبب في قدوم مرغريت انها علمت بما أمر به الدوق من مراقبتها ورأت انه لا سبيل لها في الفرار بالطرق المألوفـــة وانه لم يبق بد لها من مبارحة منزل الدوق .

فجعلت تفكر في وسيلة للهرب حتى خطرت لهـــا تلك الطريق التي فـــر منها رينالد .

فدخلت الى تلك الغرفة الصغيرة التي رأته دخل منها وتمكنت بعد الجهد العنيف من الأهتداء الى ما اهتدى اليه وفتحت أرض الغرفة فنزلت منها كما نزل رينالد من قبلها .

وفيا هي واقفة تبحث عن ذلك المنفذ الآخر الذي هرب منه رينالد رأت الباب فتح فجأة وظهرت لها هرمين .

وقد أقام الاثنتان في غرفة هرمين فذكرت كل منها اسمها للأخرى وطرفاً من حكايتها ثم عادتا الى البحث عن ذلك المنفذ السري الذي لم تكونا تعلمان بوجوده قبل الآن .

الى ان بدأت هرمين بذكر المركيز فقالت ، اذن ان المركيز

دي كولدراي جاء الى غرفتي من هذا المنفذ .

- دون شك ، ولكن كيف عرفت اسمه ؟

- لاني سألته عنه ولو لم يذكره لي لاستفهمت .

- ولكن هذا الاسم وحده كان كافياً لتسكين مخاوفك فلا شك انك تعرفينه من قبل .

- اني أعرفه منذ ان خلقت فانه ابن عمي .

فذهلت مرغريت وقالت ، أهو أبوك الذي اغتصب ثروة ابن أخيه المركيز واستبد بها ..

رباه ماذا قلت .. اسألك المعذرة فقد تسرعت في القول .

- كلا يا سيدتي لا تخشي ان تكوني اسأت الي بهذا القول فاني لم أختلف مع أبي الا لهذا الشأن .

- أتعترفين أنت بخطأ أبيك ؟

- بل اني طالما رجوته ان يرجع المال لابن اخيه ولكنني فشلت وكان جزائي النفي عما قلته .

- اذن أنت مسافرة ؟

- لقد أخبرني أبي الان انه يجب أن أسافر غداً الى تورين حيث أقمت خمسة عشر عاماً وربما اقيم فيها ايضاً مثل هـــذه المدة دون ان يذكر ابي ان له بنتاً .

وكانت هرمين تقول هذا القول بلهجة يأس أثرت بمرغريت فقالت لها ، كيف ذلك أينفيك والدك من باريس لأنك قلت له الحق وتكلمت بحرية وجلاء ؟

- لا أحب ان أظلمه فليس هذا ذنبي الوحيد بل اني افسدت

عليه مشروعاته وساعدت ابن عمي مساعدة عدها ذنباً .

– كيف ساعدته ؟

– انذرته بالمكائد التي يكيدونها له .

– ايعلم المركيز ؟

– كلا فلو عرفني لما لقي مني هذه المساعدة .

– اذن ما دعاك الى مساعدته ، ألعلك تحبينه ؟

فتنهدت هرمين وقالت ، كيف يحق لي أن أحب مثل هذا الفتى الجميل وأنا كما تريني ..

أنظري الي يا سيدتي تجدي ان احدى عيني من الزجاج واني فوق ذلك عرجاء .

– ولكن ذلك لا يمنعك عن الحب .

فهزت هرمين رأسها بحزن وقالت اني لم يدفعني الى مساعدته غير مبدأ العدالة والحق .

ولكن لنبحث الآن بشأنك فان المركيز حين دخل الى غرفتي كان قادماً من عندك وكان معرضاً لخطر عظيم كما قال فما هو هذا الخطر ، ألعل الدوق دي فيلان عرف أتصالك بالمركيز..

– ألعلك مع المركيز ...

اسمحي لي ايتها السيدة ان اقطع عليك حديثك فان المركيز ليس بعشيقي كما يتبادر الى ذهنك ولكنه قيدني بجميله فانه خاطر بحياته لأنقاذ حياتي .

وقد حكت لها عند ذلك كيف عرفت المركيز وكل ما اتفق فقالت لها هرمين .

– اذن ريناالد يحبك .

– عفواً فاني لم أقل ذلك .

– لا تداقمي أيتها السيدة فان هيامه بك طبيعي معقول فأن الجمال مجسماً بك وما خلقت الا للحب ولو لم يكن متدلهاً بهواك أكان يخاطر بنفسه من أجلك ؟

ثم أنه لقي بفراره من عندك خطراً أشد من خطر البقاء اذ لو اتفق ان أبي علم بامره لقتله لا محالة .

– لقد صدقت لكنه لا يلاقي بعد الان شيئاً من الأخطار بسببي فقد عزمت على التخلص من مظالم الدوق والفرار من باريس اذا اقتضى الأمر .

ولكني لا أعلم الى أين اذهب فاذا رجعت الى امي اخبرت الدوق دون شك فاين اذهب وكيف السبيل الى النجاة .

– ربما وجدت طريقة صالحة ..

ولم تكد تتم جملتها حتى سمعت قرعاً على باب غرفتها فقالت لمرغريت ، اسرعي بالدخول من المنفذ وسنلتقي .

– متى ؟

– في هذه الليلة بعد ان ينام الجميع فنتحدث كل الليل ..

ولكن اسرعي بالفرار فاني اخشى ان يكون القادم ابي فأسرعت مرغريت بالأختفاء وزاد للقرع على الباب .

لم تكن فرنسواز توشيت قد رأت هرمين منذ ثلاثة أعوام أي منذ جاءت هرمين بدعوة من أبيها من الريف الى باريس.

وفرنسواز هذه مرضعة هرمين وهي التي ربتها فلم تفارقها لحظة خمسة عشر عامـــاً .

وقد كان حزنها شديداً حين فارقتها ذاهبة الى باريس لا سيما وانها صحبت معها ابنتها فيرجيني بصفة وصيفة لها وهي أختها بالرضاع فكانت لها خادمة وصديقة .

وقد تعزت فرنسواز عن بعادها بوجود ولدها بليز بقربهـــا وهو غلام يبلغ الثالثة عشرة من عمره كانت أمه تحبه حباً مفرطاً غير ان غلامها كان قد بلغ سن العمل فسارت به الى الحقول بحيث كان يشتغل كل النهار فإذا أقبل الليل عــــاد متعباً من مشاق العمل فنام .

فكانت أمه تقيم كل النهار وحدها تفكر بهرمين وفرجيني وتتوجع لفراقها اذ لم تجد بقرب ولدها ما كانت ترجوه من السلوى ولم يعد يخطر لها غير زيارة باريس .

الى ان اشتد شوقها ولم تعد تستطيع الصبر على الفراق .

فكتبت الى الكونت مورلاي عن قدومها وجاءت مـــع ولدها بليز لمشاهدة البنتين .

وبعد سفرة عشرة ايام وصلت الى باريس فابقت ولدها مع المركبة التي جاءت بها في فندق حقير وقالت له ، ابق في الفندق الى ان أعود اليك .

ثم جاءت الى منزل الكونت وبدأت بزيارة سيدها فانها

كانت من المزارعين في أرضه .

فأحسن الكونت استقبالها وقـــال لها :

– اجلسي يا فرنسواز فاني أأذن لك بالجلوس أمامي لأنك متعبة دون شك من مشاق السفر .

فدهشت فرنسواز لقوله وقالت له ، كلا يا سيدي اني غير متعبة حتى اني أستطيع السفر في الحال .

قال ، لقد سرني ذلك ولكني لا أريد ان تسافري اليوم بـــل تسافرين غـــداً .

– الى اين ألى اللورين ؟

– نعم

– كيف ذلك ، أأسافر قبل ان أرى ابنتي واني مـــا أتيت الا لأراهما ؟

– انك سترينهما قدر ما تشائين لأنهما مسافرتان واياك .

– كلتاهما؟

– نعم وهما تعلمان

– كيف ذلك ، اتسافر مدموازيل هرمين ؟

– هي على الاخص .

– ولكني لم ار باريس في حياتي يا سيدي أأسافر دون ان اتمتـــع بمحاسنها .

– تمتعي قدر ما تشائين ولكنك تبرحينها في الساعة الثامنة من صباح غد وارجو ان لا احتاج الى ابلاغك ذلك مرة ثانية والآن إذهبي الى ابنتك اذا اردت .

فانحنت فرنسواز وحاولت الانصراف فاوقفها الكونت باشارة وقال لها .

ان هرمين قد تعهد اليك بمهمة خارج المـــنزل فاذا فعلت شيئاً من ذلك سلبتك الحقل الذي تعيشين منه وقد اعذر من انذر

فانصرفت فرنسواز وهي منذهلة مما سمعته .

ونادى الكونت احد خدمه بعد انصرافها فقال له ، أرأيت هذه المرأة التي كانت هنا ؟

قال ، نعم

قال ، اريد ان تغير ملابسك وتتنكر وتراقبها منذ الان فلا تفارقها لحظة الى الساعة الثامنة فتعود الي وتخـبرني بكل مـــا فعلته .

فانحنى الخادم واسرع الى تغيير ملابسه بينما كانت فرنسوار تقرع باب غرفة هرمين وهي تتحدث مع مرغريت .

وفتحت هرمين الباب بعـــد انصراف مرغريت وسرت سروراً عظيماً للقـاء مرضعتها حتى اذا تعبتا من العناق سألتها عن إبنتها فيرجيني فاخبرتها ان يدهـــا قد رضت ولكنها لا تشكو منها المـاً .

قالت ، لا بأس فسترض رضوضاً كثيرة في الحقل .

فقالت لها هرمين ، الم يصحبك ولدك بليز ؟

قالت ، نعم فهو الان في الفندق وسيزورك في المساء اذا اذنت فلترين كيف انه كبر واشتد واصبح كالرجال وهـــو لا يتجاوز خمسة عشر عاماً .

كلا . . كلا . . لا تأتي به الى هنا فلا أحب ان يراه ابي ولي بذلك مأرب .

فلم تدرك فرنسواز هذه الألفاز ولكنها ايقنت ان الجفاء استحكم بين البنت وأبيها .

ثم جاءت ابنتها فيرجيني وبعـــد هنيهة عادت فرنسواز الى الحديث فقالت لهرمين لماذا يريد ابوك ارجاعك الى تورين ؟

فاخبرتها هرمين عند ذلك بكل ما فعلته لانقاذ ابن عمها ، فقالت لها فرنسوا اني لا أستطيع التصديق على ما فعلته ولكني مع ذلك لو كنت في مكانك لفعلت فعلك .

فتعزت هرمين تعزية كبرى بما سمعته من فرنسواز لأنها كانت مرضعتها ومعلمتها ومربيتها وكانت تحترمها احترامـــاً شديداً لصلاحها وحسن أدبها .

وقد اخبرتها فرنسواز ايضاً بما كان بينهـــا وبين ابيها ، فقالت لها هرمين ، متى نسافر ؟

قالت ، في الساعة الثامنة من صباح غد

— ان الوقت غير متسع لدينا فامنعي ولدك عن الحضور الى هنا بتاتاً واشتري له ثوباً كاملاً جميلاً .

— لقد صنعت له هذا الثوب حين عزمت على القدوم الى باريس

— حسناً فعلت

— ولكن ماذا تقصدين بشأن هذا الثوب ؟

— ستعلمين غداً

— ولكن احذري يا سيدتي فان اباك انذرني بالطرد من

حقلي اذا قضيت لك ما تعهدين الي به من المهام .

– اطمئني فان ما سأصنعه بهذا الثوب لا يمسك ولا يعني في شيء وبعد فاني واثقة من الفوز .

فتنهدت فرنسواز وقالت ، سأمتثل لك .

فانكرت هرمين تنهدها وقالت لها بلهجة المؤنب ، ما هذا التنهد العلك تطيعينني مكرهة ام انك لا تحبينني .

فقالت لها فرنسواز وقد نكرت لهجتهـا ايضاً ، كيف تجسرين على هذا القول ؟

– ذلك لاني سأعهد اليك بمهمة يسهل قضاؤها وانا أخشى ان لا توافقيني عليها .

فنظرت اليها فرنسواز نظرة المشكك وقالت ، اذا كانت المهمة مما يسهل قضاؤها فلماذا لا أقضيها ؟

قالت ، اذن اعلمي ان فتى نبيلاً باسلا سيهاجمونه الليلة على غرة ويفتكون به واريد انذاره بهذا الخطر كي يحذر

ولكن يستحيل علي الان ان اذهب بنفسي او اكتب اليه فاني اسيرة في منزل أبي وقد وضعت علي العيون والارصاد .

– لا اجد ما يمنعني من الذهاب بنفسي الا اذا كان ذلك خاصاً بالمركيز دي كولبراي .

– ولماذا تمتنعين عن وقاية المركيز من هذا الخطر دون سواه؟

– لأني حلفت في ذلك الحقل الذي أشتغل فيه ولا أحب ان أطرد منه وقد بلغت هذا السن .

ولكن أتدع ابن عمي يقتل غيلة وغدراً ونحن نعلم ان

كلمة واحدة كافية لأنقاذه ؟

فارتعدت فرنسواز وقالت ، أتعتقدين حقيقة انهم يريدون قتله؟

– بل أني واثقة كل الوثوق .

– أتحسبين أننا اذا أنذرناه سلم من الخطر ؟

– دون شك .

– اذن سأخاطر بمركزي لتعلمي مقدار منزلتك عندي واذا فعلت ذلك فلا أخاطر بخسارة ما أكسبه من هذا الحقل بل قـد أخاطر بسلامة أولادي وقد نشأوا كلهم كما نشأت فيه وهـم يعيشون منه

– كلا أيتها العزيزة فاني أرجو أن لا يكـون شيء من ذلك فاعلمي الآن انك حين تخرجين من هذا المنزل سيقفو أثرك أحد جواسيس أبي ، وما جواسيسه غير خدمه .

– ولكني أعرفه من ملابسه فأتجنبه .

– انك منخدعة يا فرنسواز فان الجواسيس يتنكرون ولكن مراقبة الجواسيس سهلة متى عرف المرء انهم يتجسسونه

– اطمئني يا سيدتي فمهما بلغ هذا الخادم من الحيلة لا يكون أحيل مني .

– اذن فاعلمي الان ان المركيز يقيم في فندق الاوزة السوداء في شارع سانت اونوريـه .

ولكن لا تسألي في ذلك الفندق عن المركيز بل سلي عن الكولونيل ريكمبرج واحذري أن تنسي هذا الاسم .

– انه اسم غريب لا يمكن نسيانه .

– ومتى لقيت هذا الرجل قولي له « ايها الكولونيل لا تبرح الفندق هذه الليلة واذا اضطررت الى مبارحته فلا تخرج منه الا مسلحاً مخفوراً »

– أهذا كل ما تريدينه ؟

– نعم ولا حاجة لى توصيك بأن لا تدعيه يعلم من أرسلك

– دون شك

– وعودي الي في المساء لتخبريني بما فعلت وأحضري لي معك ثوب ولدك الجديد .

ـ اعتمدي علي يا سيدتي فسأفعل كل ما أمرتني به .

وبعد ان كررت عنوان الفندق والشارع واسم ريكمبرج مراراً كـــي تحفظها برحت ذلك المنزل وهي مفكرة خائفة شر العقبى .

فلما خرجت من الباب الكبير نظرت الى ما حواليها في في الشارع فلم تر فيه أحداً من المارة ما خلا رجلا كان واقفاً عند باب دكان يحدث صاحبها .

فسارت في شارع سانت دينيس وهي تقف من حين الى حين كي تسأل الناس عن الطريق وتلتفت كي ترى اذا كان هذا الرجل لا يزال يتبعها .

وما زالت على ذلك حتى وصلت الى الفندق الذي اقامت فيـــه ولدهــــا .

وقد لاحظت ان الرجل الذي يتبعها جاسوس الكونت لانه لم يفارقها في الطريق فدخلت الى ذلك الفندق ثم عادت الى

الباب فرأت الرجل واقفاً عنده فلم يبق لديها شك وايقنت ان هذا الجاسوس سيتبعها اينما ذهبت ، واذا كان ذلك فكيف تستطيع مقابلة ريكمبرج ؟

وقد دخلت الى الفندق وهي تفتكر ثم ضربت جبينها كانما خطر لهـــا خاطر فجائي وقالت ، لقد نسيت ولدي بليز فانه يستطيع ان يفيدني فائدة كبرى في هـــذه المهمة فلا يكون قدومه الى باريس دون نفع .

ودخلت الى الفندق فنادت ولدها وكتبت على ورقة اسم الكولونيل ريكمبرج وعنوانــه وعهدت الى ابنهـــا بقضاء المهمة بعد ان حفظ العنوان ثم قالت لـــــه .

اذهب الان وسل عــــن الطريق وعد الي بسرعـــــة فاذا وجدتني واقفـــــة عند الباب فتظاهر انك لا تعرفني وادخل الى الفندق فانتظرني في الغرفة الى ان أحضر اليك .

فذهب الغلام وخرجت امه في أثره فجعلت تسير في ذلك الشارع فتقف عند كل مخزن وقفة المتفرج والجاسوس يتبعها اين سارت وهي فرحة القلب بخداع هذا الجاسوس وفوزها بقضاء المهمة التي عهدت اليها هرمين بقضائها .

وبعد ان تجولـت نصف ساعة وعبثت بهذا الجاسوس كما تشاء عادت الى الفندق فوقفت عند بابه وجعلت تراقب المارة

وقد مضت ساعة دون ان يعود ولدها فشغل قلبها عليه وخامرتها الوساوس وحاولت ان تذهب للبحث عنه .

ولكنها لم تلبث ان عزمت هذا العزم حتى رأته قادماً من

آخر الشارع .

فتنهدت تنهد ارتياح وعادت الى التظاهر بمراقبة المارة فان الجاسوس كان لا يزال واقفاً يراقبها.

أما الغلام فقد عمل بوصية امه فانه عندما وصل الى الفندق رأى أمه واقفة عند بابه فتظاهر انه لا يعرفها ودخل تواً الى الغرفة .

وبعد هنيهة دخلت فرنسواز الى الفندق متباطئة متمهلة حتى توارت عن انظار الجاسوس فجعلت تصعد درجات السلم اربعاً فاربعاً حتى وصلت الى ابنها في الغرفة فبادرته بقولها ، ماذا حدث ألقيت ريكمبرج ؟

قال ، كلا يا أماه فقد خرج مع المركيز دي كولدراي وقيل لي انهما لا يعودان الا في المساء للعشاء .

فاضطربت فرنسواز وقالت ، اذن لم تستطع نقل ما تبلغته ؟

– كلا غير أن صاحب الفندق الح علي بالسؤال ورأيت من لهجته ما يدل على صدق اخلاصه للرجلين فكلفته ان يقول لهما ما قلته لي .

– أأنت واثق انه يقضي هذه المهمة ؟

– لقد أقسم لي على قضائـــها .

فقبلت فرنسواز ولدها وقالت ، اذا كان لا يوجد في باريس غير القتل والمكائد فاني أؤثر الف مرة ان أبقى في الريف .

وفي المساء عادت الى منزل الكونت دي مولاري وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله فرأت ذلك الجاسوس لا يزال يتبعها حتى وصلت الى المنزل .

فلما دخلت اليه كان اول من رأته الكونت فانه رآها من النافذة وقد قابلها عند الباب فقال لها ، ما هذه الصرة التي تحملينها ؟

قالت ، انها تحتوي على ثياب جديدة اشتريتها لولدي .

ففتح الكونت الصرة وفتش تلك الثياب كي يستوثق انها لا تحتوي على غيرهـــا .

ثم ردها اليها وقال لها ، اذهبي الآن ولا تنسي انه يجب ان تسافري في الساعة الثامنة من صباح غد .

فتركته وذهبت الى هرمين فأخبرتها بما اتفق لولدها .

فاطمأنت وأخذت منها الصرة وفحصت تلك الملابـــس فوجدتها تامة لا ينقصها شيء ، فوضعتها في خزانة وقالت لفرنسواز ان أبي رآك قادمة بصرة فيجب ان تذهبي بمثلها كي لا يشكك في أمرنا .

– ولكن ماذا تريدين ان تصنعي بهذا الثوب ؟

لا أعلم بعد فقد لا أحتاج اليه ولكنه قد يفيدني افادة عظيمة وفي الحالتين اعملي بما أوصيك به وهو انك ستأتين غداً بمركبتك لنسافر معاً فدعي ولدك في الفندق وعندما نبرح المنزل نذهب اليه فنأخذه منه .

– ذلك سهل ، أهذا كل ما تريدينه ؟

– نعم

– اذن سأكون عندك في الساعة السابعة والنصف من صباح غد

– تجدينني متأهبة .

وافترقتـــا فذهبت فرنسواز الى الفندق وبقيت هرمين في

غرفتها تتم تأهباتها للسفر

وبعد هنيهة جاء أبوها فخفق قلبها خفوقاً شديداً اذ حسبت ان أباها قد أدركته الرأفة الابوية فغفر لها ذنبها واقبل يسألها البقـــاء .

غير انه لم يأت لهذا الغرض بل جـــاء يستوثق اذا كانت ابنته قد نفذت أمره .

فبكت بكاء شديداً وقد سرت حين أخبرها بأنه سيتعشى وحده وانصرف دون ان يعانقها .

فتعشت هرمين في غرفتها وبعد العشاء صرفت مرضعتها وأقفلت باب غرفتها من الداخل وجلست على كرسي وهـــي تفتكر برينالد وقد يئست وأشفقت عليه أشفاقاً عظيما لخوفها عليه من مكائد ابيها .

وفيما هي على ذلك سمعت حركة قرب المستوقد ثم فتح الباب السري ودخلت مرغريت وعيناها محمرتان من البكاء .

فاشفقت هرمين عليها وقالت ، ماذا اصابك العلك مريضة؟

قالت ، بل اشعر ان الموت بات قريباً وحبذا موت يريحني ممـــا انا فيه .

– تشجعي ايتها السيدة اتيأسين من الحياة وأنت لا تزالين في مقتبل الشباب لا سيما وان فتى يعد من اعظـــم الفتيان نبلا وبسالة يحبك حباً اكيداً وحبذا لو ظفرت بقلب طاهر يحبني حب اخاه فاتعزى باخائه .

وانا أيضاً إبحث عن مثل هذا القلب المعزي ، السنا في

الشقاء أختين ؟ اما ضحتني امي في سبيل مطامعها وازوجتني شيخاً لم يكن زوجي بل جلادي ؟

– اذن لنتحد بالقلبين كما اتحدنا بالحظين ، أتريدين ؟

فمدت مرغريت لها يدها فصافحتها وقالت ، كيف لا اريد ولكن المراقبة شديدة علينـــا فكيف السبيل الى الخلاص من الاضطهاد ؟

قالت لدي طريقة فاسمعيها .

ان فرنسواز وهي المرأة التي ارضعتني وربتني جاءت اليوم من باريس لتقيم بضعة أيام عندي ولكنها لم تكد تصل حتى أمرها أبي بالسفر واياي غداً الى تورين .

– العلك افتكرت بان أسافر معك ؟

– هو ذاك

– ولكن كيف يكون ذلك فان أباك يكون حاضراً ساعة سفرك فيراني

– أصبري يا سيدتي فلم اتم حديثي بعد فان فرنسواز أحضرت معها ولدها بليز وهو غلام في الخامسة عشر من عمره لم يره ابي على الاطلاق وقد امرت فرنسواز ان لا تحضره الى هنا وان تأتيني بثوبه الجديد .

– اتريدين بذلك ان أتنكر بزي هذا الغلام ؟

– نعم

ففرحت الدوقة بذلك وقالت ولكن فرنسواز تراني

– سأخبرها غداً بالامر متى جاءت الي

ـ وهذا الثوب ؟

ـ هو هنا وسترينه .

ثم قامت الى الخزانة ففتحتها واخرجت الثوب منها فاخذته مرغريت وقالت ، يجب ان اجربه في الحال .

وكانت مرغريت لها نفس قوام الغلام فجاء الثوب كانه قد جعل لها

فقالت لها هرمين ، ان ابي لا يعرفك ولا يعرف الغلام وقد تمت الحيلة فلنبتهل الآن الى الله كي يقي المركيز من الخطر فانك تحبينه وانا يجب ان احبه أيضاً فهو ابن عمي .

الفصل
الثالث عشر
عشرون ضد اثنين

رأى الكونت دي مورلاي ان رينالد ابن اخيه لا يدع نفسه يذبح ذبح الاغنام .

وقد قال منذ عشرة اعوام حين هم باغتصاب ماله انه غلام يسهل الهزء به غير ان هذا الغلام قد نما وشب وجرت في عروقه دماء الأسود فوجد الكونت من دفاعه الشديد ما لم يكن يتوقعه من قبل .

وقد حسب بعد فوزه في القضية التي نظر فيها البرلمان ان ابن أخيه سيعتبر نفسه منخذلا مغلوباً وانه سيتوسل اليه في سبيل الاتفاق معه .

غير انه رآه قد ذهب الى باريس وبدأ بمقابلة الملك وانه عازم على مقابلة الكردينال بعد فوزه العظيم لدى الملك وعلى ذلك فان المعركة قد نشبت بين الفريقين ولم يبق للكونت دي مورلاي الا احدى طريقين ، أما ان ينتصر على ابن اخيه بالحيلة واما ان يتخلص منه بالعنف .

وقد بدأ بالحيلة واكره ابن اخيه على التنازل عن ثروتــه بذلك الصك ولكن ابنته افسدت عليه مشروعه بسرقة الصك فاستشار برجريت فكان رأيه الالتجاء الى العنف والقوة .

وكانت هذه الامور غير منكورة في ذلك العهد فان كثيرين من الناس كانوا يتخلصون من خصومهم بهذه الطرق الشائنة ولذلك كثر السفاكون في المدن الكبرى كباريس وسواها من الذين يبيعون نفوسهم فيستخدمهم ذوو الأغراض لقتل اعدائهم .

وعلى ذلك فان برجريت لم يجد صعوبة في حشد هؤلاء اللصوص الذين اراد أن يستعين بهم على قتل رينالد وريكمبرج لا سيما وان الكونت قد اطلق يده في الانفاق وفتح له خزائنه لهذا الغرض السافل .

وقد اتفق مع عشرين رجلا منهم على الكمين لرينالد وريكمبرج بين الساعة الثامنة والعاشرة من الليل وبينهم بوانتيليك ذلك اللص الذي أراد سلب الدوق دي فيلان في بدء هذه الرواية فانه جاء الى باريس وجعل نفسه فيها من رؤساء العصابات وهو الذي اتفق مع برجريت وقد تساهل بالاتفاق حين علم ان عدوه المركيز رينالد فانه كان لا يزال حاقداً عليه .

وكان اتفاقهما على ان ينقده مائة دينار بشرط ان يدفع النصف مقدماً والنصف الآخر بعد القتل .

وقد عاد برجريت الى مولاه وأخبره بهذا الاتفاق وزاد على ذلك انه بحث في الفندق الذي يقيم فيه المركيز فعلم انه خرج منه مع ريكمبرج وانه لا يعود الا متأخراً ، فسر الكونت

بذلك وايقن بالفوز .

وكان ريكمبرج ورينالد قد اتفقا في ذلك اليوم على ان يتنزها معاً في باريس فاراد المركيز ان يتأنق في ملابسه وينزع اسلحته فاعترضه ريكمبرج قائلا

يجب ان لا ننسى منذ الآن ان لنا عدوين شديدين وانه يجب علينا ان لا نبرح الفندق الا مدججين بالسلاح فضع في جيوبك غدارتيك .

قال، الا يكفي السيف والخنجر ؟

قال ، كلا ولو استطعنا للبسنا درعين من الزرد ايضاً

فامتثل رينالد وتسلح مقتدياً بريكمبرج وبرحا ذلك الفندق فتجولا في باريس متنزهين حتى اقبل الليل فلم يتعشيا في فندقهما بل في اقرب فندق وصلا اليه .

ثم خرجا من ذلك الفندق قصد الذهاب الى احد المنتديات حتى وصلا الى شارع اورليان فرأيا اربعة ايضاً قد انضموا اليهم فتنبه ريكمبرج وحذر رينالد الذي كان منشغلاً بمناجاة مرغريت فلم يرهم .

وسار الاثنان بضع خطوات فرأيا ثمانية رجال قد انضموا ايضاً الى الثمانية الاولين ثم سمعا صفيراً ورأيا على اثره أربعة رجال خرجوا من عطفة وانضموا الى رفاقهم فقال ريكمبرج ، انهم أصبحوا عشرين رجلا وذلك تشريف لنا يجب شكرهم عليه وقد أيقن أنهما سقطا في كمين وانه ستجري معركة هائلة .

وكان ريكمبرج شديد التأني كثير الاختبار لا تضيع رشده

المفاجآت فنظر الى ما حواليه نظرة الفاحص فرأى منزلا يبنونه حديثاً وقد تكدست الأحجار والأخشاب أمامه فخطر له خاطر سريع لم يستطع اخبار رينالد به لضيق المقام فأخذ بيد المركيز وقال له ، هلم بنا .

فأجفل رينالد وقال له ، كيف ذلك انهرب ؟

فقال له ، تعال وسوف ترى انني لست من الذين يهربون

فامتثل له المركيز واسرعا وثباً الى ذلك المنزل فوقفا وراء الحجارة المكدسة وقال ريكمبرج لرينالد ، اقتل دون رحمة فكان ذلك القول اشارة الى بدء القتال .

وكان بونتلياك قد قسم رجاله قسمين فهجم القسم الاول وهو ولف من ثمانية رجال فلم تكن الا لحظة حتى قتل ريكمبرج والمركيز أربعة منهم .

فتردد الاربعة الباقون هنيهة كانت كافية لريكمبرج فاغتنم هذه الفرصة لاختيار موقف صالح واسرع الى تلك الأخشاب الطويلة فنقل كثيراً منها الى الحجارة الواقف وراءها بحيث جعلها متراساً بينه وبين اعدائه بينما كان المركيز يصد هجمات الأعداء

ولم يكن الفريقان قد اطلقا طلقاً نارياً بعد فان المهاجمين كانوا معتمدين على عددهم فاقتصروا على السيوف .

وقد رأى المركيز احد أولئك اللصوص يتسلق المتراس فأطلق عليه النار من غدارته فهوى قتيلا .

فأسرع ريكمبرج الى الجثة فحملها الى وراء المتراس وفتش

ذلك اللص فوجد معه غدارتين فأخذهما وهو يقول ، لقد كثرت لدينا الذخيرة .

ثم اسرع الى نجدة رينالد وقال له ، لا تحارب الا بسيفك الآن ودع سلاحك الناري الى ساعة اليأس .

تشجع أيها الصديق فقد قتل منهم خمسة .

وقد كان لحسن حظ رينالد وريكمبرج ان اكثر هؤلاء اللصوص كانوا مسلحين بالسيوف والخناجر ولم يتسلح بالغدارات غير القليل منهم فدفعهم الجزع الى الاسراع بالتخلص من الخصمين وتسرعوا باطلاق نيرانهم وهم لا يخطر لهم في بال ان اثنين يستطيعان مقاومة عشرين .

وكان ريكمبرج ورينالد يسمعان من وراء المتراس صفير الرصاص يمر فوق رؤوسهم ولا يصيبهم .

اما ريكمبرج فكان يراقبهم وكلما دفعت الجرأة احدهم الى المتراس يصبرعليه حتى يتسلقه فينشب يديه فيه كالكلاليب ويجذبه اليه ثم يطعنه طعنة نجلاء تقضي عليه .

خلافاً للمركيز فانه كان ينكشف لاعدائه لعدم تعوده مثل هذا القتال الذي تنوب فيه الحيلة عن البسالة ويندفع بالرغم عن توصية ريكمبرج وتحذيره .

وقد تحمس وظهر فوق المتراس فاصابته رصاصة في رأسه وسقط فتدلى رأسه الى جهة الشارع .

وعند ذلك صاح اللصوص صيحة انتصار وكانوا اثني عشر لصاً اذ قتل وجرح ثمانية منهم فهجموا يريدون الانتقام لرفقائهم

من ريكمبرج .

وقد هجم ثمانية منهم على ريكمبرج وانقض الاربعة الباقون على رينالد كي يجهزوا عليه .

ورأى ريكمبرج سيوفهم تبرق في ذلك الظلام وكان لديه خمس غدارات محشوة وهي غدارتاه ومـــا غنمه من اللصوص وغدارة سادسة مع المركيز .

ولكنه لم يكن يستطيع نيل تلك الغدارة الا بعد نقل المركيز الى ما وراء المتراس .

ورأى اللصوص الأربعة قد هجموا يريدون الاجهاز عليه فرمى بحسامه الى الأرض ووثب الى المتراس فاطلق النار على أثنين منهم فسقطـــا قتيلين قرب المركيز فهجم عليه الاثنان الاخران فاطلق عليهما النار أيضاً فسقطا صريعين وكان يصيب مقاتلهم لقرب المسافة ولشدة تأنيه .

وقبل أن يسرع الباقون لنجدة رفاقهم حمل ريكمبرج رينالد وأسرع به الى ما وراء المتراس ولم يستطع فحصه ليعلم اذا كان قتيلاً أو جريحاً فان اللصوص الثمانية الباقين تسلقوا المتراس لانشغال ريكمبرج بالمركيز وهجموا عليه هجمة واحدة بالسيوف .

فاسرع ريكمبرج فاخذ الغدارة من المركيز والتقط حسامه عن الارض ووقف يصد هجمات أولئك الثمانية وقد باتوا رجلاً واحداً يضرب بثمانية سيوف .

وكان يحمل الغدارة بيسراه وهو متأهب لأطلاقها عند

الاقتضاء ويضرب اعداءه بذلك السيف الطويل الذي أدهش تفننه به فرنسا وايطاليا حتى لقب به وصار يدعى ريكمبرج ، اي السيف .

وكان كل ما ضرب ضربة سقط جريح أو قتيل فلم يكن في تلك الساعة الهائلة رجلا بل كان آلة حديدية يسيرها القدر وهي لا تعرف الملل .

ولو رآه ناظر في تلك الساعة لما صدق عينيه ولأنكر ان يكون رجلا واحداً لكثرة ضرباته وتتابعها .

وبعد خمس دقائق من هذه المعركة العجيبة لم يبق من اولئك اللصوص غير ثلاثة بينهم زعيمهم بوانتيلياك .

وكان هذا الزعيم قد ابقى غدارته خلافاً لرفاقه فصوبها على ريكمبرج

فرآه ريكمبرج وأسرع كالبرق الخاطف وضربه بحسامه على يده .

قطاشت الرصاصة واخترقت الهواء ثم اطلق غدارته من اليسرى على بوانتيلياك فالقاه صريعاً يتخبط بدمه .

وعند ذلك انقض انقضاض الصاعقة على الأثنين الباقين فرفس أحدهما برجله .

فانقلب يهوي الى الارض ودنا من الآخر فقال له ، اني اعفو عنك فاذهب وحدث بما رأيت .

فلم يكد يسمع اللص قوله حتى أسرع الى الفرار وهومخضب بدم رفاقه يستعيذ بالله من هذا الشيطان الرجيم .

وعند ذلك سمع ريكمبرج صوتاً يقول له من بعيد ، صبراً ايها الكولونيل فقد اتينا لنجدتك .

فقال ريكمبرج ، ان الصوت صوت صاحب الفندق .

وقد أصاب في ظنه فان صاحب الفندق كان قادماً يصحبه الجنود فان ما أنذره به ابن فرنسواز شغل باله ولم يكن يعرف الساعة المعينة للكمين ولا موضع الكمين .

فلما بلغت الساعة الثامنة نزل مع خادم المركيز ووقفا عند الباب ينتظران وعليهما علائم القلق .

وكانت المعركة قد حدثت قرب الفندق فسمع الطلق الناري الاول الذي أطلقه المركيز واسرعا الى مركز الجند فجاء بشرذمة منهم واسرعوا الى محل الحادثة فلم يبلغوها الا بعد انتهائها

وعند ذلك حملوا المركيز الجريح وهو لا يزال مغمياً عليه الى غرفته في الفندق .

وكان قد أصيب بجرح في رأسه غير خطر ولكنه اغمي عليه لفرط ما نزف من الدماء فلما فتح عينيه وجد نفسه في سريره فذهل وقال ، كيف ذلك انحن في قيد الحياة ؟

فابتسم ريكمبرج وقال له ، نعم كما ترى

– وهؤلاء العشرون الذين كانوا يهاجموننا

– قتل تسعة عشر منهم وقد عفوت عن الأخير كي يروي للناس حديث المعركة .

فاعجب المركيز أعجاباً شديداً وقال ، الم تجرح ؟

قال ، بل أني لم اخدش .

– لا انسى أيها الصديق هذه البسالة النادرة ولا أنسى أيضاً أني مدين لك بالحياة مدى العمر .

وعند ذلك جاء الطبيب وفحص الجرح فضمده ووصف له علاجاً يجب استعماله في كل ساعة قائلاً ان الجرح سليم العاقبة سريع الشفاء .

وقد أراد ريكمبرج ان يسهر كل الليل لمعالجة صديقه فاعترضه خادم المركيز وتولى عنه قضاء المهمة .

وكان ريكمبرج حائراً لا يعلم اذا كان عم المركيز أرسل اليهما هؤلاء اللصوص ام الدوق دي فيلان فان كليهما كانا من ألد أعدائهما .

وقد خطر له وهو يفكر في قدوم صاحب الفندق وخادم المركيز لنجدتهما بالجنود فسأل الخادم عن السبب في قدومهم فأخبره انه جاء في النهار غلام بملابس الفلاحين والقى على صاحب الفندق كلاماً كان قد تلقنه دون شك وفيه تحذير لك ولسيدي المركيز .

فضرب ريكمبرج الارض برجله وقال لرينالد ، لم يبق ريب لدي فان عمك الذي اطلق علينا هؤلاء اللصوص .

– كيف عرفت ذلك ؟

– لقد عرفت أكثر منه ايضاً فان ابنة عمك هرمين هي التي انذرتنا .

– كيف يكون ذلك اتخون اباها لتنقذنا ؟ ان ذلك محال

– بل هي الحقيقة ايها الصديق

ثم قص عليه جميع ما عرفه وقال له الم تذكر ان الفتاة التي

خرجتك من الغرفة الى الشارع كانت عرجاء ؟

قال اني لم انتبه لذلك في تلك الساعة ولكني اذكر الآن ان خطواتها لم تكن متوازنة بالرغم عن بطء مشيها .

فقال له ريكمبرج بلهجة المنصر ، ارأيت اني مصيب فيما اقول

قال ، هو ذاك ولكن ابنة عمي عوراء وانت تقول انــك رأيت عينيها حين جاءتك بالصك .

– نعم ولكني ذكرت الان ان احدى عينيها لم تكن تتحرك فهي دون شك من الزجاج .

– لقد اصبت أيها الصديق وانا اذكر ايضاً ما سمعته في الريف حين وضعت تلك العين المستعارة واعجاب الناس باتقان صنعها .

وانا أعجب الآن لسعيها في انقاذي فانها نشأت بعيدة عن أبيها وتولت تربيتها فلاحة من فضيلات النساء اشتهرت بين المزارعين بالتدين والفضيلة فغرست في نفسها مبدأ الحق وكرهت هرمين جور أبيها ففعلت ما فعلته مدفوعة بمبدأ العدالة .

فقال ريكمبرج ، ان هذه الفتاة الطاهرة قد اظهرت لك مالم تكن تتوقعه من آيات اخلاصها ولولا حادثة الليلة للزمت الصمت ولكن عمك الكونت قد نهج نهجاً منكراً حلنا من كل قيد وسأنظر في امره منذ الغد .

– ماذا تريد ان تفعل ؟

– لا اعلم بعد ولكني سأخبرك بكل ما اعزم عليه

ثم ترك خادمه يعتني بعلاجه وانصرف الى غرفته

بينما كانت هذه الحوادث تجري كانت مرغريت وهرمين تشتغلان باعداد معدات الرحيل

وقد اصلحت هرمين ثوب الغلام ولبسته مرغريت فبات كأنه قد جعل لها .

وبعد ان فرغتا من التأهب افترقتا على ان تجتمعا في الساعة السادسة وفي اليوم التالي اجتمعتا فلبست مرغريت ثوب الغلام واحكمت وضع شعرها تحت القبعة ثم جاءت فرنسواز فوجدت الدوقة لابسة ملابس ولدهــا

فقالت لهـا هرمين ، ان هذه السيدة صديقة وقد تنكرت بملابس ولدك لانهـا تحب السفر معنا الى تورين دون ان يعلم احد بسفرها ، فهل ابقيت ولدك في الفندق كما اوصيتك ؟

– نعم يا سيدتي

– اذن فاعلمي ان هذه السيدة ستكون ولدك الى ان نبلغ الفندق .

– ولكن الكونت رآني حين دخلت ولم ير معي ولدي

– لابأس فلنجرب عسى تنجح التجربة

ولم تكد تتم حديثها حتى دخل ابوها وهو متجهم الوجه منقبض السحنة فقال لهرمين بجفاء ، اتأهبت للسفر ؟

فارته هرمين المعدات وقالت ، نعم يا أبي

قال ، حسناً فسافري

– كيف ذلك أأسافر دون ان تعانقني ؟

– اعانقك لتخونيني خيانة جديدة .. كفى وارفعي برقع الرياء .

ثم توقف فجأة وقد رأى مرغريت فقال وقد قطب حاجبيه من هذا الغلام ؟

فقالت له فرنسواز ، كيف ذلك يا سيدي الكونت الم تعرف ولدي بليز ؟

– ولدك.. ايكون هذا الغلام الجميل ولدك.. كلا ان ذلك محال

– بل انك لم تره منذ عهد حداثته يا سيدي الكونت ، اي منذ إثني عشر عاماً

– ربما ولكن كيف دخل الى هنا ؟

فضحكت فرنسواز وقالت ، انه دخل من الباب الأكبر

– ولكني رأيتك حين دخلت فقد كنت وحدك

– ذلك انه دخل قبلي لآخذ امتعة الآنسة هرمين

– هذا عجيب فاني لم أره

فذهبت فرنسواز الى مرغريت فهزت كتفها وقالت لها ، اسرع ايها الكسول وخذ امتعة السيدة .

فأخذت مرغريت تجمع الامتعة

وقال الكونت لفرنسواز، ولكني اراه لابساً ملابس جديدة قالت ، هذا عيبه يا سيدي الكونت فانه شديد العناد

– ماذا فعل ؟

– أني اشتريت له هذه الملابس الجديدة كي يلبسها في باريس ولكننا لم نقم فيها الا يوماً واحداً فما اذنت له بلبسها وما زال يقلقني حتى لبسها بالرغم عني وهو يقول انك اشتريتها لي لألبسها في باريس وقد اتينا الى باريس

فنكست مرغريت بصرها وقالت ، لو كان سيدي الكونت مكاني لفعل فعلي فاننا لا نأتي كل يوم الى باريس

فقال لها الكونت ، اتحب باريس يا بليز

فاجابته مرغريت ، لا اعلم فاني لا أعرفها

واذا اقترحت عليك ان تقيم فيها

– كيف ذلك ؟

– ذلك بان أجعلك في خدمتي –

فاظهرت مرغريت اشارة دلت على الذعر فقال لها الكونت، العلك خفت مني ؟

كلا يا سيّدي لقد طالما قيل لي انك من أكارم الناس ولكني احب أمي ولا أحب فراقها .

– اذن أبق مع أمك واذهب بالامتعة .

فاسرعت مرغريت الى أخذ الأمتعة وخرجت مع فرنسواز الى المركبة وهي لا تصدق انها نجت لشدة رعبها وخوفها من الافتضاح .

ولما خلت هرمين بابيها دنت منه فعانقته وهي تقول ، اواه يا أبي لو كنت تريد .. فافلت منها وقاطعها بجفاء قائلاً : اذهبي . ثم أشار بيده الى الباب وقال ، انك اذا كنت تحبينني فهذا هو عقابك .

فذهبت هرمين والدموع تسيل من عينيها حتى وصلت الى المركبة فصعدت اليها وسارت بها وبالدوقة وفرنسواز وفيرجيني

القسم الثاني

ذات العقد

١٤ ــ المقابلة

وقد أستترت مرغريت في داخل المركبة بحيث لم تكن تبدو للأنظار وكانت فرنسواز تسوق المركبة .

وكان برجريت قد أوصل هرمين الى المركبة فطيب خاطرها ووعدها ان لا يكون غيابها طويلاً .

وكان يكلمها بلهجة تشف عن تأثر عميق ولكن هرمين لم تكن تنتبه اليه لأنشغالها بما هي فيه .

وكانت هرمين ومرغريت لا تفكران الا بأمر واحد وهو، هل ان الغلام تمكن من ابلاغ رسالة أمه الى ريكمبرج واذا كان صاحب الفندق قد أخبر ريكمبرج فهل أتقى الخطر مع المركيز واذا كان اللصوص قد هاجموهما فهل خرجا فائزين من هذا المعترك؟

هذا ما كانت تفتكر به الصبيتان ومما كان يزيد انشغالهما انهما لم تكونا تستطيعان الوثوق من مصير الاثنين قبل مبارحتهما باريس .

فبينما كانت المركبة سائرة في عطفة شارع سانت بول خيل لهرمين انها رأت ريكمبرج فاضطربت اضطراباً شديداً ومسحت عينيها كي تستوثق انها غير منخدعة ونبهت مرغريت اليه فرأته الدوقة أيضاً وقالت ، انه ريكمبرج بعينه ولكن كيف اتفق وجوده هنا ؟

* * *

كان ريكمبرج قد تأثر لحكاية هرمين حين علم حقيقة أمرها وما عانته من اضطهاد أبيها واهمالها كل زمن حداثتها لا سيما حين عرف مبادئها بعد وثوقه بأنها هي التي أنقذت أبن عمها ونصرت الحق على أبيها .

وقد مال اليها ميلاً شديداً بعد ان أنذرتها بذلك الكمين وعلم انها لا بد ان تكون شديدة القلق عليهما .

فلما فارق رينالد لم يكن يشغله غير الاهتمام بايجاد وسيلة يتمكن بها من تطمين بالها وابلاغها ان المركيز لا يزال على قيد الحياة .

ولذلك نهض صباحاً وذهب الى جهة منزل الكونت دي مورلاي وهو لم يجد بعد وسيلة لاخبارها .

وكان كل قصده ان تراه هرمين ومتى رأته أيقنت ان المركيز حي فجعل يرود حول المنزل راجياً ان تظهر هرمين من أحدى نوافذه ثم يعود الى العطفة وهلم جراً حتى رأى مركبة فرنسواز قفت أمام باب المنزل .

فلم يكترث لهذه المركبة في البدء ثم رأى غلاماً يحمل أمتعة

اليها تصحبه فرنسواز وفيرجيني .

ثم رأى بعد ذلك فتاة دنت من المركبة وهي تعرج عرجاً خفيفاً ورأى رجلا أمامها يحييها تحيات وداع فعرف انها هرمين مسافرة من باريس .

وقد وقف حيث كان يراقب حتى مرت به المركبة فرأى هرمين قد أطلت من المركبة وحدقت به وهو يغني بالصفير .

ثم ابتعدت المركبة وقد سرت مرغريت وهرمين مما رأتاه على وجه ريكمبرج من السرور لدلالتها على ان المركيز لم يصب بسوء .

وقد قالت هرمين في نفسها، انه تظاهر بعدم معرفتي ولكنه يعرف من أنا وهو لم يقف حيث كان قرب المنزل ولم يترنم بصفيره حين رآني الا لأثق من سلامتها ونجاتهما من الكمين .

ثم أحمر وجهها فغطته بيديها وقالت ، اذن لقد علم رينالد بأني أنا التي انقذته ولكن لماذا لم يأت هو أيضاً كما أتى ريكمبرج ومالي أرى هذا الكولونيل الكريم الابي الباسل في كل مكان ؟

أما ريكمبرج فقد تردد في لحاق المركبة ثم سار في أثرهما حتى رآها وقفت عند باب فندق في شارع سانت دنيس .

وبعد هنيهة خرج من ذلك الفندق غلام فصعد الى المركبة وسارت بهم الى جهة الخلاء وبعد نصف ساعة كانت سائرة في طريق أورليان .

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة فلم يستطع ريكمبرج لحاقها لاضطراره الى الذهاب الى رينالد فعاد اليه فوجده قد شفي أتم

الشفاء وغطى جرحه بقبعته فلم يظهر أثره فذهب الاثنان الى اللوفر حيث كان ينتظرهما الكونت لورجييري .

فلما رآهما الكونت فرح بلقياهما وهنأهما بالسلامة .

فذهل ريكمبرج لما سمعه وقال له ، كيف ذلك أعرفت ما اتفق لنا ؟

قال ، ان الناس لا يتحدثون منذ الصباح الا بأمر قتالك العجيب حتى ان الملك والكردينال نفسه قد تأثرا لأمكان حدوث هذه المعركة على مسافة قريبة من اللوفر وفي الساعة التاسعة من المساء والشائع انهما أقرا بالبحث عن المجرمين وسيسألانك عما حدث .

وقبل ان يتم الكونت كلامه رأى ريكمبرج جماعة النبلاء الواقفين في الردهة يبتعدون ويفسحون الطريق لرجل كان لابساً ملابس الكرادلة وهو لا يزال في عهد الشباب .

فلما رآه ريكمبرج أسرع اليه ، وهو يقول ، جيليو

فمد مازارين اليه يده مصافحاً وقال، أهذا أنت يا ريكمبرج

وقد تعانق الصديقان بملء الفرح ورأى مازارين ان الموقف غير صالح لبث الأشواق فأخذ مازارين بيد ريكمبرج ودخل به الى قاعات الكردينال .

وكان الناس لا يكترثون لريكمبرج ورينالد فلما رأوا ما كان بين مازارين وريكمبرج أقبلوا جماعات على المركيز يسألونه عن معركة الأمس والكونت دي مورلاي واقف ينظر الى ابن أخيه وقد اصفر وجهه حتى بات كالأموات

أما المركيز فقد أجابهم قائلا :

يستحيل علي أيها السادة ان أروي لكم كل ما حدث فاني لم أكد أقتل او أجرح ثلاثة في بدء المعركة حتى أصبت برصاصة في رأسي أضاعت رشادي .

فقالوا ، كيف ذلك أقتل الكولونيل ريكمبرج وحده بقية العشرين ؟

– نعم

– وحده ؟

– وحده

وكان مازارين وريكمبرج يتحدثان خلال ذلك بصوت منخفض فقال له مازارين ،

ماذا تعمل الان ؟

قال ، لا أعمل شيئاً

– العلك اتيت لالتماس منصب ؟

– كلا بل كل ما أطمع به الان نيل الأذن بمقابلة الكردينال

– ماذا تريد منه ؟

– اريد ان أقدم له صديقي المركيز دي كولدراي

– ولكن أنت ماذا تريد ؟

– كل ما يريدونه لي بشرط ان يكون شريفاً

– حسناً فسأتعهد بذلك فجئني بالمركيز حين خروجك من عندي فاني مدين له بجميل يجب ان أشكره عليه .

واما الان فلنبحث في ما هو أهم من ذلك فقد أتيت تلتمس مقابلة الكردينال كما تقول

– هو ذاك والاقرب العاجل

– اذن انتظرني الى ان أعود اليك

ثم تركه ودخل الى غرفة الكردينال ريشيليه دون استئذان

أما ريكمبرج فذهب للقاء المركيز وهو يقول في نفسه ، لا شك ان العناية ترافقنا فان لصديقي مازارين كلمة نافذة كما أرى وهو يجول في اللوفر كما يجول في بيته .

فلما وصل الى حيث كان رينالد اجتمع الناس من حوله وارادوا ان يسمعوا من فمه تفصيل تلك المعركة .

واما الكونت دي مولاري فقد رأى أن موقفه بات حرجاً فذهب الى جهة الباب يحاول الأنصراف

ولكن ريكمبرج رآه فثارت كوامن غضبه وترك رينالد والناس الذين كانوا محدقين به ومشى الى الكونت فقال له بصوت مرتفع :

لي كلمة أقولها لك يا سيدي الكونت

فوقف الكونت وقد امتقع لون وجهه .

فقال له ريكمبرج بصوت منخفض ، يجب ان تعد نفسك سعيداً لأني ما لقيتك الا في مثل هذا الموقف .

غير أني أغتنم هذه الفرصة لأقول لك ما عزمت عليه ،فاعلم انك اذا حاولت الاساءة الي أو الى المركيز بمثل اساءة أمس قتلتك دون أشفق كما يقتل الكلب الكلب

– ماذا تقول ؟

– أقول اني أنذرتك وكفى فامض الآن بشأنك .

وقد قال هذا القول بلهجة وعيد شديدة حتى خشي الكونت أن يبطش بـه فابتعد وهو يحاول ان يتظاهر بمظاهر السكينة ولكنه لم يخف بحياته مثل خوفه في تلك الساعة .

أما ريكمبرج فانه تركه وعاد الى المركيز وعاد الناس الى سؤاله عن المعركة فأخبرهم بتفاصيلها دون أن يذكر اسم الكونت

وعند ذلك فتح الباب الأكبر الذي دخل منه مازارين وخرج أحد حجاب الكردينال ريشيليه فذكر بصوت مرتفع اسمي ريكمبرج ورينالد .

فاسرعا اليه فقال لهما ، اتبعاني الى الكردينال ودخل بهما الى قاعة متسعة في وسطها سرير كان ريشيليه مضطجعاً فيه .

ولكن هذا الرجل الذي كان يلقب بالرجل الحديدي وكانت ترتجف منه فرنسا وأوربا باسرها كان في ذلك العهد هزيلاً ضئيلاً يسير سيراً سريعاً الى القبر ولم يبق من جسمه غير جلده ومن أدلة حياته غير اتقاد عينيه فكان هيكلاً من عظام .

فلما دخل بهما الخادم قال ريشيليه لرينالد ، ادن مني أيها المركيز وأما أنت أيها الكولونيل فتفضل بالانتظار في القاعة المجاورة الى أن أدعوك فاني أريد مباحثة المركيز .

فانحنى ريكمبرج وانصرف وقال ريشيليه للمركيز ، ادن مني كي اسمعك فانك قادم لي لأمر أخبرني جلالة الملك ببعضه .

فانحنى المركيز وقال ، هو ذاك يا مولاي

– ولكنك ما أتيت باريس للاهتمام بهذا الشأن وحده كما أظن

– لم يكن لي غير هذا الغرض يا مولاي

ـ أيمكن ذلك ان يتفق لرجل نبيل مثلك لا يزال في مقتبل الشباب ، فقل ما الذي تطمع فيه ، اتطمع بمنصب في الجيش ام تؤثر البقاء في باريس فاذا كان ذلك عينتك لقيادة حراسي .

ـ اشكر نيافتكم يا مولاي ولكني لا التمس شيئاً الان

فضحك الكردينال وقال احذر أن أسيء بك الظنون فقد كان أبوك من أعدائي وأخشى ان تحذو حذوه في مناصبتي العداء

ـ معاذ الله ان يكون ذلك يا مولاي فاني لم أشتغل في السياسة ولا أضمر لنيافتكم غير الاخلاص والاحترام

ـ اذن لابد لي أن أعتبر رفضك ما أعرضه عليك غريباً في بابه .

ولم تكن فراسة الكردينال قد أخطأت برينالد فانه لم يكن يميل اليه ويعتبره السبب الاكبر في موت أبيه فاضطرب لما سمعه من الكردينال ولم يجد بداً من ارضائه فقال :

اني لا أرفض انعام مولاي الكردينال غير أني لا أستطيع خدمته بما يجب من العناية والاهتمام وانا على ما انا فيه من الاضطراب بشأن ثروتي المفقودة

ـ لقد وصلنا الى الموضوع

ـ هو ذاك فاني ما أتيت باريس الا لغرض واحد وهو التماس العدل من نيافة مولاي الكردينال ، الا يرى مولاي ان اقتصاري على الاهتمام باسترداد ثروتي من الأمور الطبيعية المعقولة؟

ـ أرى ان الطبيعي المعقـــول في القضايا ان يبـــدأ المتقاضي بارضاء قضاته ولكن عنادك في رفض اقتراحي يدلني

دلالة صريحة انك ابن أبيك في السياسة والاميال .

– ولكن يا مولاي

– كفى ولنبحث في الغرض الذي اتيت لاجله كما تقول فقل لي ، الم يعهد أبوك قبل موته بادارة شؤون اعماله الى أخيه ؟

– نعم ولكنه لم يعهد اليه بها الى الابد

– وهل قبل مجلس البرلمان في تورين شكواك ؟

– كلا وهذا الذي دفعني الى الالتجاء لعدل نيافتكم .

ان نيافتي لا تستطيع ان تعمل شيئاً بعد حكم البرلمان ، فكيف أستطيع نقض حكمه بوجوب بقاء الثروة في يد الكونت دي مورلاي .

– ولكن عمي لم يكن يحق له ادارة هذه الثروة الاحين كنت قاصراً وكان وصياً علي

أما الان فقد بلغت الرابعة والعشرين من عمري. فلم يبق سبيل الى بقاء هذه الوصاية .

– من أين لي أن أعرف ذلك فاني لا أحكم في هذه الامور الا بموجب ما يعرض علي من الاوراق وهذه أوراق قضيتك تدل على ان المجلس قد حكم عليك

وفوق ذلك فانه يوجد بين هذه الأوراق صك يشير اشارة واضحة الى تنازلك عن الثروة

– الم يقل جلالة الملك شيئاً لنيافتكم عن هذا الصك ؟

– لقد قال لي عما أخبرته به ولكن ما يضمن لي صدق هذا القول وبعد اليس التوقيع على الصك توقيعك ؟

– نعم غير أني أكرهت على كتابته

– واذا كان الكونت دي مولاري يقول ضد هذا القول فايكما يكون من الصادقين

– الحق يا مولاي انك تدافع عن الكونت دي مولاري خيراً مما يدافع عن نفسه

– وهب ان ذلك كان صحيحاً فاين اللوم .. ان اثنين من النبلاء يتقاضيان ويدعي كل منهما انه صاحب الحق فلمن تريد ان يكون ميلي ، الذلك الرجل الذي يخلص في خدمتي الاعوام الطوال ام لذلك الفتى الذي أظهر لي أنه من ألد أعدائي ؟

وكن في موقفي أيها المركيز واحكم ، ألم يكن دي مورلاي من أوفى المخلصين لي في حين ان دي كولدراي كان من ألد أعدائي حتى الموت ؟

نعم انه عاش عاصياً متمرداً ومات عاصياً وسيفه مسلول لمحاربتي ، اتستطيع انكار ذلك ..

لا تتهمني بالظلم ايها المركيز بل اتهمني بالضعف اذا شئت فاني لو أردت معاملة أبيك بما كان يستحقه من القسوة لما أبقيت له هذه الثروة التي تطالب بها الان ودليل ذلك أني ضبطت أملاك أبيك وليس بينهم من عادل ذنبه ذنب المركيز دي كولدراي .

فقال له رينالد بلهجة دلت على اليأس ، أرى يا مولاي أنه قد حكم علي مقدماً ولا يسوؤني الا أني ازعجت نيافتكم

– كلا لم يحكم عليك بعد فقد وعدت جلالة الملك بشرط ان لا

تحملك الحدة الى ارتكاب مالا يجمل بالاشراف

– اذا كان مولاي يعتقد أني أرتكب ما ارتكبه الكونت دي مورلاي فقد أخطأت فراسته بي

– ماذا تعني بذلك ؟

– أعني أنه بعد أن أخفق مسعاه بالحيلة عمد الى القوة واذا كنت لا أزال في قيد الحياة فلأنه لم يستطع قتلي .

– ولكن هذه الشكوى التي تشكوها صريحة رسمية فهل لديك برهان يؤيدها ؟

– اذا تدانى مولاي الى النظر الى رأسي يجد البرهان الدموي الذي يسأله .

– نعم نعم فلقد حدثني اليوم جلالة الملك ورئيس البوليس بشأن معركة اثارها الكولونيل ريكمبرج قرب أبواب اللوفر وأنك كنت فيها ، ألعلك تشير الى هذه المعركة ؟

– نعم يا مولاي

– اذن ادع لي الكولونيل ريكمبرج .

فذهب رينالد الى الغرفة المجاورة وأشار الى ريكمبرج فأتى فقال له الكردينال لقد أخبروني انك أثرت أمس معركة منظمة قرب اللوفر .

فأجابه ريكمبرج قائلا ، لم تكن معركة يا مولاي بل كانت كميناً سافلا

– لمن نصب هذا الكمين

– للمركيز دي كولدراي

– ومن الذي ارتكب هذه الفعلة المنكرة فيما تعتقد ؟

– الكونت دي مورلاي

– الديك برهان ؟

– برهان لا ينقض

– ما هو ؟

– يعز علي يا مولاي اني لا استطيع أظهاره لنيافتكم

– لماذا ؟

– لان الذي حذرنا من هذا الكمين امرأة لا يخلق بي فضيحة أمرها .

– واذا أمرتك بالاقرار ؟

– اضطر مكرهاً الى العصيان

– واذا أمرت بالقبض عليك ؟

– أسلم حسامي للفور

فعض الكردينال شفته من الغيظ ولم يجب

وعاد ريكمبرج الى الحديث فقال ، لا أرى مولاي في حاجة الى اقراري فان رئيس البوليس اذا سأل جرحى تلك المعركة يخبرونه بالحقيقة

– الا تقول لرئيس البوليس عن اسم تلك المرأة ؟

– اذا كنت لا اقوله لكم يا مولاي فكيف أقوله له ؟

– حسناً فقد اتضح لي الان أني اذا كنت محتاجاً الى المخلصين فلا أجدهم بين أمثالكما .

- لقد اخطأ مولاي فانه لو أمرنا بمهاجمة جيش برمته لقاتلناه حتى نموت

- هل يعرف دي كولدراي أيضاً أسم هذه المرأة ؟

- لم يعرفه الا في هذا الصباح

- وهو يأبى التصريح به مثلك ؟

فاجابه رينالد ، التمس من نيافة مولاي ان لا يحملني الم الرفض

فاستاء الكردينال استياء عظيما وقال ، كفى فاذهبا في شأنكما .

فانحنى الاثنان وانصرفا .

وقد ذهبا تواً الى مازارين فسألهما عن نتيجة المقابلة فحكيا له كل ما اتفق لهما مع الكردينال بالتفصيل .

فقال لهما ، يسوؤني اني لا أستطيع افادتكما في شيء فاني مستشار بسيط في الحكومة وانا مدين لريشيليه برتبة الكردينالية فلا يخلق بي مقاومة رجل احسن الي ونفوذه فوق نفوذ الملك .

فادرك ريكمبرج ان مازرين يستطيع ان ينال ما يشاء من ريشيليه ولكنه محتاج اليه في شؤونه الخاصة فلا يريد ازعاجه في شؤون سواه فشكره وهم بالانصراف ولكن مازارين أوقفه وقال له ، اني اذا لم أستطع اليوم افادتكما فاني أرجو متى بزغ نجمي أن أفيدكما خير فائدة وثقا أني لا أنساكما .

ثم شيعهما الى باب غرفته فخرج الاثنان من اللوفر وهما منقبضا الصدر قانطان من استرجاع الثروة بعد ان أيقنا ان الكردينال يريد الانتصار للكونت .

أما الكونت دي مورلاي فانه عاد الى منزله وهو مضطرب فانه لم يكن يخشى فقط انتقام ريكمبرج بل كان يخشى أيضاً ان يغضب عليه الملك بعد ان يفتضح أمر ذلك الكمين

ولم يخطىء ظنه فقد جاءه بعد ساعة ضابط من حراس الملك يحمل اليه أمر جلالته بالسفر في الحال الى تورين .

فانقض عليه هذا الامر انقضاض الصاعقة لأنه اذا برح باريس خلا الجو لرينالد فاسترد ثروته برغم أنفه .

ولكنه نظر في ذلك الأمر فوجد عليه توقيع الملك لا توقيع الكردينال فأيقن ان الملك لم يخبر وزيره بشأن هذا النفي ورأى ان يقابل الكردينال قبل مبارحة باريس .

فذهب اليه وتمكن من مقابلته دون صعوبة

أما الكردينال فانه حين رآه قطب حاجبيه وقال له بجفاء ، كيف بقيت هنا وقد أخبرني الملك منذ هنيهة أنه أصدر الأمر بنفيك الى تورين .

فتظاهر الكونت بالدهشة وقال ، اني لم أعد بعد الى منزلي ولم اتلق هذا الأمر فهل تأذنوا لي يا مولاي ان أسألكم عن السبب الذي استحققت من أجله غضب جلالة الملك ؟

ولكنك تعرف السبب كما أعرفه ، ألعلك نسيت كمين

الأمس على قيد خطوتين من اللوفر ؟

– نعم يا مولاي أذكره ولكني ليس لي غير عدو واحد يقاتلني منـذ عهد بعيد بالنميمة والحيلة

وقد طال به الأمر حتى أكرهني الى استعمال القوة فاني لم يكن يخطر لي في بال ان أصل الى هذه النتيجة بعد اخلاصي في خدمتكم عشرة أعوام .

– ماذا تعني بذلك ؟

– أعني اني كنت أرجو ان أنال من حمايتكم ما يحق لي الطمع به فاني ما ضحيت نفسي في خدمتكم الا في سبيل نيل هذه الحماية وأنتم تعلمون يا مولاي اني ما كوفئت بشيء في خدمتي واخلاصي هذا العهد الطويل .

أأنت قادم الي لتسألني مكافأة ؟

– بل جئت التمس من نيافتكم ان تنظروا الي نظرة رضى تمنعني عن اثارة مثل هذه المعارك في باريس على فتى مجنون

– أرى أنك تريد أمراً يقضي بسجن رينالد ؟

– هو ذاك يا مولاي فان من يخدم نيافتكم خدمتي لا يقل فيه مثل هذا الجزاء

– ولكني لا أستطيع اعتراض أمر الملك فان الملك لا يهتم بشؤون الملك على الغالب ولكنه حين يريد أمراً لا يبقى سبيل لنقض مـــا أمـــر

– اذن أسافر ولكن اذا حق للملك ان يعاقب فقد حق

لكم أيضاً ان تكافئوا

فظهرت على ريشيليه علائم التفكير والتردد وكان لا يزال متأثراً من اجتماعه برينالد متوجعاً لما سمعه منه فنظر الى الكونت وقال

نعم انك تستحق المكافأة كما استحققت العقاب فعد الآن الى منزلك وسأرسل لك في الغد ذلك الأمر القاضي بالسجن ولكني أشترط عليك ان تتظاهر بتنفيذ أمر الملك

– اني أقسم لنيافتكم بالامتثال .

– وتقيم أسيراً في منزلك لا تبرحه لحظة قبل ان آذن لك

– سأمتثل يا مولاي

– وهـذا الأمر الذي سأرسله اليك لك ان تتصرف به كما تشاء بشرط ان لا يراه أحد فاذهب الآن

فانصرف الكونت والدنيا لا تسعه لسروره حتى اذا وصل الى منزله أمر خدمه بالتأهب للسفر كي يظهر للجيران أنه راحل

ثم وضع كثيراً من الأمتعة في مركبة سفر وألبس أحد خدمه وشاحاً كبيراً كان يلبسه وأمره ان يسير بالمركبة في طريق تورين

وقد ترك غرفته التي كان يقيم فيها مبالغة في الوقاية وذهب مـــع برجريت الى الغرفة التي كانت تقـــيم فيها هرمين فخلا به وهو لا يخطر له ما يجري وراء مستوقد غرفته في غرفة

الدوقة دي فيلان .

كانت خادمة مرغريت قد أعانت سيدتها في السهرة على خلع ملابس وتركتها وهي عازمة على الرقاد .

وفي الصباح نهضت الخادمة من رقادها وأقامت تنتظر ان تناديها سيدتها بقرع الجرس حسب العادة .

ولكن مضت ساعة واثنتان وثلاث دون ان تسمع صوت الجرس فقلقت ووقفت عند باب غرفة سيدتها تصغي فلم تسمع حساً .

وقد حاول بابتيست ان يفتح الباب فوجد انه مقفل من الداخل فقال انها قد تكون مريضة فلا بد لنا من اخبار الدوق .

ثم ذهب الاثنان الى الدوق وأخبراه بقلقهما فأسرع الدوق وجعل يقرع باب الغرفة فلا يجيبه احد .

وعند ذلك لم يجد بداً من كسر الباب فكسره ودخل الى الغرفة فلم يجد مرغريت فيها ووجد ثيابها مبعثرة على المقعد فدخل الى الغرفة الصغيرة الكائنة بجوار غرفتها فلم يجدها. فنظر الى النوافذ المشرفة على الردهة فرأى احداها مفتوحة .

فقال، لم يبق شك أنها هربت من هذه النافذة ولكنه بحث فلم

يجد أثراً للفرار فدهش عظيما اذ لم يجد منفذاً لها الا من تلك النافذة فان الباب كان مقفلاً من الداخل كما تقدم .

وكانت مرغريت قد فتحت تلك النافذة خصيصاً كي يعتقد الدوق انها فرت منها فلا يبحث عن ذلك المنفذ السري

وقد صح حسابها فان الدوق بعد البحث الدقيق اعتقد أنها هربت من النافذة ولكنه وثق أنها لا تستطيع الفرار منها دون مساعد ، ومن عسى ان يكون هذا المساعد غير رينالد .

فخطر له ان يستوثق من ذلك في الحال ولا سبيل الى الوثوق الا بمقابلة المركيز ولكن أين يجده وهو لا يعرف أين يقيم .

وقد ذكر عند ذلك أنه رأى المركيز في ردهة قاعات الكردينال مع الكونت لورجيبري وهذا الكونت خال مرغريت وهو يهتم بأمرها دون شك فأسرع لفوره الى الكونت لورجيبري وأخبره بفرار مرغريت .

أما الكونت فانه اضطرب اضطراباً شديداً لهذا الحادث فانه علم من ريكمبرج ما تعانيه بنت أخته من الشقاء بعشرة الدوق ولكنه لم يكن يتوقع منها هذه الفضيحة بالفرار .

وبعد سكوت قصير التفت الى الدوق وقال له

ان الذنب ذنبك في ما حدث فلو لم تكرهها اكراهاً على الزواج بك لما اضطرت الى هذا الفرار

غير انه لا بد لي من مساعدتك في هذا الشأن الخطير فاني لا أعذرها في فرارها مهما لقيت منك ولم يبق لي غير رجاء واحد

وهو ان تكون ظنونك مخطئة فتعال معي .

قال الى اين ؟ قال الي المركيز دي كولدراي .

فوافقه الدوق وسار الاثنان الى فندق الاوزة السوداء حيث كان يقيم المركيز فوجداه واقفاً عند باب الفنــدق وهو مقطب الجبين متجهم الوجه ينتظر بجزع دنو ساعة الغداء .

فدل الكونت الدوق عليه وقال له ارأيت كيف انك مخطىء في مزاعمك ؟

التقـاء ريكمبرج بهرمين

فلم يقتنع الدوق لهذا البرهان وقال له من يعلم فقد يكون ذلك من قبيل العبث بنا فان الدوقة دخلت الى غرفتها في السهرة وأقفلت بابها من الداخل فقد كان الوقت فسيحاً لها للفرار الا يمكن ان يكون المركيز اقامها في محل امين وعاد الى الفندق كي يحول عنه الانظار ؟

– لا انكر ان ذلك قد يكون ولكن العشاق لا تكون لهم هذه الحكمة وفوق ذلك فقد رأيت في صباح اليوم ريكمبرج والمركيز في ردهة الكردينال .

– ذلك لا ينقص ظني فان صديقه ريكمبرج بعينه على اتباع مناهجهما .

– اما انا فاني لا اعتقــد ان عاشقاً يتخلى عن عشيقته اثر اختطافه للاهتمام في شؤونه الخاصة .

– ان من كان في موقفي يحق له ان يفترض كل شيء .

– لا انكر ذلك ولكني سافعل امراً يظهر لك جلياً بعده

أنك مخطىء وهو أني لا أستطيع أن أذهب بك الى المركيز بعد ما حدث بينكما وهو لم يرك واياي فانه واقف عند باب الفندق لا يفكر الا بأموره كما يظهر فقف في هذه العطفة وراقب ما يكون فسأذهب اليه تواً وأخبره قبل البــدء بالحديث بفرار مرغريت ومثل هذا الخبر لا بد أن يؤثر عليه تأثيراً غريباً اذا فوجىء فيه فلا يخفى التأثر عليك .

– اني أوافق على ذلك

ثم اختبأ في العطفة وذهب الكونت تواً الى المركيز

وكان رينالد مطرقاً برأسه الى الأرض وقد ضاقت الدنيا في عينيه لما لقيه من الخيبة لدى الكردينال

فلما وصل اليه الكونت قال له ، ماذا تصنع هنا أيها المركيز ألم تعلم بماذا حدث فنظر اليه المركيز وقال له بلهجة القانطين ، ماذا اتفق العله حدثت نكبة جديدة .

– نعم أيها الصديق فان الدوقة دي فيلان قد اختفت منذ ليلة أمس

وقد كان اضطراب المركيز عظيما حين فوجىء بهذا الخبر حتى شعر أنه سيسقط فتمسك بكتف الكونت

ثم ضبط نفسه وقال له بصوت أجش ، أين هي ؟

قال ، لا أعلم ولكن يسرني أنها غير مذنبة كما كنت أخشى

– ماذا كنت تخشى وماذا كنت تتوقع ؟

– لقد كنت أعلم أنك مفتون بها فخشيت أيها الصديق أن

تكون املتها عن الواجب وما فاجأتك بهذا الخبر الا لاستوثق منك غير أن أضطرابك دلني على اني أسأت اليك بهذه التهمة فانا اعتذر اليك وأسألك أن تساعدني في سبيل البحث عنها .

– اني اعذرك يا سيدي الكونت وسأبحث بملء الجهد فاذا وجدتها أخبرتك في الحال .

فودعه الكونت وانصرف عائداً الى الدوق .

ولم يكن الدوق قد سمع كلمة من الحديث ولكنه رأى ما كان من دهشة المركيز واضطرابه فهان على الكونت اقناعه بانه ليس للمركيز يد في هذا الفرار .

وعاد الأثنان الى منزل الدوق فجعل الكونت يبحث بنفسه كما بحث الدوق من قبله علّه يجد أثراً لفرار مرغريت ولكن ابحاثه ذهبت أدراج الرياح .

أما رينالد فانه أسرع الى ريكمبرج وأخبره بما سمعه من الكونت فعجب ريكمبرج لهذا الاختفاء الغريب واكبر شأنه ولم يهتد الى حله فان الكونت لورجييري لم يقل كلمة للمركيز عن تفاصيله .

وأما رينالد فانه أراد أن يبدأ البحث في الحال فاعترضه ريكمبرج قائلا :

الى أين تذهب وأنت لا تعلم شيئاً من امرها وأين تبحث عنها وأنت لا تعلم اذا كانت برحت باريس أم هي باقية فيها فلنأكل في البدء ثم نذهب معاً الى الكونت لورجييري وهناك

نعلم ما ينبغي أن نفعل .

فوافق رينالد على هذا الاقتراح بعد الالحاح الشديد وبعد الطعام ذهبا معاً الى الكونت فعلما منه أن مرغريت أنذرت الدوق بالفرار وفي يوم الانذار نفسه هربت من المنزل ، وقد أخبرهما كيف هربت أي كيف اعتقد أنها فرت .

فكان ريكمبرج يصغي الى حديث الكونت منذهلا كيف أن امرأة تستطيع النزول في الليل من مثل تلك النافذة العالية دون أن ينتبه لها أحد من الخدم خلافاً لرينالد فانه لم يكن يفتكر الا بانها ابتعدت عنه .

ثم تركا الكونت وهما لا يعلمان ما يجب أن يصنعاه وسارا في الشارع فالتقيا بثلاثة من الفتيان النبلاء كانا رأوهما في ردهة الكردينال من قبل .

وقد دنا أحد أولئك الفتيان من رينالد وقال له :

أسألك العفو يا سيدي المركيز لتهجمي عليك في الحديث ولكني رويت حكايتك لابي الكونت دي كبريال فاعجب بك وأخبرني أن أباك كان من اخلص أخوانه وقد روى لي عنه أموراً شوقتني الى التقيد بصداقتك فاسمح لي أيها المركيز أن أعرفك بنفسي وبصديقي اللذين يصحباني وهما الكونت دي ليسان والشفاليه دي فورنيليه وأنا أرجوك بالنيابة عنهما وبالاصالة عن نفسي ان تعدنا من أصدقائك .

فأجابه المركيز بعد ان صافحه وصافح رفيقيه ، أشكرك يا سيدي الكونت أجل شكر .

قال ، بل ارجوك ان تفعل خيراً من هذا وهو أن تصحبنا في نزهتنا وبعد النزهة نذهب الى منزل ابي فنتعشى ثم نذهب جميعنا الى منزل ماريون دلورم فنعرفك بها وسيكون الكولونيل ريكمبرج معنا دون شك .

فظهرت على المركيز علائم التردد ورأى ريكمبرج مـا ظهر من تردده فقال له :

انها خير فرصة نغتنمها أيها الصديق للتسلية فلا ترفض هذه الدعوة .

ثم التفت الى صاحب الدعوة وقال له :

ان صديقي المركيز قد اصيب بما أثار الحزن والاشجان في قلبـه ولا شك أن صحبتكم خير عزاء له عما هو فيه أما أنـا فلا استطيع مشاطرتكم افراحكم اليوم في نزهتكم على اني قد اوافيكم في المساء الى المنزل .

ثم همس في اذن المركيز قائلا : إنني ذاهب تواً الى الخلاء وأرجو أن أعود اليك الليلة بانباء صادقة عن مرغريت، فاذهب ومر مع اخوانك ولا تهتم لها .

وعند ذلك ودعه وودع رفاقه وافترقوا فانصرف رينالد مع رفاقه وهم يضحكون وذهب ريكمبرج الى مـنزل الدوق دي فيلان فوقف يفحصه باعتناء وقد نظر نظرة الباحث المدقق الى النافذة التي اخبره الكونت ان مرغريت قد هربت منها وقال ، كلا ان ذلك محال فانها لا تستطيع النزول منها .

ثم سار الى منزل الكونت دي مورلاي ووقف يراقب ايضاً

فوجد أن جميع النوافذ كانت مقفلة .

وقد ذهل لما رآه وسأل الجيران عن ذلك فاخبره احدهم انه في الساعة العاشرة والنصف جاء ضابط من ضباط حراس الملك يحمل ورقة كبيرة مختومة وان الكونت برح منزله بعـد ذلك بساعة في مركبة سفر .

فقال ريكمبرج في نفسه : لا يبعد ان تكون هذه الورقـة المختومة التي يحملها الضابط أمراً بالنفي وان يكون الملك قـد غضب على الكونت دي مورلاي بعد المقابلة الأخيرة .

ثم قال ان ذلك خير لنا فقد نجونا من عدو سافل على اني لا اعتقد ان مثل الكونت دي مورلاي يعتزل القتال بمثل هذه السهولة ويخلي الجو لابن اخيه في باريس فلا بـد ان يكون له غرض خفي .

وفيما هو يقول هذا القول رأى احد خدم المنزل واقفاً في الردهة وهو يدنو من الباب .

فاخرج من جيبه ديناراً واقترب منه فاعطاه الدينار وقال له انك اذا اجبتني بما ارجوه من الجلاء ضاعفت القيمة .

فاتقدت عينا الخادم باشعة الطمع وقال له ، سل مـا تشاء يا سيدي .

قال : لقد جاءت الى هنا امرأة من أهل الريف في صباح اليوم في مركبة وسارت بغلام كان ينتظرها .

– هو ذاك يا سيدي .

– ماذا تدعى هذه المرأة أتعرف اسمها ؟

– تدعى فرنسواز توشيت

– من أين أتت ؟

– من بوليير من أعمال تورين .

– آأنت واثق مما تقول ؟

– دون شك فانا الذي قابلتها والقيت اليها بعض الاوامر باسم مولاي في الفندق .

– كيف ذلك ، اكانت تقيم في الفندق ؟

– نعم فانها جاءت اليه صباح أمس وكان في نيتها ان تقيم بضعة ايام في باريس .

– كيف عرفت ذلك ؟

– علمته من ولدها بليز وهو ذلك الغلام الذي ذكرت لي الآن انه كان يصحبها في المركبة .

– اعد علي كل ما قاله لك ذاك الغلام .

– لقد قال لي انه جاء مع امه من قصر بوليير ليرى اخته فيرجيني وهي وصيفة الانسة هرمين ابنة سيدي الكونت وكان يرجو ان يقيم مع امه اسبوعين على الاقل في باريس ولكن امه لم تكد تصل اليها حتى امرها الكونت بالسفر في اليوم التالي مع الآنسة هرمين ، وهو ما استاء له الغلام كل الاستياء .

– لماذا ؟

– انه استياء تدعو اليه الحداثة فان امه اشترت له ثوباً جديداً كي يلبسه في باريس ولكنه لما وصل الى باريس أخذت امه الثوب منه واعطته للانسة هرمين وهذا هو السبب في استياء الغلام.

فقال ريكمبرج في نفسه ، ان هرمين لم تأخذ هذا الثوب لها فقد رأيتها بعيني بملابسها النسائية .

وعند ذلك افتكر بذلك الغلام الذي رآه يحمل الامتعة الى المركبة فايقن انه لم يكن ابن فرنسواز لانها تركته في الفندق بعد أن أخذت ثوبه الجديد كما قال له الخادم فسأل الخادم قائلاً ، لماذا تركت فرنسواز ابنها في الفندق .

قال : لا اعلم ولكن ابنها كان يشبه القانطين لا سيما وان امه امرته بان لا يبرح الفندق على الاطلاق .

– هل وصف ذلك الثوب الجديد الذي اشترته له امه وكان علة احزانه ؟

– نعم فقد قال لي انه احمر اللون والقبعة زرقاء عليها ريشة بنفسجية .

– ولكنه نفس الثوب والقبعة اللذين كان يلبسهما الغلام الذي رأيته مع سيدتك هرمين .

– لا يمكن ذلك ان يكون فان فرنسواز لم تحضر ولدها الى – الى منزل الكونت .

– اواثق أنت مما تقول ؟

– كل الثقة فاني رأيته في هذا الصباح ينتظر الى ان تعود امه اليه وقد لبث واقفاً على باب الفندق حتى جاءت بالمركبة فوثب اليها والفرح ملء قلبه وامتزج بمن كان فيها .

– أهذا كل ما تعلمه ؟

– نعم يا سيدي فاني لم اره بعد ذلك .

فنقده ريكمبرج الدينار الذي وعده به وتركه فذهب الى الفندق وهناك اعد جواده فامتطاه وقال لخادم المركيز ، اني قد اتأخر الليلة فمتى عاد سيدك قل له اني ذهبت للبحث فلا يشغل باله علي .

★

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين سار ريكمبرج على جواده في أثر المركبة وكانت المركبة قد برحت باريس في الساعة الثامنة من الصباح فتكون قد تقدمته بسبع ساعات .

غير انه لم يكترث لذلك فان فرنسواز كان لا بد لها من الوقوف للغداء وعلف جواد مركبتها كما انها كانت مضطرة الى أن تسير الهوينا وتريح جوادها فانه كان يجر مركبة فيها خمسة انفس .

ولم يكن في ذلك العهد غير طريق واحد من باريس الى تورين ولا سيما للمركبات فسار ريكمبرج في هذه الطريق .

وقد سار في البدء مسرعاً فاجتاز ثماني مراحل بمدة ساعتين ثم واصل السير الى الساعة السادسة فرأى عن بعد تلك المركبة التي رآها عند باب منزل الكونت دي مورلاي .

ثم رأى تلك المركبة وقفت عند باب فندق ورأى فرنسواز وفيرجيني نزلتا منها ثم هرمين ثم ذلك الغلام اللابس الملابس الجديدة ثم ابن فرنسواز وكان ينظر الى تلك الملابس بعين الحسد وقد لاحظ ريكمبرج ان هرمين نفسها مدت يدها الى ذلك

الغلام تعينه على النزول من المركبة .

وكان الهواء شديداً فسقطت قبعة ذلك الغلام وهوى شعره فاسترسل الى كتفيه فلم يبق شك لدى ريكمبرج انها امرأة متنكرة بزي غلام .

وقد اسرعت هرمين اليها وهي تضحك فاعانتها على رفع شعرها وستره تحت القبعة ثم دخلوا جميعهم الى قاعة الفندق .

ولكنهن لم يكدن يدخلن اليها ويجلسن فيها حتى دخل ريكمبرج فجأة فصاحت مرغريت صيحة دهش ورعب وحاولت الاختباء وراء هرمين .

غير أن ريكمبرج عرفها قبل ان تتمكن من الاختباء وكاد يظهر دهشته لو لم تبادر هرمين الى وضع سبابتها على فمها فاحمر وجهه وباحت هرمين بهذه الاشارة البسيطة بكل سرها .

ويذكر القراء ان ريكمبرج كان قد فحص منزل الدوق فيلان من الخارج فحصاً دقيقاً فايقن انه يستحيل على مرغريت ان تستطيع الفرار من النوافذ لعلوها ثم خطر له اتصال منزل الدوق بمنزل دي مورلاي وذكر ما اخبره به رينالد عن وجود ذلك المنفذ السري فايقن ان مرغريت قد وجدت ذلك المنفذ وخرجت منه الى غرفة هرمين واتفقت واياها على السفر .

وعند ذلك اشار الى هرمين إشارة طمأنتها ثم دنا منها وقال لها ، اتأذن لي حضرة الانسة دي مورلاي بمقابلة ...

فاضطربت هرمين ولم تدري اتجيبه ام ترفض سؤاله ولكنها اجابته بالايجاب دون ان تعلم ما تقول .

ورأى ريكمبرج ما كان من اضطرابها فقال لها ، كوني واثقة سيدتي اني احترمك احترام الاولياء واذا كنت خائفـــة من الاختلاء بي فلك ان ..

فقاطعته هرمين قائلة ، ان من كان له مثل نبلك يا سيدي لا تخافه العـذارى .

ثم اشارت اليه ان يتبعها وتقدمته الى الردهة فتبعها ريكمبرج ولما خلا بها قال لها .

لا تتهميني يا سيدتي بالفضول واني قفوت اثرك ولكـــن الكونت دي لورجييري اخبر في هذا الصباح صديقي ابن عمك المركيز باختفاء بنت اخته مرغريت فبات رينالد في حالة تحمل على الاشفاق ولم اجد بدأ من ان اتولى عنه البحث عمن يحب .

ولم اكن اتوقع الظفر بهذه الضالة بمثل هـذه السهولة ولكن هي الصدفة سهلت لي اسباب اللقاء بك لاشكرك بلسان ابن عمك عن احسانك اليه .

ثم حكى لها كيف اتفق له انه اهتدى على أثرها بالتفصيل.

فقالت له : والآن ماذا عزمت ان تفعل ؟

قال : ان ذلك منوط بك على الاخص وبحضرة الدوقة .

— ماذا تعني بما تقول ؟

— أعني أنك احسنت الينا احساناً عظيماً قيـــدني وهو سيكون خير ضاغط على ما انويه فان احسانك لم يقتصر على ابن عمك المركيز يا سيدتي بل تعداه الي وقد عرفت امس بالبرهان الجلي حقيقة عطفك علينا .

— اوصل اليكما انذاري ؟

— نعم يا سيدتي

— وهل استفدتما به ؟

— كلا يا سيدتي لسوء الحظ .

فارتجفت هرمين وقالت : اهاجموكما ؟

— نعم واأسفاه

فارتعدت هرمين وجعلت تلح عليه باسئلة حتى حكى لهـا جميع حوادث المعركة بالتفصيل الدقيق .

فجعلت الفتاة تنظر الى ريكمبرج بمـلء الاعجاب دون ان تحاول أخفاء اعجابها بهـــذه البسالة النادرة العجيبة ولا تكاد تصدق ان رجلاً فرداً يستطيع الفتك بعشرين .

فلما أتم حديثه قالت له .

لقد علمت الان السبب في وجودك قرب منزل ابي في صباح اليوم فانك اردت بذلك ان تظهر لي انك نجوت من الخطر الذي كان يتهددك ويتهدد المركيز .

وقد ادركت وادركت الدوقـــة حسن قصدك فسافرنا مطمئنين بعد الخوف الشديد .

ثم سكتت هنيهة مفكرة وعادت الى الحديث فقالت .

ولكن كيف اتفق يا سيدي الكولونيل اننا لا نرى سواك في كل هذه الحوادث ؟

— كيف ذلك يا سيدتي ؟

— ذلك انك انت الذي انقذ ابن عمي من كل ما كان يتهدده

من الاخطار وانت الذي خطر لك في صباح اليوم هذا الخاطر الشريف فاتيت لتطمينا بسلامتكما من الاخطار وانت الذي قفوت اثرنا الليلة حتى ادركتنا ووقفت على سر الدوقة فكيف اتفق ان تعمل كل ذلك انت واننا لانرى المركيز ؟

– ذلك لاني اكثر تجربة من المركيز يا سيدتي ولأني الفت المشاق منذ حداثتي فلم اعد اكترث لتعب بعد ان بلغت مبلغ الكهول .

– ولكنك يا سيدي لم تتجاوز الثلاثين من العمر بعد .

– بل بلغت الخامسة والثلاثين واذا صح ما يقال بان اعوام الشقاء مزدوجة فقد بلغت الخمسين .

ولكن ما الذي دعاك الى هذا النهج فليس ذلك لفائدة خاصة كما ارى ؟

– اشكرك ياسيدتي لانك لم تظني بي هذا الظن .. نعم اني لا فائدة خاصة لي .

ولكني ميال بالطبع الى نصرة الضعيف والأخذ بيد كل مظلوم وقد لقيت رينالد وعرفت امره اتفاقاً ورأيت انه مظلوم لا ناصر له ولا معين فدفعني ميلي الفطري الى نجدته وهذا هو كل السبب .

– ولكن من أنت يا سيدي ،

– اني رجل لا اسم له ولا منصب ولا ثروة وليس لي احد في هذا الوجود اتصل به بصلة قربى ولذلك جعلت اطوف طواف الشريد الوحيد واعالج بهذا الطواف همي لعلمي اني لا اجد عيلة

احن اليها وتحن الي فكنت أصرف كل ما وعاه قلبي من الحنو الى الاشراف الطاهرين وانتزع الرحمة من ذلك القلب حين القي الاشقياء المفسدين كاني انتقم منهم عما اساءت به الى الانسانية على اني احمد الله في كل حال اخذه بيدي بعد ان تخلى عني الانسان فخرجت من الاشراف واوحى لي قلبي عواطف النبل والاخلاص فجعل عزائي خدمة الناس ، ولكنها خدمة لا جزاء فيها .

– وأي جزاء تطمع به يا سيدي بعد هذا الجزاء الذي نلته الا يكفيك ان تكون في طليعة أهل النبل والشرف وكيف تبالي بالاسم والثروة فان المرء يستعين بهما على نيل الشرف وقد نلت من هذا الشرف ما يغنيك عن ذلك الاسم وتلك الثروة ؟

فنظر ريكمبرج الى هرمين نظرة المعجب وقد اتقدت عيناه ببارق من السرور لم تره الفتاة لاستفحال الظلام .

– ولكن هذا البارق انطفأ مسرعاً كما اتقدت عيناه وقال: هذه اول مرة سمعت فيها هذا القول يا سيدتي

– كيف ذلك ألعلك تحسب اني اقول غير ما اضمر ؟

– معاذ الله أن يخطر لي هذا الخاطر يا سيدتي ولكن الناس تخلقوا بالادناس في هذا العهد وما اعتمدوا من الصفات غير الدهاء والمكر والحسد فلا تلقين بينهم كريماً ولذلك لا اعجب لسماع هذه الأقوال من فمك .

– لماذا ؟

– لانك نشأت بعيدة عن اهل الخديعة والنفاق وتربيت تربية صالحة اساسها الطهر وعمادها الدين .

– كيف ذلك ، اتعلم ...

– نعم فان رينالد اخبرني بكل امرك فانا اعلم ان اباك هجرك خمسة عشر عاماً ربيت في خلالها في قصر بوليري وتولت تربيتك امرأة زرعت في نفسك الكريمة خير بذور التقوى والصلاح فنشأت مفطورة على حب العدالة والحق .

– اذن انت تعلم يا سيدي اننا متفقان بالحظين وان مستقبلي لا يزيد تألقاً عن مستقبلك ، ما زلت تعلم ان ابي بعد ان اقامني في منزله ثلاثة اعوام عاد فنفاني الى الريف ؟

– ولكن الفرق بيني وبينك ان اباك اذا مات اصبحت غنية

– واين هي هذه الثروة يا سيدي ، اتحسب اني اتدانى الى قبض درهم من مال ابي وهو مال ابن اخيه ؟

اذن لقد اخطأت فراستك بي فاني لا ادنس يدي بمال مسروق ونعم ان لابي مالاً وهبه اياه اخوه المركيز وهو يعود الي بعد موته .

ولكن اية فائدة لي من هذا المال وانا مشوهة وقد قضى علي بالتبتل الى الموت .

وانا يا سيدتي اسألك بدوري كيف تحسبين جمال الجسد فوق جمال النفس ألم يخلق الله لك تلك النفس الطاهرة الشريفة وجمالها فوق كل جمال ، اتحسبين ان صفاتك الشريفة لا تجذب اليك قلب رجل شريف لا يروقه غير جمال النفوس وهو الجمال الخالد ؟

– واين اجد هذا الرجل العجيب ، الم تقل لي انت ان الناس قد تخلقوا بالادناس ؟

– نعم انها قاعدة عامة ولكن لكل قاعدة شواذاً وذلك كاف لتشجيعك واما انا فقد قلت لك اني لا اجد عزاء بغير نصرة المظلوم ولذلك التمس منك الاعتماد على صداقتي الا اذا كانت صداقة شقي مثلي تمس شعورك الراقية .

فمدت هرمين له يدها وقالت ، ايخطر لك هذا الخاطر ايها الكولونيل .. هذه يدي اصافحك بها واقسم ان كلامك خير بلسم لجراحي وانه سيظل مطبوعاً في قلبي الى الابد .

فضغط ريكمبرج على يدها وقال :

نعم اقبلي هذه الصداقة الخالصة فاني صديقك قبل ان اعرفك وقبل ان اسمع من شفتيك هذا الكلام المعزي فقد كنت اشعر بدافع عظيم يدفعني اليك لا سيما حين علمت بما عانيتيه وبما قد تعانيه فاني لم افتكر الا بك وما عرفت حقيقة الحنو الاكيد الا حين كنت تمثلين لضميري .

ولبث ريكمبرج ضاغطاً بيديه على يد هرمين فلم تنتزع يدها من يديه وقد مهدت الصدفة لهذين القلبين سبيل الاتحاد وربطها برباط وثيق .

وقد لا يكون هذا الوثاق وثاق حب في تلك الساعة ولكنه كان وثاقاً سرياً قيد هاتين النفسين الكريمتين ووصل بينهما بصلة من الاخاء لا تفصم بل قد يكون كل منهما احب الآخر دون ان يعلم فانهما نسيا انهما مختليان في ظلام الليل على قارعة الطريق وكلاهما مضطرب النفس خافق القلب .

وقد يكون هذا السكون نفسه وهذا الظلام قد احدثا في

قلبيها هذا الخفوق بل ان هذا الظلام وعدم التقاء النظرات قد شجعها على الحديث واظهار مكامن نفسيها فقال لها ريكمبرج وقد شعر ان يدها تضطرب بين يديه :

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني والخاتمة)

الفارس الخالد

ميشال زيفاكو روائي تملكت نفسه مشاعر الرغبة بانتصار الحب والعدل والإخلاص في هذا العالم المليء بالظلم.

ورواية الفارس الخالد واحدة من رواياته التي نالت شهرة كبيرة وترجمت إلى الكثير من اللغات ولاقت وما تزال تلاقي الرواج لما تحمله في طياتها من هذه المعاني العظيمة.

ونحن عندما نعيد إصدار هذه الرواية بحلة جديدة إنما نفعل ذلك إيماناً منا بانتصار هذه المبادىء وبأنها حيَّة وخالدة في نفس كل إنسان.

دار البحار